مجالس في أدب العرب

ألقاها:

محمد بن سعيد ابن طوق المري

النسخة الأولى

١٤٤٣

الحمد لله مُولي الإحسان، معلّم البيان، والصلاة والسلام على نبينا المبعوث بأفصح لسان، وعلى الآل والأصحاب والإخوان، صلاةً وسلامًا يُجدّدهما الجديدان، ويُمليهما الملَوان، ما سبَّحت الوُرْق على الأفنان، وعَنَتِ الوجوه للملك الديّان.

أما بعد فإن أصل ما في هذه الأوراق مدارسة مع بعض الإخوان، طواها ثوب النسيان، فدخلت في خبر كان، وتبدّلت حركاتُها بالإسكان، حتى هيّأ الله لها بحسن تدبيره الشيخ عثمان بن إبراهيم المديفر زاده الله من العلم والإيمان، وجعله مباركًا أينما كان، ففرّغها واعتنى بها وزاد فيها ونقص وهذّب ورتّب وقد أحسن في كل ما فعل، فصارت نسبتها إليه حقيقة، وإلى ملقيها مجازًا باعتبار ما كان.

ثم تولَّيت مراجعة هذا التفريغ فزدت في تضاعيفه بعض الأخبار، وأعدت صياغة بعضها.

ومن المهم التنبيه على أن الغالب في الدروس المفرَّغة أن يكون الكلام ابنَ يومِه وليلتِه، بل قد يكون ابنَ ساعتِه ولحظتِه، فليست كالتصانيف التي يكون الكلام فيها ابنَ شهرِه وسنتِه، يبدئ فيه كاتبه ويعيد، ويتأنّق في ترصيفه وتنضيده كما يريد، وقد جعل الله لكلّ شيء قدرًا.

وكان من غرض هذه المجالس أن يُعرَض شيء من روائع الأدب وجواهره ومُلَحِه، وأن نتعرف على بعض أعلام الشعر وشيءٍ من مُتَخَيَّرِ أشعارهم منذ أن كان الشعر إلى يوم الناس هذا، وألا نشتغل عن الأدب بما قيل عنه، بل نعيش مع طريف حكاياتهم، وسرعة بديهتهم، وحلو نادرتهم، وارتجازهم على نوقهم، ومفاخراتهم في مجالسهم، وإنشادهم في أنديتهم، ونرى كيف يحمل الأدبُ على الاتصاف بالكمالات، ويزيد في العقل، ويرفع الوضيع، ويضع الرفيع، وينزع الأحقاد، ويثير العداوات، ويُكسب سرعة البديهة، ويُثمر سلامة اللسان، ويذبّ عن الأحساب، ويُخَلِّد المفاخر، ويُمضي الشفاعات، ويستنجز الصِّلات نرى كلَّ ذلك وغيرَه من خلال قصصهم وأخبارهم وأشعارهم ذلك أدنى أن تستحكم محبة الأدب في النفوس، وأن تهوي إليه الأفئدة، فيرتع طالبه في رياضه، ويكرع من حياضه، ولا يزال كذلك حتى ينقادَ منه الطبع، وتنهضَ الملكة، ويرى جمال اللسان، ويرتاضَ على البيان، ويجريَ قلمه على السداد، وتُمدَّه القريحة بالأمداد.

وأوّل خطوة إلى ذلك إحياءُ حبّ الأدب في القلوب بأن تُعرض روائعه وجواهره في المعرِض الحسن، وكل محاولة لصناعة أديب دونها يُخشى ألا تؤتي أُكُلَها.

وستنتهي بك هذه الأوراق إلى خروج من جِدِّ الكلام إلى ظَرْفه، ومن حَزْنه إلى سهله، بما ستراه من نسيب الشعراء، ونوادر الحمقى والمغفلين، وأخبار المِزاح وما ورد عن الأشراف والأئمة من ذلك، وهذه جادة في الأدب سلكها السالكون، وأخذ فيها القائلون، "ولو وقع فيه توقّي المتزمّتين لذهب شطر بهائه، وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك"[١]، فأرسل نفسك على سجيّتها، ولتعرف المذهب في ذلك، فإن الله -تعالى- يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

ولا يفوتني هنا أن أُزجي شكريَ المشفوع بالدعاء للشيخين الكريمين أبي الحسن العامريّ وعبد الباري العلميّ اللّذين كانا سببًا في إبراز هذه الأوراق بحسن الدلالة والمشورة والنصح.

ولما كَلَّ اللِّسان عن بلوغ ما استحقّا من الشكر، كان أعظم الحيل عندي أن أمحضهما صدق المصافاة، ومكنون الودّ، وأنا أَكِل مكافأتهما إلى الكريم -سبحانه- فجزاهما الله خير الجزاء وأوفره، وأحسن إليهما في الدنيا والآخرة.

هذا والله المرجوّ أن يتقبّل العمل، ويغفر الزلل.

وكتبه

محمد بن سعيد ابن طوق المري

يوم الأحد الثاني من شهر ربيع الآخر

سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة وألف

بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) قاله ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار

مجالس في أدب العرب

القسم الأول

فضل الأدب ودواعي العناية به

وفيه ستة مجالس

المجلس الأول

في هذا المجلس:

- الشعر ديوان العرب.
- حاجة طالب العلم إلى أن يُرَطِّب مشاعره بنَفَحات الأدب؛ ليَعذُب قولُه ويَجْمُل تقريره للعلم .
- المقصود من هذه المجالس أمران:

الأول: أنْ نعرف منزلة الأدب وأهميته.

الثاني: أن تُعرض نوادره وروائعه وجواهره؛ فإنها إذا عُرضت في المعرِض الحسن أوشكت أن تنجذب إليها القلوب وأن تهوي إليها الأفئدة.

- الطريق إلى تحقيق هذا المقصود ثلاثة أشياء:

الأول: لماذا الدعوة إلى الأدب؟

الثاني: شعر العلماء.

الثالث: عصور الأدب.

وهذه الثلاثة هي محاور هذه المجالس.

- دورة حياة كلمة الأدب.
- **لماذا الدعوة إلى علم الأدب؟**

أولًا: الإسلام حث عليه، وما ورد في ذلك من الأحاديث والآثار عن السلف.

* هل قول الشعر ينقض الوضوء!

ثانيًا: يعين على فهم القرآن وشواهد ذلك.

* كان ابن عباس يُسأل عن الآية فينشد في معناها الشعر.

ثالثًا: اللغة والأدب عنوان الهوية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد [الرجز]

فَالشِّعْرُ دِيوَانُ العَرَبْ وَكَمْ أَنَالَ مِن أَرَبْ
فَانْسِلْ إِذَا رُمْتَ الأَدَبْ إِلَيهِ مِن كُلِّ حَدَبْ
رِوَايَةُ الأَشْعَارِ تَكْسُو الأَدِيبَ العَارِي
وَتَرْفَعُ الوَضِيعَا وَتُكْرِمُ الشَّفِيعَا
وَتُنْجِحُ المَآرِبَا وَتُصْلِحُ المَعَايِبَا
وَتُطْرِبُ الإِخْوَانَا وَتُذْهِبُ الأَحْزَانَا
وَتُنْعِشُ العُشَّاقَا وَتُؤْنِسُ المُشْتَاقَا
وَتَنْسَخُ الأَحْقَادَا وَتُثْبِتُ الودَادَا
وَتُقْدِمُ الجَبَانَا وَتُعْطِفُ الغَضْبَانَا
فَقُمْ لَهُ مُهْتَمَّا وَاحْفَظْهُ حِفْظًا جَمَّا
وَخيرُهُ مَا أَطْرَبَا مُسْتَمِعًا وَّأَعْجَبَا

حَرِيٌّ بِحَمَلَةِ العلم وشُداة المعرفة أن يُرَطِّبوا مشاعرَهم بهذه النَّفَحَات الأدبية؛ حتى يَعْذُبَ قَولُهم، وتَجْمُلَ عباراتُهم، ويَحْلُوَ تقريرُهم لحقائق العلم فتقع من القلوب موقع القطر من الأرض العطشى، والعذبِ الفرات من الكبد الحرّى، كما كان ابنُ عباس -رضي الله عنهما- والشَّعْبيُّ والشَّافعيُّ وغيرُهم من علماء الأمة الذين يَذُوبُ كلامُهم رِقَّةً وَحَلاوَة، وبَهْجَةَ وطُلَاوَة، وقد قال ابن السِّيد البَطَلْيَوسي: الطريقة الفقهية مُفْتَقِرَةٌ إلى علم الأدب، مُؤَسَّسةٌ على أصول كلام العرب، وإنما مَثَلُها ومَثَلُهُ قَولُ أبي الأَسْوَد: [الطويل]

فَـإِلَّا يَكُنْهَـا أَوْ تَكُنْـهُ فَإِنَّـهُ   أَخُوهَـا غَذَتْـهُ أُمُّـهُ بِلِبَانِـهَا

وهذه مجالس في الأدب المقصودُ منها أمران:

الأول: أن نعرف فضلَ الأدب، ومنزلتَه وأهميَّتَه، وتأثيرَه على النفوس.

الثاني: أن يُعْرَضَ شيءٌ من نَوَادِره وروائِعِه وجواهرِه؛ فإنها إذا عُرِضَتْ في المَعْرِض الحسن أوشكَتْ أن تنجذب إليها القلوب، وأن تَهْوِيَ إليها الأفئدة.

ولا نريد أن نشتغل عن الأدب بما قيل في الأدب، بل نريد أن نعيش مع الأعراب وهم ينشدون الشعر على نُوقِهم، ومع الشعراء في مُفَاخَرَاتِهم في مجالس الخلفاء، نريد أن نعيش معهم في أخبارهم وأشعارهم، في سرعة بَدِيهَتِهم، وحُلْوِ نَادِرَتهم، وطريف حكاياتهم.

والطريق إلى تحقيق هذا المقصود ثلاثة أشياء، هي محاور هذه المجالس:

الأول: لماذا الدعوة إلى علم الأدب؟

الثاني: شعر العلماء وأدب الفقهاء.

الثالث: عصور الأدب.

ويَحْسُن قبل البَدء أن نعرف دَورة حياة كلمة الأدب.

الأدب في الأصل: الدعوة إلى الطعام، يقال: أَدَبَ القومَ يأْدِبُهم أدْبًا وأدَبًا؛ إذا دعاهم إلى الطعام، ومنه المأدُبة -بضم الدال وتفتح وحكي فيها الكسر فهي مثلثة- للطعام الذي يصنعه الرجل ويدعو إليه الناس.

قال طرفة: [الرمل]

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى   لَا تَـرَى الآدِبَ مِنَّـا يَنْتَقِـرْ

والمشتاة: الشتاء وهو وقت مَخْمَصَة وشدة وجوع.

ودعوة الجَفَلى هي الدعوة العامة.

والآدِب: الداعي.

وينتقر: يخصُّ بالدعوة.

فالدعوة نوعان: الجَفَلى والنَّقَرى.

والإطعام مرتبط بخَصْلَة عظيمة هي الكرم، وقد كان الكرم من أشرف خلال العرب، لولا الكرم ما وجد المسافر من يسقيه في سفره وقطعه الفلوات، لذا أُطلِق بعد ذلك الأدبُ على كرم الأخلاق وتهذيب الطِّباع، ومن هذا المعنى: ما يُروى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي» وهذا الأثر وإن كان معناه صحيحًا إلا أنه لا يعرف له إسناد ثابت كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وأيده السخاوي والسيوطي.

وقالت امرأةٌ عجوز –كان ولدها يضربها، فإذا سُئل عن ذلك قال: أريد أن أُؤَدِّبها– قالت:

[البسيط]

أَمْسَى يُـمَزِّقُ أَثْوَابِـي وَيَضْرِبُنِـي أَبَعْدَ سِتِّينَ يَبْغِي عِندِيَ الأَدَبَا؟

وقد قال ابن فارس في هذه الكلمة –الأدب–: إنها ترجع إلى الاجتماع.

وهذا أصل صحيح؛ فالأدب الدعوة إلى الطعام، والناس يجتمعون على الطعام، ويجتمعون أيضًا على استحسان الكرم والأخلاق المُهذبة.

وفي الدولة الأموية كان الملوك يتَّخِذون المُؤَدِّبينَ لأولادهم، فكان معلمُ أولاد الخلفاء يسمى مُؤَدِّبًا، وكان المؤدبون يلقنون أولاد الخلفاء الأشعار والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم فأُطْلِقَ الأدب على كل ذلك وصارت كل العلوم داخلة في حدِّ الأدب.

قال ابنُ خَلْدُون: "هذا العلم –يعني الأدب– لا موضوع له يُنظَر في إثبات عَوارِضِه أو نَفْيِها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فَنَّي المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم، فيَجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به المَلَكَة: من شعرٍ عالي الطبقة، وسجعٍ مُتَساوٍ في الإجادة، ومسائلَ من اللغة والنحو مبثوثةٍ أثناء ذلك متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب؛ يفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة

والأخبار العامة.

والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيءٌ من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

ثم إنهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفن، قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف".

ثم لما تكاثرت العلوم اختص لفظ الأدب بعلوم العربية ثم دارت الكلمة دورتها الأخيرة فصار الأدب قَسِيمًا للنحو والصرف والبلاغة، وصَار يُطلَق على: الكلام البليغ من الشعر والنثر، فكل ما يعينك على أن تعبر عما في نفسك تعبيرًا جميلًا مؤثرًا فهو الأدب الذي نريده.

ما دواعي العناية بالأدب؟

١-أن الإسلام رفع الأدب

قال -صلى الله عليه وسلم- كما في البخاري: «إن من الشعر حكمة».

وقال -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: «أصدقُ كلمة قالها شاعر قولُ لَبِيد:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَّا خَلَا اللهَ بَاطِلُ».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «اهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رَشْقٍ بالنَبْل» أخرجه مسلم.

وكان -صلى الله عليه وسلم- كما في مسند الإمام أحمد إذا استراث الخبر تَمثَّل فيه ببيت طَرَفة:

وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَن لَّم تُزَوِّدِ.

وفي صحيح مسلم من حديث الشَّرِيدِ بن سُوَيد -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له «هل معك من شِعر أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْت شيء؟» قال: قلت:

نعم. قال: «هيه» فأنشدته بيتًا. فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتًا. فقال «هيه» حتى أنشدته مئة بيت.

وعن جابر بن سَمُرَةَ -رضي الله عنهما- أنه قال: جالست النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، فربما يتبسم معهم. أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

وثبت عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يضع لحسان -رضي الله عنه- منبرًا في المسجد فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «إن روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله». أخرجه أبو داوود وحسنه الألباني.

قال صاحب الشمقمقية: [الرجز]

وَقَدْ بَنَى المِنبَرَ لِابْنِ ثَابِتٍ فَكَانَ لِلْإِنشَادِ فِيهِ يَرْتَقِي

- وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: مُرْ مَن قِبَلَك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب.

- وقال ابن عباس -رضي الله عنه-: الشعر ديوان العرب.

- ونَقَل محمد بن سَلَّامٍ الجُمَحِي عن بعض أشياخه أنه قال: كان عمر بن الخطاب لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر.

- وقال المُفَضَّل -رحمه الله-: لم يبق أحد من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وقد قال الشعر وتَمثَّل به.

- بل قال عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير اللَّيثي: كان الرجلان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يتناشدان الشعر وهما يطوفان حول البيت.

- وجاء عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- : أنه روى من شعر كعب بن مالك تسعين قصيدة.

– وكانت عائشة –رضي الله عنها– تحفظ من شعر لبيد بن ربيعة العامري –رضي الله عنه– وحده اثني عشر ألف بيت [الرجز]

رَوَتْ لَهُ مِنَ الأُلُوفِ اثْنَي عَشَرْ عَائِشَـــةٌ وَكُــلُّ شِـــعْرِهِ دُرَرْ

– وعن أبي خالد الوَالِبِي أنه قال: كنت أجلس مع أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلعلهم لا يذكرون إلا الشعر حتى يتفرقوا.

– وعن الشَّعْبي أنه قال: كان أبو بكر شاعرًا وكان عمر شاعرًا وكان علي أشعر الثلاثة –رضي الله عنهم–.

– وقال عكرمة: كنت أسير مع ابن عباس –رضي الله عنهما– ونحن منطلقون إلى عرفات، فكنت أنشده الشعر ويفتحه علي.

– وعن كَثِير بن أفلح أنه قال: كان آخر مجلس جلسنا فيه مع زيد بن ثابت –رضي الله عنه– مجلسًا تناشدنا فيه الشعر.

– وعن الحكم أن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنشد شعرًا في المسجد والمؤذن يقيم.

– وعن عكرمة قال: كان ابن عباس –رضي الله عنهما– إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد شعرًا من أشعارهم.

وهذه الآثار كثير منها في مصنف ابن أبي شيبة في باب الرخصة في الشعر.

– وعن أبي سَلَمَة بن عبدالرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مُتَحَزِّقِين ولا مُتَمَاوِتِين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله دارت حَمَالِيقُ عينيه كأنه مجنون. أخرجه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني.

متحزقين: أي متقبضين

والحماليق: جمع حِملاق، وحِملاق العين باطن أجفانها الذي يسوده الكحل، وهو كناية عن فتح العينين والنظر الشديد.

– وعن مطرِّف أنه قال: صحبت عمران بن حصين –رضي الله عنهما– من الكوفة إلى البصرة فَقَلَّ منزل ينزله إلا وهو ينشدني شعرًا. أخرجه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني.

فالتزهيد في الشعر والتهوين من شأنه انحراف عن منهج السداد.

– قيل لسعيد بن المُسَيِّب: إن قومًا بالعراق يَعِيبون إنشاد الشعر. فقال: نسكوا نُسُكًا أعجميًّا.

– وسئل ابنُ سيرين وهو في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان، وأن قومًا قالوا: إنه ينقض الوضوء، فقال: [البسيط]

نُبِّئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثم قام فَأَمَّ الناسَ.

– وسئل ابنُ عباس –رضي الله عنهما– وهو محرم: هل الشعر من رَفَث القول؟

فأنشد: [الرجز]

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ ...

إلى آخر البيت وقال: إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة.

فإن قال قائل: إن الله –عز وجل– ذم الشعراء فقال: {وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾} فما الجواب؟

الجواب: أنَّ من يقرأ هذه الآيات وينقطع نفسه هنا هو مثل الذي يقرأ {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ } ويقف! أين الاستثناء الذي يرفع اللَّائمة عن المؤمنين {إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ}.

– وإن قال قائل: فقد قال –صلى الله عليه وسلم– كما في الصحيحين: «لأن يَمْتَلِئَ جَوْف أحدكم قَيحًا يَرِيه –أي يفسده– خير له من أن يمتلئ شعرًا» فما الجواب؟

الجواب: المذموم أن يكون الشعر مستوليًا على القلب، بحيث يشغله عن القرآن والحديث، وإلا فكيف نُوَفِّق بين هذا الحديث وبين الأدلة المتكاثرة التي فيها حث الإسلام على الشعر، تجد هذا الجواب في شرح الحافظ ابن حجر على البخاري، وشرح النووي على مسلم.

وإن قال قائل: إن الله -تعالى- نزّه نَبِيَّهُ -صلى الله عليه وسلم- عن قول الشعر فقال -تعالى-: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما ذاك إلا لنقص الشعر فما الجواب؟

الجواب: أن الله -تعالى- نفي الشاعرية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لئلا تدخل الشبهة على من أُرسِلَ إليه -كما قال القرطبي في تفسيره- فيَظُنُّ أنه قَوِيَ على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر، كما نفى الله -تعالى- عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- القراءة والكتابة فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وذلك ليكون أبلغ في قطع حجة المبطلين وأدل على أن هذا القرآن من عند الله فإنه لو جاء ممن يقرأ أو يكتب لارتاب المبطلون ولقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

قال في الشمقمقية:

مَـــا هُـــوَ إِلَّا كَالكِتَابَـــةِ وَمَـــا فَضْـــلُهُمَا إِلَّا كَشَـــمْسِ الأُفُـــقِ
وَإِنَّمَـــا نُـــزِّهَ عَنْهُمَـــا النَّـــبِي لِيُـــدْرَكَ الإِعْجَـــازُ بِـــالتَّحَقُّقِ

٢- أنه يعين على فهم القرآن.

سأل عمر -رضي لله عنه- أصحابه وهو على المنبر عن قوله تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ} ما التَّخَوُّف؟ فقال رجل من هذيل: التَّخَوُّف التَّنَقُّص. قال: أَوَ تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي: [البسيط]

تَـخَوَّفَ الرَّحْـلُ مِنهَـا تَامِكًـا قَـرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

تَخَوَّفَ الرحل منها: تنقَّص الرحل من الناقة، والرحل مركب للبعير والناقة.

تامكًا: سنامًا مرتفعًا.

قرِدًا: قد تراكم لحمه من السمن أو كثر عليه القراد.

كما تَخَوَّفَ: كما تنَقَّص.

عود النبعة: شجر يُتخذ منه القِسي.

والسَّفَنُ: المِبْرَدُ.

والمعنى أن الرحل تَنَقَّص سنامَها المُرتفعَ كما تَنَقَّص المِبرَدُ عُودَ النَّبْعَة.

فقال عمر –رضي الله عنه– : عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

– وقد صح عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: أنه كان يُسأَل عن الآية فينشد في معناها الشعر. وقال: إذا قرأتم شيئًا من كلام الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب.

– ومما يشهد لهذا خبرُ مسائلِ نافع بن الأزرق، فإنه بَيْنَا ابن عباس –رضي الله عنهما– جالسٌ بفِناءِ الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، قال نافع بن الأزرق لصاحبه نَجْدَة الحَرُورِي –وهما من كبار الخوارج–: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به! فقاما إليه فقالا له: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتُفَسِّرَها لنا وتأتيَنا بما صَدَّقَهُ من كلام العرب.

فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

فسألاه مسائل، فكان كلما أجاب ابن عباس –رضي الله عنهما– سأله نافع: وهل تعرف ذلك العرب؟ فيخبره ابن عباس –رضي الله عنهما– بما يشهد لذلك من كلام العرب، من ذلك أنه قال له: أخبرني عن قوله تعالى: {وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ} قال: الوسيلة الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عنترة: [الكامل]

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيكِ وَسِيلَةٌ ... أَن يَّأْخُذُوكِ تَكَحَّلي وتَخَضَّبِي

قال: أخبرني عن قوله تعالى: {فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا} قال: النقع ما يسطع من حوافر الخيل.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول حسان: [الوافر]

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إن لَّمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: {وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ} قال: لا تعرق فيها من شدة حر الشمس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

[الطويل]

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

في مسائل كثيرة ذكرها السيوطي في الإتقان.

فالأدب يعين على فهم القرآن.

٣- أن الأدب واللغة عنوان الهُوِيَّة:

واللغة عندما تطلق لا يراد بها النحو والصرف والبلاغة، هذه علوم اللغة وليست هي اللغة؛ اللغة: هي الكلام نفسه الذي لفظ به الأعراب الفصحاء، وعندما نتحدث عن هُوية اللغة نتحدث عن هذا، قبل أن نتحدث عن العلوم التي تفرعت عن هذه اللغة.

فاللغة أداة:

- للتفكير، فالإنسان لا يستطيع أن يفكر خارج أُطُرِ لغته، ولا يستطيع أن يتصور شيئًا لا تدل عليه لغته.

- وأداة للتواصل وبها يبني علاقاته بالآخرين.

- وأداة للتعبير الوجداني والإمتاع والمؤانسة.

- وأداة لنقل التراث، وغير هذا.

ولذلك تتفاضل الحضارات بتفاضل اللغات؛ فإن كل لغة إنما تحمل من المُثُل ومن القيم ما حصلته عبر تاريخها وتاريخ المتكلمين بها.

إن العنصر اللغوي من بين كل أركان وركائز الهُوية هو عنصر يحكم الأركان الأخرى. فالأمة الإسلامية أمة وحَّد الله عز وجل لها لسانها حتى لا تختلف على كتاب ربها، وهذا قد

يكون من أسرار أن الله عز وجل أكثر من ذكر عربية القرآن في الكتاب الكريم. فعربيتنا تملك كتاب الله عز وجل فمن لم يستغن به فلا أغناه الله.

إن الاستحياء من استعمال العربية يدل على مقبولية شعورية أو غير شعورية للانسلاخ من الـهُوية.

ومن صور الخطر في هُوية اللغة:

– النفور والاشمئزاز من اللغة: إن اللغات عمومًا إذا لم يسلك إليها الإنسان من بوابة الحب فالغالب أنه يتعثر، لأنها مَلَكة والمَلَكة تحتاج إلى تكرار وإعادة: [الكامل]

أَعِـدِ الـحَدِيثَ عَلَـيَّ مِـن جَنَبَاتِـهِ إِنَّ الـحَدِيثَ عَنِ الـحَبِيبِ حَبِيبُ[1]

– كتب كاتب فِرنسي قصة عنوانها : الدرس الأخير، حاصلها أن صبيًّا قال: غدوت إلى المدرسة صبيحة يوم من الأيام الأخيرة من العام ولـمَّا أحفظ درسي، فخشيت أن يقرّعني أستاذي ويعاقبني فأخذت طريق الحقول عَلِّي أقطع النهار في اللعب واللهو، ثم بدا لي فعدت عن هذه الفكرة وذهبت إلى المدرسة قلق الذهن مشغول البال، فما لفت نظري إلاّ إسراع الناس مصفرّة ألوانهم، عليهم أمارات الخوف والألم، إلى حيث لا أعلم. فتبعتهم حتى وصلوا إلى دار الحاكم، ثم لم أدرِ ماذا كان بعد ذلك لأني أسرعت إلى المدرسة، فذهبت سعيًا إلى غرفة الدرس فوجدت الأستاذ يروح ويجيء فيها قلِقًا، قد ارتدى حلته الرسمية التي ما كان يلبسها إلاّ في يوم احتفاء أو عند قدوم مفتّش. ورأيت بعضًا من أهالي القرية قد جلسوا على المقاعد واجمين شاخصة أبصارهم بوجوه كئيبة مكفهرّة، فانسللت إلى مكاني وأنا أشدّ ما أكون حيرةً ووجلًا.

---

[1] من قوله (ثالثًا) إلى هذا البيت مأخوذ من مقطعين على اليُتْيُب:

محاضرة لعادل باناعمة: اللغة والهوية.

أمين قادري: تأثير مادة اللغة العربية في بناء الهوية. (زيادة من المعتني)

وعلا الأستاذُ المنبرَ فقال بصوت مرتجف ورنّة حزينة كأنها بكاء ونحيب: أولادي، هذه آخر ساعة أراكم فيها ثم نفترق إلى غير تلاق، لأن بلادكم قد احتلّها الألمان واستبدلوا لغتهم الجرمانية بلغتكم الفرنسية، فلا فرنسية بعد اليوم.

وخنقَته العبرات فما استطاع أن يُتِمّ كلامه، فعلمت لِمَ كان الناس يسرعون إلى دار الحاكم، ثم عاد الأستاذ فقال: والآن أصغوا إليّ لأتلو عليكم «الدرس الأخير». قم يا ...

فلم أسمع اسمي حتى ارتجفت وقمت، ولم أكن حفظت درسي فوقفت ساكنًا، فقال: اجلس يا بني، اجلس، فأنا لن أعاقبك ولن ألومك فقد فات أوان اللوم والعقاب، ولكن اعلموا يا أولادي أنكم أضعتم بلادكم وسلمتموها إلى عدوكم بإهمالكم لغتكم.

فاللغة والأدب عنوان الهُويَّة وليس ببعيد ما فعلته اليهود، فقد بعثت اللغة العبرية من قبرها من أجل أن تكون عنصر تفاهم مشترك بين هؤلاء الذي جاؤوا من ثقافات مختلفة، فهم يعرفون أن اللغة الموحدة جديرة بأن تصهر هذا الكيان وأن تجعله شيئًا واحدًا، وأيضًا فِرنسا كانت ترى أن العمل الجبار الذي عليها إنجازه في ما احتلته من البلاد نشر لغتها حتى تقوم مقام لغة أهل البلد، قال نابليون: علموا اللغة الفِرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية. وهكذا كانت تفعل دول الاحتلال في البلاد التي احتلتها.

انتهى المجلس الأول بحمد الله

المــــجـــلـــس الـثــانـــــي

في هذا المجلس:

رابعًا: الأدب يحمل على الاتصاف بالكمالات:

-خبرُ معاوية -رضي الله عنه- ليلة الهَرِير وأبيات عمرو بن الإطنابة.

-خبرُ المأمون وامتناعه من مصارعة أخيه لأبياتٍ لعبدالملك بن مروان.

وَلَـوْلَا خِـلَالٌ سَـنَّهَا الشِّـعْرُ مَـا دَرَى بُغَـاةُ العُلَـى مِـنْ أَيـنَ تُؤْتَـى المَكَـارِمُ

خامسًا: الأدب يزيد في العقل:

- خبر الزِّبْرِقَان بن بدر وعَمْرِو بن الأَهْتَم -رضي الله عنهما- في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- خبرُ خالد القَسْرِي وذمِّه الحجاجَ بن يوسف الثقفي، وإظهارِه البراءةَ منه في خطبة الجمعة بمكة، وقد مدحه في خطبة الجمعة التي قبلها.
- خبر غَيْلَانَ بن خَرَشَة وتقبيحِه لنهر أم عامر مع زياد، بعد تحسينه له مع عبدالله بن عامر.
- خبر الحجاج وكتابِه إلى عبدالملك بن مروان الذي فيه: إنما مَثَلي ومَثَلُك كمَثَل ابني آدم إذ قَرَّبا قربانًا...
- خبر الحارث بن هشام وتحسينِه فرارَه يوم بدر.
- ابن دَقِيق العِيد: تَمنَّيت أنَّ الشيب عاجل لِمَّتي!

ومنه حُسْنُ التَّعليل:

- خبر المَازَرِي والشُّعَاعِ المُنعَكِس.
- خبر ابن عُنَين مع الفخر الرازي والحمامة التي ألقت نفسها على الرازي.

فِــي زُخْـرُفِ القَـوْلِ تَزْيِيــنٌ لِّبَــاطِلِهِ وَالحَــقُّ قَــدْ يَعْتَرِيــهِ سُــوءُ تَعْبِيــرِ

سادسًا: الأدب يرفع الوضيع:

- خبر بني أَنفِ الناقة.
- خبر هَرِمِ بنِ سِنَان مع زُهَير بن أبي سُلْمَى.
- خبر المُحَلَّق الكِلَابي مع الأعشى.
- خبر المَازِني مع الخليفة الواثق.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فقد سبق في المجلس الأول أنَّ المقصود من هذه المجالس أمران:

الأول: أن نعرف فضلَ الأدب، ومنزلتَه وأهميَّتَه، وتأثيرَه على النفوس.

الثاني: أن يُعْرَضَ شيءٌ من نَوَادِره وروائِعِه وجواهرِه؛ فإنها إذا عُرِضَتْ في المَعْرِض الحسن أوشكَتْ أن تنجذب إليها القلوب، وأن تَهْوِيَ إليها الأفئدة.

والطريق إلى تحقيق هذا المقصود ثلاثة أشياء:

الأول: لماذا الدعوة إلى علم الأدب؟

الثاني: شعر العلماء.

الثالث: عصور الأدب.

بدأنا بالأول وأخذنا ثلاثة من دواعي العناية بالأدب:

أولًا: أن الإسلام حث على الأدب.

ثانيًا: أنه يُعين على فهم القرآن.

ثالثًا: أن الأدب عُنوانُ الهُويَّة وشعارُ كلِّ قوم.

ومن دواعي العناية بالأدب وأسباب الدعوة إليه:

٤- أنه يحمل على الاتصاف بالكمالات.

وقد قال أبو بكر الصديق ﷺ: علِّموا أولادكم الشعر؛ فإنه يُعلِّمهم مكارم الأخلاق. وكتب عمرُ إلى أبي موسى الأَشْعَري: مُرْ مَن قِبَلَك بتعلُّم الشعر؛ فإنه يَدلُّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

وسيأتي كثير من شواهد هذا في هذه المجالس، ولا بأس أن نذكر هنا شيئًا من شواهده:

- من ذلك: أنَّ معاوية ﷺ قال: اجعلوا الشعر أكبرَ همِّكم، وأكثرَ دَأْبِكم؛ فلقد رأيتُني ليلة الهَرِير بصِفِّين -وصِفِّين وقعة كانت بين أهل الشام وأهل العراق- وقد أُتيتُ بفرس أَغَرَّ

مُحَجَّلٍ بَعِيدِ البطن من الأرض، وأنا أريد الهربَ لشِدَّة البَلْوى، فما حَمَلني على الإقامة إلَّا أبيات عمرو بن الإِطْنَابة: [الوافر]

أَبَتْ لِي هِمَّتِي وَأَبَى بَلَائِي ... وَأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِقْحَامِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي ... وَضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي
لِأَدْفَعَ عَن مَّآثِرَ صَالِحَاتٍ ... وَّأَحْمِيَ بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

– ومن شواهد ذلك: أنَّ الرَّشِيد كان قد شَغَلَه أَمْرُ وَلَدَيْهِ الأمين والمأمون؛ مَن الذي يَعْهَد إليه بالأمر منهما؟ فأحضرهما وهما صبيان، فأَغْرَى بينهما –يختبر حِلْمَهُمَا– فأسرع الأمين إلى المأمون، وكان المأمون أحَلَمَهُمَا، ثم إنه أمرهما أن يتصارعا فَوَثَب الأمين وسَكَن المأمون، فقال له الرَّشِيد: ما لك لا تقوم، أَخِفْتَ ابن الهاشمية؟ إنه لَأَيِّد. فقال المأمون: هو على ما ذكر أمير المؤمنين، ولكني لم أخفه؛ وإنما قبض يدي عنه الذي قبض لساني. فقال له الرشيد: وما الذي قبض يدك ولسانك؟ فقال: قول الأُمَوِي لبنيه: [الكامل]

انفُوا الضَّغَائِنَ بَيْنَكُمْ وَتَوَاصَلُوا ... بَينَ الأَبَاعِدِ وَالحُضُورِ الشُّهَّدِ
حَتَّى تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَجُلُودُكُمْ ... لِمُسَوَّدٍ مِّنكُمْ وَغَيرِ مُسَوَّدِ
إنَّ القِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا ... بِالكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وَّبَطْشٍ أَيِّدِ
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ ... فَالوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ

وإلى هذا أشار في الشَّمَقْمَقِيَّةِ بقوله: [الرجز]

وَلَكَ فِي مَن كَان مِثْلَ الأُمَوِيْـ ... ـي أُسْوَةٌ بِهَا اقْتَدى كُلُّ تَقِي

الأُمَوِي: عبدالملك بن مروان.

ومَن كان مثله: المأمون.

ولما ورد على البخاري نَعْيُ عبدِالله بن عبدالرحمن الدَّارِمي، طأطأ رأسه ثم رفعه ودموعه تسيل على خَدَّيه، وقال: [الكامل]

إِنْ تَبْـقَ تُفْجَـعْ بِالأَحِبَّـةِ كُلِّهِـمْ وَفَنَـاءُ نَفْسِـكَ لَا أَبَـا لَـكَ أَفْجَـعُ

ما أعظمه من بيت! إذا مات فلان وفلان فما زلت تستطيع أن تعمل، لكن إذا فَنِيَتْ نفسك فمَن يصلي لك، ومن يصوم لك! قال الشاعر: [الطويل]

وَنَفْسَـكَ أَكْـرِمْ عَـنْ أُمُـورٍ كَثِيـرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَـا تَسْتَعِيرُهَا

وما أصدق قولَ أبي تَمَّام: [الطويل]

وَلَوْلَا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى بُغَـاةُ العُلَـى مِـنْ أَيـنَ تُؤْتَـى المَكَـارِمُ

ومن دواعي العناية بالأدب والسعي في تحصيله:

٥- أن الأدب يزيد في العقل ويُحيي الفِكْر

ومما يبيّن هذا ما يسمى عند الأدباء بتحسين القبيح وتقبيح الحسن.

- ومن شواهد ذلك: خبر الزِّبْرِقان بن بدر مع عَمْرو بن الأَهْتَم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أنهما جلسا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال الزِّبْرِقان: يا رسول الله، أنا سيد بني تميم والمُطَاع فيهم والمُحَبَّب لديهم، أمنعهم من الظلم وآخذ لهم حقوقهم، وهذا -يعني عمرو بن الأهتم- يعلم مني ذلك.

فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العَارِضَة، مَانع لِجَانبه، مُطَاع في أَدْنَيه.

فقال الزبرقان: والله لقد علم مني أكثر مما قال، وما منعه إلا الحسد!

فقال عمرو: أنا أحسدك! فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مُضَيَّع العشيرة. والله يا رسول الله، لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الأخرى، ولكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وسَخِطتُ فقلت أقبح ما علمت، ولقد صدقت في الأولى والآخرة جميعًا.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن من البيان لسحرا»، أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك وقال ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر بإسناده: هذا إسناد غريب جدا. والأصل أن لا يُحرص على الحكم على الأخبار التي تذكر في الأدب، لكن هذا يتعلق بالصحابة، فلا يحسن أن يُمَشَّى.

وقد قال في الشَّمَقْمَقِيَّة مشيرًا إلى هذه القصة: [الرجز]

وَقَـالَ لِابْـنِ أَهْتَـمٍ فِـي مَدْحِـهِ ... وَذَمِّـــهِ لِلزِّبْرِقَـــانِ الأَسْمَـــقِ
مَقَالَـــةً خَتَمَهَـــا بِقَوْلِـــهِ ... إِنَّ مِـنَ الشِّعْـرِ لَحِكْمَـةً تَقِـي

- ومن شواهد هذا: خبر خالدٍ القَسْرِي مع الحجاج، فإنه صَعِد المنبر مرة يوم الجمعة -وهو أمير مكة آنذاك- فذكر الحجاجَ وحَمِد طاعتَه وأثنى عليه خيرًا، فلما كان في الجمعة الثانية، ورد عليه كتاب سليمان بن عبدالملك، يأمره فيه بشَتْم الحجاج، ونشر عيوبه، وإظهار البراءة منه. فكيف تخلص؟

صَعِد المنبر في الجمعة الثانية، فحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن إبليسَ كان مَلَكًا من الملائكة، وكان يُظهِر من طاعة الله -تعالى- ما كانت الملائكة ترى له به فضلًا، وكان الله عَلِم من خُبْثِه وغِشِّه ما كان خفي عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحته أمره بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم فلَعَنُوه، وإن الحجاجَ كان يُظهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلًا، وكان الله قد أَطْلَع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي عنا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين. وما نزل خالد القسري حتى ذمَّ الحجاجَ وأظهر البراءة منه.

- ومن عجيب الأخبار في هذا: خبر غَيْلَانَ بن خَرَشَة الضَّبِّيِّ مع عبد الله بن عامر، وكان مَرَّ معه على نهر أم عبد الله الذي كان يشق البصرة، فقال عبد الله بن عامر: ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير، يتعلم فيه العَوْمَ صبيانُهم، ويكون لسُقْيَاهم ومَسِيل مِيَاهِهم، ويأتيهم بمِيرَتِهم. ثم لما تَغَلَّب زياد بن أبيه -وكان عدوًّا لعبد الله بن عامر- مَرَّ غَيلَان بن خَرَشَة مع زياد بن أبيه على هذا النهر، فقال زياد: ما أضرَّ هذا النهر لأهل هذا المِصْر! فقال غَيْلَان: أجل والله، تَنْدَى منه دُورُهم، ويَغْرَق فيه صبيانُهم، ويَكْثُر بسببه ذبابُهم.

- ومن شواهده: أن عبدالملك بن مروان بنى بابًا من أبواب المسجد الأقصى، وبنى الحجاج بابًا إلى جانبه، فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبدالملك، فعَظُمَ ذلك على عبدالملك وشَقَّ عليه فكتب إليه الحجاج: إلى عبدالملك بن مروان أميرِ المؤمنين، إنما مَثَلي ومَثَلك كمَثَل ابني آدم إذ قرَّبا قربانًا فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر -لأنه كانت علامة قبول القُرْبان: أن تنزل صاعقة من السماء على القربان المُتَقَبَّل- فَسُرِّي عن عبدالملك.

- ومن شواهده: أن الحارث بن هشام فَرَّ يوم بدر وترك أخاه أبا جهل -عمرَو بنَ هشام- فعَيَّره حسان بذلك، وقال في قصيدة له: [الكامل]

إن كُنتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي ... فَنَجَوتِ مَنْجَى الحَارِثِ بنِ هِشَامِ
تَـرَكَ الأَحِبَّـةَ أَن يُّقَاتِـلَ دُونَهُـمْ ... وَنَجَـا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَّلِجَـامِ

فاعتذر الحارث بن هشام عن فراره وقال: [الكامل]

اللهُ يَعْلَـمُ مَـا تَرَكْـتُ قِتَالَهُـمْ ... حَتَّى عَلَـوا فَرَسِـي بِأَشْقَـرَ مُزْبِـدِ
وَعَلِمْـتُ أَنِّـي إِنْ أُقَاتِـلْ وَاحِـدًا ... أُقْتَلْ وَلَا يَضْرُرْ عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَـدَدْتُ عَـنهُمْ وَالأَحِبَّـةُ فِـيهِمُ ... طَمَعًـا لَهُـمْ بِعِقَـابِ يَـومٍ مُفْسِـدِ

انظر كيف حسّن ما يتفق الناس على قبحه!

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ما اعتذر أحد من الفرار بأحسن من هذا الاعتذار!

حتى إن هذا الاعتذار تُرْجِم لبعض ملوك الأعاجم فقال: يا معشر العرب، حسَّنتم كل شيء حتى الفرار! يعني: بلغتم بلطافة ألسنتكم وحسن احتجاجكم مبلغًا لم يبلغه أحد.

وقد أسلم الحارث بن هشام رضي الله عنه عام الفتح وحَسُن إسلامه.

- ومن ذلك: قول لسان الدين ابن الخطيب: [الطويل]

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيبِ خَيْرَ مَا ... جَـزَى زَاجِـرًا فَاضَـتْ يَـدَاهُ بِخَيْـرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيرِهِ

انظر كيف حسّن الشيب!

- وأعظم من هذا تحسين الموت! قال الشاعر: [الطويل]

جَـزَى اللهُ عَنَّـا الـمَوتَ خَيـرًا فَإِنَّـهُ ... أَبَـرُّ بِنَـا مِـن كُـلِّ بَـرٍّ وَّأَرْأَفُ
يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الأَذَى ... وَيُدْنِي مِنَ الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

- ومن جميل هذا الباب قولُ ابنِ دَقِيقِ العِيد: [الطويل]

تَـمَنَّيْـتُ أَنَّ الشَّيْـبَ عَاجَـلَ لِمَّتِـي ... وَقَـرَّبَ مِنِّـي فِـي صِبَـايَ مَـزَارَهُ
لِآخُـذَ مِـنْ عَصْـرِ الشَّبَابِ نَشَـاطَهُ ... وَآخُـذَ مِـنْ عَصْـرِ المَشِيـبِ وَقَـارَهُ

– ومنه ما يسمى بحُسْنِ التعليل وهو: أن تُدَّعى لِوَصْفٍ عِلةٌ مناسبةٌ له باعتبارٍ لطيفٍ غير حقيقي، وهو من المحسنات المعنوية عند البلاغين، ومن أمثلته قول المتنبي: [الكامل]

لَمْ يَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا   حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ

أنكر أن يكون السحاب الممطر قد أشبه الممدوح في كرمه و عطائه، وأتى بعِلة في غاية الطرافة وهي: أن السحاب أخذته الرحضاء –وهي الحمى– من شدة الغيرة من الممدوح فتصبب منه الماء من شدة حرارة الحمى.

ومنه قول المتنبي أيضاً: [الرمل]

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ   يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ

عِلَّةُ قَتْلِ الأعداء عادة دَفْعُ مضرتهم، إلا أنه علَّلَ بكرم الممدوح مما جعله يخشى تخييب رجاء الذئاب في لحوم من سيقتله من الأعداء.

– والمَازَرِي كان جالسًا –وهذا مثال جميل لحسن التعليل ويصلح أن يذكر فيما سيأتي إن شاء الله من سرعة البديهة– فدخل شُعَاعُ شمس من كُوَّة الحائط على رجله، فقال:

هَذَا شِعَاعٌ مُنْعَكِسْ

وقوله هذا: شَطْرُ بيتٍ من مَجْزُوءِ الرَّجَزْ، وكان عنده طالب من طلبته سريع البديهة، فأحسن في التعليل قال: [الرَّجَز]

هَذَا شُعَاعٌ مُنْعَكِسْ   لِعِلَّةٍ لَّا تَلْتَبِسْ
لَمَّا رَآكَ عُنصُرًا   مِن كُلِّ عِلْمٍ يَّنْبَجِسْ
أَتَى يَمُدُّ سَاعِدًا   مِن نُّورِ عِلْمٍ يَّقْتَبِسْ

ومن لطيف ذلك ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء عن ابن عُنَين الشاعر أنه حضر مرة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس، فجاءت حمامة خلفها جارح يطاردها، فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمستجيرة به فرجع عنها الجارح، فأنشأ ابن عنين على البديهة: [الكامل]

جَـــاءَتْ سُـــلَيْمَانَ الزَّمَـــانِ حَمَامَـــةٌ وَالْمَـوْتُ يَلْمَـعُ مِـنْ جَنَـاحَيْ خَـاطِفِ
مَـــــنْ نَبَّــــأَ الْوَرْقَـــــاءَ أَنَّ مَحَلَّكُـــــمْ حَـــــرَمٌ وَأَنَّـــــكَ مَلْجَـــــأٌ لِلْخَـــــائِفِ

فطرب لها الرازي، واستدناه، وأجلسه قريبًا منه، وبعث إليه بعد ما قام من مجلسه خِلعة كاملة ودنانير كثيرة، وبقي دائمًا محسنًا إليه، ثم زاد بعد ذلك ابن عنين فيها أبياتًا أُخَر.

- ورحم الله ابن الرومي إذ يقول: [البسيط]

فِـي زُخْرُفِ القَـوْلِ تَزْيِيـنٌ لِّبَـاطِلِهِ وَالحَـقُّ قَـدْ يَعْتَرِيـهِ سُـوءُ تَعْبِيـرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِن ذَمَمْـتَ تَقُـلْ قَـيْءُ الزَّنَابِيـرِ
مَدحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا حُسْنُ البَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

ومن دواعي العناية بعلم الأدب عظيمُ أثره وسلطانه على النفوس ومن ذلك:

٦- أنه يرفع الوضيع

ومن شواهده: خبر بني أنف الناقة وهم بنو جعفرِ بن قُرَيع، وسبب جريان هذا اللقب على جعفر: أن أباه قُرَيعًا نحر ناقة فقسمها بين نسائه، فبعثَت جعفرًا أمُّه؛ تسأل زوجَها حظَّها من اللحم، فلم يجد غير رأس الناقة وعُنُقِها، فقال لجعفر: شأنك بهذا. فأدخل جعفر يده في أنف الناقة وجعل يجره إلى أمه والناس يضحكون منه، فلُقِّب بأنف الناقة، فكان جعفر يُسَبُّ بهذا، وبقي هذا اللقب سُبَّة في عَقِبِه، فكان الواحد منهم إذا سئل عن نسبه ينتسب إلى جده يقول: من بني قُرَيع ويتجاوز النسبة إلى جعفر فرارًا من اللقب، وبقُوا على ذلك حتى جاء الحطيئة فمدحهم بقصيدته التي يقول فيها: [البسيط]

قَالَتْ أُمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ العَـزَاءَ وَإِنَّ الصَّـبْرَ قَـد غُلِبَـا
سِيرِي أُمَامُ فَإِنَّ الأَكْثَرِينَ حَصًى وَالأَكْـرَمِينَ إِذَا مَـا يُنسَـبُونَ أَبَـا
قَومٌ هُـمُ الأَنفُ وَالأَذْنَابُ غَيرُهُمْ وَمَـن يُّسَـوِّي بِـأَنفِ النَّاقَـةِ الـذَّنَبَا

فرفعهم وصار هذا اللقب مدحًا لهم وفخرًا بعد أن كان ضَعَة وذمًّا، وصار الواحد منهم إذا سُئِل مِمَّن أنت؟ يقول: من بني أنف الناقة كما ترى!

قال في الشَّمَقْمَقِيَّة: [الرَّجَز]

كَمْ خَامِلٍ سَمَا بِهِ إِلَى العُلَى بَيْتُ مَدِيحٍ مِّن بَلِيغٍ ذَلِقِ
مِثْلِ بَنِي الأَنْفِ وَمِثْلِ هَرِمٍ وَكَالَّذِي يُعْرَفُ بِالمُحَلَّقِ

هذه ثلاثة أخبار، إلا أنَّ هَرِمَ بنَ سِنان لم يكن خاملًا بل كان من سادات قومه ولكنَّ أخاه خارجة بن سنان كان أشهرَ منه وأَذْكَرَ في الناس فلما وقع لزهير بن أبي سُلمى في هرم ما وقع من المدح ازداد شرفًا على شرفه حتى فاق أخاه في ذلك بل لا يكاد اليوم أخوه يذكر، وقد أفنى زُهَير في هرمٍ مَدِيحَه، ومن ذلك قوله: [البسيط]

قَد جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخَيرَ فِي هَرِمٍ وَّالسَّائِلُونَ عَلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا
إِن تَلْقَ يَومًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا تَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنزِلَةٍ أُفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الأُفُقَا

وقوله: [البسيط]

إِنَّ البَخِيلَ مَلُومٌ حَيثُ كَانَ وَلَـ كِنَّ الجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ
هُوَ الجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ
وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَّوْمَ مَسْأَلَةٍ يَّقُولُ لَا غَائِبٌ مَّالِي وَلَا حَرِمُ

وقوله في معلقته يمدحه ويمدح ابن عمه الحارثَ بن عوف لمّا تحملا الحمالات في حرب داحس والغبراء وأصلحا بين عَبْس وذُبْيَان: [الطويل]

فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنَوْهُ مِن قُرَيْشٍ وَّجُرْهُمِ
يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدتُّمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِّن سَحِيلٍ وَّمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوا وَدَقُّوا بَينَهُمْ عِطْرَ مَنشِمِ
وَقَد قُلْتُمَا إِن نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَّمَعْرُوفٍ مِّنَ القَولِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُمَا مِنهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيـدَيْنِ فِيهَا مِـنْ عُقُـوقٍ وَّمَـأْثَمِ
عَظِيمَيْـنِ فِـي عُلْيَـا مَعَـدٍّ هُدِيتُـمَا وَمَن يَّسْتَبِـحْ كَـنْزًا مِنَ الـمَجْـدِ يَعْظُـمِ
فَأَصْبَحَ يَجْـرِي فِـيهِمُ مِـن تِلَادِكُـمْ مَّغَانِـمُ شَتَّـى مِـنْ إِفَـالِ المُزَنَّـمِ
تُعَـفَّى الكُلُـومُ بِالمِئِيـنَ فَأَصْبَحَتْ يُنَجِّمُهَـا مَـن لَّـيسَ فِيهَـا بِمُجْـرِمِ
يُنَجِّمُهَـا قَـومٌ لِّقَـوْمٍ غَرَامَـةً وَّلَـمْ يُهَرِيقُـوا بَينَهُـمْ مِـلْءَ مِـحْجَمِ

يروى أن عمر ﷺ استنشدها كعبَ بن زُهَير -صاحب بانت سعاد- فاستحسنها وقال: بماذا أجازكم؟ قال كعب: بمئة ناقة وجُبَّة بيعت بمئة ناقة، وأقسم أن لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه مئة ناقة.

فصار زهير لذلك إذا قَدِم مجلسًا هو فيه يقول -خوفًا من أن يحرجه-: عِمُوا صباحًا غير هَرِمٍ، وخيرَكم استَثْنَيتُ.

قال عمر: ذهب الذي أعطاكم وبقي الذي أعطيتموه.

ويروى هذا الخبر على وجه آخر وهو أنَّ عمر -رضي الله عنه- لقي بعض ولد هرم بن سنان فقال: أنشِدني بعض ما قال فيكم زهير فأنشَده فقال عمر: أما إنه كان يقول فيكم فيحسن فقال: وكذلك كنا نعطيه فنجزل فقال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

- وممن رفعه الشعر عبدالعُزّى بن حَنْتَم الكِلَابي الملقب بالمُحَلَّق لأن حصانًا عضَّه في وجنته فكانت العضة كالحلْقة وكان رجلًا مُقِلًّا ليس له كبير شيء من مال ولا جاه ولا حسب، وكانت له عشر بنات لم تتزوج أي واحدة منهن، فمَرَّ الأعشى أبو بصير مَرَّة بقريته، فقالت له أُمُّه -وقيل: زوجُه-: إن أبا بصير رجل مَجْدُودٌ في شعره -أي محظوظ- وأنت رجلٌ خامل مُقِلٌّ ولك بنات، فلو سبقت إليه وأكرمته رجونا أن يكون لك منه خير. فبادر المحلق إليه وأنزله ونحر له وسقاه الخمر فلمَّا اختلط كَبِد الناقة بالخمر في بطنه ولبس الجُبَّة التي أعطاه إياها المُحَلَّق واختال فيها، استيقظت شياطين شعره، فقال قصيدته التي مطلعها: [الطويل]

أَرِقْتُ وَمَا هَـذَا السُّهَـادُ المُـؤَرِّقُ   وَمَا بِيَ مِن سُقْـمٍ وَّمَا بِي تَعَشُّقُ

وعلى ذكر هذا البيت، ذكروا أن كسرى سمع الأعشى يومًا ينشده –وكان الأعشى يفد على ملوك فارس– فقال: فسّروا لي ما قال، فقالوا: ذكر أنه سهِر من غير سقم ولا عشق، فقال كسرى: إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص.

يقول الأعشى في قصيدته:

لَعَمْـرِي لَقَـدْ لَاحَـتْ عُيُـونٌ كَثِـيرَةٌ   إِلَـى ضَـوْءِ نَـارٍ فِـي يَفَـاعٍ تَـحَرَّقُ

تُشَـبُّ لِمَقْرُورَيْـنِ يَصْطَلِيَانِـهَا   وَبَـاتَ عَلَى النَّـارِ النَّدَى وَالمُحَلَّـقُ

بات يستدفئ بالنار الكرم وهذا الرجل –المحلق–

رَضِيعَـيْ لِبَـانٍ ثَـدْيِ أُمٍّ تَحَالَفَـا   بِأَسْـحَمَ دَاجٍ عَـوْضُ لَا نَتَفَـرَّقُ

تَرى الجُودَ يَسْرِي سَائِلًا فَوقَ وَجْهِهِ   كَمَـا زَانَ مَتْـنَ الهُنْدُوَانِـيِّ رَوْنَـقُ

فلم يفرغ من إنشادها حتى تسارع الأشراف يخطُبون بناتِه، وما باتت واحدة منهن إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها مئة مرة، وفي قصته روايات كثيرة.

– ومما يتصل برفعة الوضيع، خبر أبي عثمان المازِني –وإن كان ليس من هذا الباب إلا أنه قريب منه– روى المبرد أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازني ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مئة دينار في تدريسه إياه، فامتنع أبو عثمان من ذلك، قال: فقلت له: جُعلت فداك، أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على كذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل، ولست أرى أن أمكِّن منها ذمِّيًّا غيرة على كتاب الله وحميَّة له.

قال: فاتفق أن غنَّت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي: [الكامل]

أَظَلُـومُ إِنَّ مُصَـابَكُمْ رَجُـلًا   أَهْـدَى السَّـلَامَ تَحِيَّـةً ظُلْـمُ

فاختلف من كان بالحضرة في إعراب رجلًا، فمنهم من نصبه وجعله اسم إنّ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإشخاصه.

قال أبو عثمان: فلما مثَلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: أي الموازن أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلَّمَني بكلام قومي، وقال: با اسمك لأنهم يقلبون الميم باءً والباء ميمًا، قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومي كيلا أواجهه بالمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته، وأعجب به، ثم قال: ما تقول في البيت أترفع رجلًا أم تنصبه؟ فقلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين، فقال: ولم ذلك؟ فقلت: إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم، فأخذ اليزيدي في معارضتي، فقلت: هو بمنزلة قولك إن ضربك زيدًا ظلم فالرجل مفعول مصابكم وهو منصوب به والدليل عليه أن الكلام معلّق إلى أن تقول ظلم فيتم، فاستحسنه الواثق وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم بُنَيَّة يا أمير المؤمنين، قال: ما قالت لك عند مسيرك؟ فقلت: طافت حولي وأنشدت وهي تبكي قول الأعشى: [المتقارب]

أَيَـــا أَبَتَـــا لَا تَـــرِمْ عِنـــدَنَا ... فَإِنَّـــا بِخَيْـــرٍ إِذَا لَـــمْ تَـــرِمْ
أَرَانَـــا إِذَا أَضْـــمَرَتْكَ الـــبِلَا ... دُ نُجْفَـــى وَتُقْطَـــعُ مِنَّـــا الـــرَّحِمْ

قال: فما قلتَ لها؟ قال: قلتُ لها ما قال جرير لابنته: [الوافر]

ثِقِـــي بِـــاللهِ لَـــيْسَ لَـــهُ شَـــرِيكٌ ... وَمِـــنْ عِنـــدِ الخَلِيفَـــةِ بِالنَّجَـــاحِ

قال: عليَّ النجاح إن شاء الله -تعالى-، ثم أمر لي بألف دينار، وردّني مكرمًا.

قال المبرد: فلما عاد إلى البصرة قال لي: كيف رأيت يا أبا العباس رددنا لله مئةً فعوّضنا ألفًا.

هذا آخره والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

المجلس الثالث

في هذا المجلس:

سابعًا: الأدبُ يضعُ الرفيع:

- خبرُ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ مع لَبيدِ بنِ رَبيعة.
- خبرُ بني العَجْلَانِ معَ النَّجَاشيِّ الشاعر.
- خبرُ بني نُمَيرٍ معَ جَرِير.

ثامنًا: الأدبُ يَنزِعُ الغضب:

- خبرُ تَمِيمِ بنِ جَميلٍ معَ المُعْتَصِم.
- خبرُ الأسيرِ مِن أصحابِ المُختارِ معَ مصعبِ بنِ الزُّبَير.
- خبرُ الأسيرِ من أصحابِ ابنِ الأَشْعَثِ معَ الحَجاج.
  - فتنةُ ابنِ الأَشْعَثِ: كيف بدأَت؟ وإلامَ انتهت؟
- خبرُ عِمْرَانَ بنِ حِطَّانَ معَ الحَجاج.
- خبرُ الشَّعْبيِّ معَ الحجاج.
- أبياتُ قُتَيلَةَ في النَّضْرِ بنِ الحارث، التي يُرْوَى أنَّها أبكَتِ النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أَخْضَلَتِ الدموعُ لِحيَتَه.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فكما أن الأدبَ يرفع الوضيعَ -وقد سبق ذكر شيءٍ من شواهده- فهو كذلك

٧- يضع الرفيعَ

ومن شواهد ذلك:

- خبر الرّبيعِ بنِ زياد، فإنه كان مُلَازمًا للنُّعْمَان بن المُنذِر، وكان سَبَبُ انحطاطه: أنه وَفَدَ عامرُ بنُ مالك مُلَاعِبُ الأَسِنَّة وإخوتُه ومعهم لَبِيدُ وهو ابن أخيهم وكان يومئذ غلامًا صغيرًا ابنَ تسعِ سنين، وكان يجلس في رَحْلِهم ويَرْعَى لهم إبلَهم وفدوا على النعمان فوجدوا عنده الربيع بن زياد وكان عدوًّا لهم فجعل يَحُطُّ من قَدْرِهم عند النُّعْمان. فسمعهم لَبِيد مرةً يتكلمون في أمر الربيع، ويقولون: ارجعوا بنا إلى أَهْلِينا لا يَضْحَك منَّا الربيعُ بنُ زياد. فسألهم لَبِيد فكَتَمُوه، فقال: والله لا رَعَيْتُ لكم ولا حَفِظْتُ لكم رِحالَكم حتى تخبروني، فأخبروه أنه غَلَبَهُم وصَدَّ وجهَ الملك عنهم، فقال: هل تقدرون على أن تجمعوا بيني وبينه فأَزْجُره عنكم بقَوْلٍ مُمِضٍّ فلا يلتفت النعمان إليه أبدًا؟ قالوا له: وهل عندك ذلك؟ قال: نعم، قالوا: فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة وكانت أمامهم بقلة فأخذها بيده وذمها، فوجدوه أهلًا لذلك وقالوا: أنت والله صاحبُه، فلما أصبحوا حلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين، وألبسوه حلة، وغدوا به معهم حتى انتهوا به إلى النعمان وهو في قُبَّةٍ وحوله الناس، ومعه الربيع بن زياد يؤاكله، فناداه لَبِيد من وراء القبة قائلًا: [مشطور الرجز]

أَنَــامَ أَمْ يَسْــمَعُ رَبُّ القُبَّــهْ

يَــا أَوْهَــبَ النَّــاسِ لِعَـنسٍ صُلْبَـهْ

فأدخلهم النُّعْمَان، فقال لَبِيد: [مشطور الرجز]

أَكُــلَّ يَــومٍ هَامَتِــي مُقَزَّعَــهْ؟

يَـا رُبَّ هَيْجَـا هِـيَ خَيْـرٌ مِّـن دَعَـهْ

يَـا وَاهِـبَ الخَيْـرِ الكَثِيرِ مِـن سَعَهْ

نَحْـــنُ بَنِـــي أُمِّ البَنِـــينَ الأَرْبَعَــهْ
المُطْعِمُــونَ الجَفْنَـةَ المُدَعْدَعَـهْ
وَالضَّارِبُونَ الهَـامَ تَـحْتَ الخَيْضَعَهْ
مَهْـلًا أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ لَا تَأْكُـلْ مَعَـهْ

ثم ذكر أبياتًا يسُبّ فيها الربيع أقذع فيها.

فقال النُّعْمانُ للربيع: [البسيط]

شَرِّدْ بِرَحْلِكَ عَنِّي حَيثُ شِئتَ وَلَا تُكْثِــرْ عَلَــيَّ وَدَعْ عَنــكَ الأَقَــاوِيلَا
وَارْحَلْ بِحَيثُ أَرَدْتَ؛ الأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَانشُرْ بِهَا الطَّرْفَ إِنْ عَرْضًا وَّإِن طُولَا
قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِن صِدْقًا وَّإِن كَذِبًا فَمَــا اعْتِــذَارُكَ مِــن قَــوْلٍ إِذَا قِــيلَا

ولم يُرَ الربيعُ بِحَضْرَة النُّعْمَان بعدها.

- ومن شواهد وضع الأدب للرفيع: خبرُ بني العجلان، وقد كانوا لُقِّبُوا بهذا لتَعْجِيلِهِمُ القِرَى للضيوف، فكانوا يفتخرون بهذه النِّسْبَة، حتى هَجَاهُمُ النَّجَاشِيُّ الشاعر -واسمه قَيْسُ ابنُ عَمْرٍو الحارثي- فقال فيهم: [الطويل]

إِذَا اللهُ عَــادَى أَهْــلَ لُــؤْمٍ وَّدِقَّــةٍ فَعَـادَى بَنِـي العَجْـلَانِ رَهْـطَ ابْـنِ مُقْبِـلِ
قُبَيِّلَــــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّــــةٍ وَّلَا يَظْلِمُــــونَ النَّـــاسَ حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ
وَلَا يَـــرِدُونَ الـــمَاءَ إِلَّا عَشِـــيَّةً إِذَا صَـــدَرَ الـــوُرَّادُ عَـــن كُـــلِّ مَنْهَـــلِ
تَعَافُ الكِلَابُ الضَّارِيَاتُ لُحُومَهُمْ وَتَأْكُـلُ مِـن كَعْـبِ بْـنِ عَـوْفٍ وَّنَـهْشَلِ
وَمَــا سُمِّــيَ العَجْـلَانَ إِلَّا لِقَوْلِـهِمْ خُذِ القَعْبَ وَاحْلُبْ أَيُّهَا العَبْدُ وَاعْجَلِ

ذَكَرَ الرُّواةُ أنهم اتَّضَعُوا بهذا الشعر بعد رفعتهم، وذلُّوا بعد عزِّهم، حتى صاروا يفرّون من الانتساب إلى العجلان، وجعل الواحد منهم إذا سئل عن نسبه يقول: كعبيّ؛ مخافة أن يسخر منه.

وقد اشتكوا إلى عمرَ بنِ الخطاب -رضي الله عنه- وقالوا: إن النَجاشِيَّ هجانا. فقال: ماذا قال لكم؟ فَأَنشَدُوا البيتَ الأول:

إِذَا اللهُ عَــادَى أَهْــلَ لُــؤْمٍ وَّدِقَّــةٍ فَعَادَى بَنِي العَجْلَانِ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلِ

قال: هذا رجل دعا فإن كان مظلومًا استجيب له، وإن لم يكن مظلومًا لم يستجب له.

فقالوا: إنه قال:

قُبَيِّلَــــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّــــةٍ وَّلَا يَظْلِمُــونَ النَّــاسَ حَبَّــةَ خَــرْدَلِ

فقال: ليت آلَ الخطاب كانوا كذلك -يَحْمِلُها على المَحْمَل الحسن-.

قالوا: إنه قال:

وَلَا يَــرِدُونَ الـــمَاءَ إِلَّا عَشِــيَّةً إِذَا صَــدَرَ الــوُرَّادُ عَــن كُــلِّ مَنْهَــلِ

فقال: ذلك أَصْفَى للماء وأَقَلُّ لِلْكَدَر.

قالوا: إنه قال:

تَعَافُ الكِلَابُ الضَّارِيَاتُ لُحُومَهُمْ وَتَأْكُلُ مِن كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ وَّنَهْشَلِ

فقال: كَفَى ضياعًا بمَن تأكل الكلابُ لَحْمَه -يعني أنتم تزعمون أنه فَضَّل أولئك عليكم لأن الكلاب لا تأكل من لحومهم؟! وأيُّ خير في أكل الكلاب!-

قالوا: إنه قال:

وَمَا سُمِّيَ العَجْلَانَ إِلَّا لِقَوْلِهِمْ خُذِ القَعْبَ وَاحْلُبْ أَيُّهَا العَبْدُ وَاعْجَلِ

فقال: سيد القوم خادمهم وكلنا عبيدٌ لله فما أرى بهذا بأسًا.

قالوا: سَلْ حَسَّانَ بنَ ثابت. فسأله فقال: ما هَجَاهُم ولكن سَلَحَ عليهم. فَسَجَنَه عمرُ. وقيل: بل جَلَده.

- ومن أولئك بنو نُمَير: وقد كانوا إذا سُئِل الرجلُ منهم عن نَسَبِه قال: مِن بني نُمَير - يُفَخِّم الميم وهي لا تُفَخَّم في لسان العرب- حتى هجاهم جَرِير، وكان سبب ذلك: أنَّ الرَّاعِيَ النُّمَيرِيَّ فَضَّل الفَرَزْدَقَ على جَرِير، فقال: [الكامل]

يَـا صَاحِبَـيَّ دَنَـا الـرَّوَاحُ فَسِيـرَا غَلَبَ الفَـرَزْدَقُ فِـي الهِجَـاءِ جَرِيرَا

فذهب إليه جريرٌ وكَلَّمَه في ذلك، وقال: يا أبا جَنْدَل إن قولك ليستمع، وإنك تفضل الفرزدق عليَّ تفضيلًا قبيحًا، وأنا أَمْدَحُ قَومَك والفَرَزْدَقُ يهجوهم، وهو ابن عمّي دونك، يكفيك من ذلك إذا ذُكِرْنَا أن تقول: كِلَاهُما شاعرٌ كريم، ولا تتحمّل منّي ولا منه لائمة. فبينا جَرِيرٌ والرَّاعِي كذلك إذ أقبل جَنْدَل -ولد الرَّاعِي- وضَرَب بالسَّوْطِ بَغْلَةَ والدِه وقال: لا أراك واقفًا على هذا، كأنّك تخشى منه شرًّا، أو ترجو منه خيرًا فَزَحَمَتِ البَغْلَةُ جَريرًا حتى سَقطَتْ قَلَنسُوَتُه.

قال جَرِير: والله لو عَرَّجَ عَلَيَّ الرَّاعِي لَقُلْتُ إنها هَفْوَةٌ من سَفِيه -يعني جندلًا- ولكن الراعي لم يُعَرِّج عليه، فأخذ جرير قَلَنسُوَتَه فمسحها، وَرَدَّها إلى محلِّها، وانصرف مغضبًا إلى منزله، وقال فيهم أبياته التي منها قوله: [الوافر]

فَغُضَّ الطَرْفَ إِنَّكَ مِن نُّمَيرٍ فَـلَا كَعْبًـا بَلَغْـتَ وَلَا كِلَابَـا

وَلَوْ وُضِعَتْ حُلُومُ بَنِي نُمَيرٍ عَلَى المِيزَانِ مَا عَدَلَتْ ذُبَابَا

فلم يرفعوا بعدها رأسًا، ولم تلق قبيلة من العرب بهجوٍ ما لقِيَت نمير من هجو جرير، حتى صاروا يفرون من الانتساب إلى نمير، وينتسبون إلى عامرٍ الجدِّ الأعلى.

وكان جرير يُسَمِّي قصيدتَه هذه الدَّمَّاغة، ومطلعها:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابَا وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

ومن لطيف الأخبار: ما يُحْكَى أنَّ مَولًى لِبَاهِلَةَ كان يَرِدُ السُّوقَ فَيَسْخَرُ منه قوم من بني نُمَير، فقال له أسياده: إن نَبَزَكَ أحدهم فقل له:

فَغُضَّ الطَرْفَ إِنَّكَ مِن نُّمَيرٍ

فلمَّا عاد إلى السوق ولَقِيَهم سَخِرُوا منه ونَبَزُوه، فأراد أن يقول البيت فَنَسِيَه فقال: غَمِّضْ وإلَّا جاءك ما تكره.

فَكَفُّوا عنه وعَلِمُوا أنه قد عَرَف قول جَرِير فيهم.

ويُحْكَى أن امرأة مرَّت بقوم من بني نُمَير فأخذوا ينظرون إليها نَظَر رِيبَة، فقالت: والله لا

قولَ الله امْتَثَلْتُم {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ} ولا قول جرير:

فَغُضَّ الطَرْفَ إِنَّكَ مِن نُّمَيرٍ

ويحكى أن الحجاج حَبَسَ رجلًا مرة فسمعه يُنشِد: [الطويل]

أَلَا يَا سَنَا بَرْقٍ عَلَى قُلَلِ الحِمَى لَهِنَّـكَ مِـن بَـرْقٍ عَلَـيَّ كَرِيـمُ

فَهَلْ مِن مُّعِيرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ؟ فَإِنسَـانُ عَيْـنِ العَامِـرِيِّ كَلِيـمُ

وانتسب إلى عامرٍ والدِ نُمَير؛ لأنه نُمَيرُ بنُ عَامِرِ بنِ صَعْصَعَة، قال البَدَوي في عَمُود النَّسَب: [الرجز]

نُمَيرٌ الَّذِي الـهِجَاءُ وَضَعَهْ نُمَيـرٌ بـنُ عَـامِرِ بـنِ صَعْصَعَهْ

فَرَقَّ له وأطلق سراحه.

ومن جميل الشعر قول الشيخ المختَار بن حَامْدُن رحمه الله في أبيات ضَمَّن فيها قول جرير: (فغض الطرف...): [الوافر]

كَبِـرْتَ فَعَـدِّ عَـنْ أُمِّ الحُوَيْـرِ وَعَـنْ أُمِّ الرَّبَـابِ تَبِـتْ بِخَيـرِ

وَقُـلْ لَا لِلَّـذِي يَدْعُـو لِغَـيٍّ وَّلِلنَّـاهِي نَعَـمْ وَأَجَـلْ وَجَيْـرِ

فَإِنَّـكَ إِذْ تَـرُومُ وَأَنـتَ شَيْـخٌ بَنَـاتِ الغَيـرِ رُمْـتَ بَنَـاتِ غَيـرِ

وَإِن تُبْـدِ الكَوَاعِـبُ مِنـكَ طَرْفًـا فَغُضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـن نُّمَيـرِ

وقوله: رمت بنات غير معناه رمت الكذب، يقال: جاء ببنات غير أي بأكاذيب.

قال الشاعر: [الوافر]

إِذا مَا جِئْتَ جاءَ بَنَاتُ غَيْرٍ وإِنْ وَلَّيْتَ أَسْرَعْنَ الذَّهَابَا

وقد وَضَعَهُم جرير حتى صاروا مَضْرِب مثل، قال الشاعر: [الوافر]

وَسَوْفَ يَزِيدُكُمْ ضَعَةً هِجَائِي كَمَـا وَضَـعَ الـهِجَـاءُ بَنِـي نُمَيـرِ

وقد قال الجاحظ في البيان والتبيُّن: وهل فَضَحَ الحَبَطات –بفتح الباء وبكسرها– مع شرف حَسَكَةَ بنِ عَتَّابٍ وعَبَّادِ بنِ الحُصَينِ وولدِه –وهم من أشراف بني تميم– إلا قول

الشاعر: [الوافر]

رَأَيْــتُ الحُمْــرَ مِــنْ شَــرِّ المَــطَايَا   كمــا الحَبِطــاتُ شَــرُّ بَــني تَمِــيمِ

قال في الشمقمقية: [الرجز]

وَكَــمْ وَكَــمْ حَــطَّ الهِجَــا مِــن مَّاجِــدٍ   ذِي رُتْبَـــةٍ قَعْسَـــا وَقَـــدْرٍ سَمِـــقِ

مِثْـــلِ الرَّبِيـــعِ وَبَـــنِي العَجْـــلَانِ مَـــعْ   بَـــــنِي نُمَـــــيْرٍ جَمَـــــرَاتِ الحَـــــرَقِ

ومن خصائص الأدب ودَوَاعي طَلَبِه والْتِمَاس معرفتِه:

٨- أنه يَنزِعُ الغضب.

والأخبار في هذا كثيرة، من ذلك:

- خبر تَمِيمِ بنِ جَمِيل، وذلك أنه كان قد خرج على المُعْتَصِم واجتمع عليه كثير من الأعراب فعظُمَ أمرُه وشاع ذِكره، ويُقال: إنَّ المُعْتَصِم حَلَف أنه إنْ ظَفِر به لَيَقْتُلَنَّه بيده، لا يَكِلُ ذلك إلى سَيَّافٍ ولا إلى غيره، ثم إنَّه قُمِع بعد ذلك وجِيْءَ به أسيرًا بين يدي المُعْتَصِم، ودَخَل حين دَخَل على المُعْتَصِم ثابتَ الجَنَان كأنه مَدْعُوٌّ إلى وليمة، فلمَّا مَثَلَ بين يديه دعا المُعْتَصِمُ بالنِّطْعِ والسَّيف[1].

ورأى المُعْتَصِمُ أن يَسْتَنطِقَه؛ لِينظُر أين جَنَانُه وَلِسَانُه من هذا الثبات الذي رآه منه، فقال: يا تميم، إن كان لك عُذْرٌ فَائْتِ به، أو حُجَّةٌ فَأَدْلِ بها. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذُّنوب تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة، وتَصْدَع القلوب الصحيحة، ولقد عَظُمَتِ الجَرِيرةُ، وكَبُر الذنب، وساء الظن، ولم يَبْقَ إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك وأسرعُهما إليك أَوْلَاهُما بِامْتِنَانِك وأَشْبَهُهُمَا بِخَلَائِقِك، ثم أنشأ يقول: [الطويل]

(١) والنطع بساط من الأديم وفيه أربع لغات فتح النون وكسرها ومع كل واحد فتح الطاء وسكونها، قال ابن المُرَحَّل في مُوطَّأة الفصيح-:

وَالنِّطَـــــعُ الَّـــــذِي يَكُـــــونُ مِـــــنْ أَدَمْ   يُلْقَـــى عَلَـــى الرَّحْـــلِ وَعِنـــدَ سَـــفْكِ دَمْ

أَرَى المَوْتَ بَينَ السَّيْفِ وَالنِّطْعِ كَامِنًا يُلَاحِظُنِـي مِـنْ حَيـثُ مَـا أَتَلَفَّـتُ
وَأَكْبَـرُ ظَنِّـي أَنَّـكَ اليَـومَ قَاتِلِـي وَأَيُّ امْـرِئٍ مِـمَّا قَضَـى اللهُ يُفْلِـتُ
وَأَيُّ امْـرِئٍ يَأْتِـي بِعُـذْرٍ وَحُجَّـةٍ وَسَيـفُ المَنَايَـا بَيـنَ عَيْنَيـهِ مُصْلَـتُ
وَمَـا جَزَعِـي أَنِّـي أَمُـوتُ وَإِنَّنِـي لَأَعْلَـمُ أَنَّ المَـوتَ شَـيءٌ مُوَقَّـتُ
وَلَكِـنَّ خَلْفِـي صِـبْيَةً قَـد تَـرَكْتُهُمْ وَأَكْبَـادُهُم مِـنْ حَسْـرَةٍ تَتَفَتَّـتُ
كَأَنِّـي أَرَاهُـمْ حِيـنَ أُنْـعَى إِلَيـهِمُ وَقَـدْ خَمَشُـوا تِلْـكَ الوُجُـوهَ وَصَوَّتُـوا
فَـإِنْ عِشْـتُ عَاشُـوا آمِنِيـنَ بِغِبْطَـةٍ أَذُودُ الـرَّدَى عَـنْهُمْ وَإِن مِـتُّ مَوَّتُـوا

فتبسم المُعْتَصِم وقال: كاد والله يا تميم أن يَسْبِق السَّيفُ العَذَل، قد غَفَرْتُ لك الصَّبْوَة، وتَرَكْتُك للصِّبْيَة.

ويقال: إنه وَلَّاهُ على المدينة التي خرج عليه فيها. فَنَالَ بِلِسَانِه ما لم يَنَلْهُ بِسِنَانِه.

- ومن شواهد ذلك:

خبر مُصعب بن الزُّبَير مع الأسير مِن أصحاب المُخْتَارِ بنِ أبي عُبَيد الثَّقَفِي، وكان المُخْتَارُ يتظاهر بالفضل والصلاح ويكتم الفسق، وكان يتظاهر بِطَلَب دم الحُسَين ويُسِرُّ طَلَب الدنيا، وقد جاء ذِكْرُه في صحيح مسلم في خبر الحجاج لمَّا قال لأسماءَ بنتِ أبي بكر -رضي الله عنهما- وقد قتل ولدَها عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما-: كيف رأيتِني صنعتُ بِعَدُوِّ الله؟ قالت: رأيتُك أفسدتَ عليه دُنْيَاه، وأفسد عليك آخرتك. ثم قالت: أَمَا إنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدّثنا أنَّ في ثَقِيف كذَّابًا ومُبِيرًا، فأما الكذَّاب فرأيناه، وأما المُبِيرُ فلا إِخَالُكَ إلَّا إيَّاه.

وقد ذكر النَّوَوِيُّ في شرح صحيح مسلم أن العلماء اتفقوا على أن المراد بالكذاب المختارُ ابنُ أبي عُبَيد، وأن المراد بالمُبِيرِ الحجاجُ بنُ يوسف الثقفي.

والمُخْتَار كان يَدَّعي أنه يوحَى إليه! فَذُكِر ذلك لابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: صدق المختار؛ قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾.

وقد هجاه سُرَاقَةُ بنُ مِرْدَاس فقال: [الوافر]

كَفَـرْتُ بِـوَحْيِكُمْ وَجَعَلْـتُ نَـذْرًا عَلَيَّ هِجَاءَكُـمْ حَتَّى المَمَاتِ
أُرِي عَيْنَـيَّ مَـا لَـمْ تَرْأَيَـاهُ كِلَانَـا عَالِـمٌ بِالتُّرَّهَـاتِ

وكان من حِيَلِهِ العجيبة في قتاله مصعبَ بنَ الزبير: أنه أَوْدَع حمامًا بِيضًا لأناس، وقال لهم: إن رأيتم الدائرة علينا فأطلقوا هذا الحمام.

ثم خطب الناس وقال: إن الله مُمِدُّكم بملائكة غِضَاب، تأتي في صورة الحمام دُوَينَ السحاب. فلما كانت الدائرة عليهم أطلق أولئك الحمام فتصايح الناس: الملائكة الملائكة، فتراجعوا وقويت عزائمهم ووقع القتل بعد ذلك في عدوهم!

وحتى نعرف حقيقة المختار بن أبي عبيد: لمَّا ضيقوا عليه الحصار قال لصاحبه: إنَّما أنا رجل من العرب، رأيتُ ابنَ الزبير انتزى على الحجاز فأخذها، ورأيت نَجْدَة انتزى على اليمامة فأخذها، ورأيتُ مروان انتزى على الشام فأخذها، ولم أكن بِدُونِهم! فأخذتُ هذه البلاد فكنت كأحدهم إلا أني طلبتُ بثأر أهل البيت، فهذا الذي جَمَع الناس عليَّ، فقاتِلْ على حَسَبِك إن لم تكن لك نية.

وكان والده أبو عبيد الثقفي من جِلَّةِ الصحابة وكان قائدًا لجيشٍ من جيوش عمر في فتح العراق، في الوقعة المشهورة في التاريخ التي تسمى جسر أبي عبيد.

المقصود أن مصعب بن الزبير قتل المختار، وأُتِيَ إليه بأسرى فأمر بقتل أسير، فقال الأسير: يا أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك المليح الذي يستضاء به فأتعلق به وأقول: يا رب، سَلْ مصعبًا فِيمَ قتلني؟

فاستحيى مصعب وأمر بإطلاقه، فقال: أيها الأمير، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفضٍ ودعة من العيش. قال: أمرت لك بثلاثين ألف درهم. فقال: أشهدك أيها الأمير أن شطر هذا المال لعبدالله بن قيس الرُّقَيَّات. قال: ولم ذلك؟ قال: لقوله فيك: [الخفيف]

إِنَّـمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِّنَ اللَّـ ـهِ تَـجَلَّتْ عَـن وَّجْهِـهِ الظَّلْمَـاءُ

فضحك مصعب، وقال: اقبض ما أمرنا لك به ولابن قيس عندنا مثله. فما شعر عبدالله ابن قيس إلا وقد وافاه المال على باب بيته.

ومن طريف الأخبار أن عبد الله بن قيس الرقيات دخل مرةً على عبدالملك بن مروان وأنشده أبياتًا يمدحه فيها، وفيها قوله: [المنسرح]

يَعْتَــدِلُ التَّــاجُ فَــوْقَ مَفْرِقِــهِ عَلَــى جَبِيــنٍ كَأَنَّــهُ الذَّهَــبُ

فقال عبدالملك: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِّنَ اللَّـ ـهِ تَـجَلَّتْ عَـن وَّجْهِـهِ الظَّلْمَـاءُ

- ومن الأخبار التي تشهد لكون الأدب وحسن البيان -سواء أكان شعرًا أم نثرًا- ينزِع الغضب: أنه لما ظفر الحجاجُ بأصحاب ابن الأشعث جلس لضرب أعناقهم عامَّة النهار[1]. فأُتي آخرَهم برجل من بني تميم قال له: والله يا حجاج لَإن كنا قد أسأنا في الذنب فمَا أحسنت في العقوبة. فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف، أما كان فيها رجل يُحسن مثل هذا؟! وعفا عنه، وأمسك عن القتل، وحقنت عنده هذه الكلمة الدم، وتغمدت الإساءة والجرم.

وفتنة ابن الأَشْعَث كانت من الفُتُوق العظيمة التي انفَتَقَتْ على الدولة الأموية، وكان من خبرها باختصار:

أنه كانت بين الحجاج وابن الأشعث[2] وَحْشَة شديدة، وفي سنة إحدى وثمانين بعث الحجاج جيشًا في أربعين ألفًا، وعليه ابن الأشعث إلى رُتْبِيل ملك التُّرْك، فذهب ابن الأشعث وفتح كثيرًا من بلادهم، ثم قرر أن يُرِيح الجيشَ ويضع يده على ما تحته مما فتحه، وكتب بذلك إلى الحجاج، فكتب إليه الحجاج يَذُمُّه ويُعَيِّره بالجبن، ويأمره أن يواصل السير والقتال -والشاهد يرى ما لا يرى الغائب- فعرض ذلك على قواد الجيش، فثار الناس

---

(١) والحجاج معروف في ترجمته أن كان في سيفه رَهَق، وقد قال الذهبي في ترجمته: نَسُبُّه ولا نُحِبُّه، ونبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عُرَى الإيمان. وقال: له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه.

(٢) وهو عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس والأشعث صحابي ﷺ.

وقالوا: لا نسمع لعدو الله الحجاج ولا نطيع. وقال أحدهم: مَثَل الحجاج في رأيه ومَثَلُنَا كما قال الأول لأخيه: احمل عبدك على الفرس فإنْ هلك هلك، وإن نجا فلك، اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا لأميركم ابن الأشعث فخلعوه.

وأول ما فعل ابن الأشعث أنه ترك الجهاد، وصالح رُتْبِيل الكافر على أنه إن ظفر بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبدًا ما بقي، وإن هُزم ابن الأشعث ألجأه رتبيل عنده وآواه. فتصالح معه ورجع بسيوفه التي كانت تجاهد في سبيل الله على المسلمين، وفي الطريق قالوا: إنَّ خَلْعَنَا الحجاجَ خلعٌ لعبدالملك بن مروان فخلعوه، وكانوا بايعوا ابن الأشعث على الإمارة فحسب فصار أمير المؤمنين، وحاول ابن الأشعث أن يَسْتَمِيل المُهَلَّبَ بنَ أبي صُفْرَة – وكان المهلب على خُرَاسَان– لكنَّ المُهَلَّب أَبَى ذلك ونصحه وقال: أَبْقِ على أمة محمد – صلى الله عليه وسلم–، اللهَ اللهَ انظر لنفسك فلا تُهلكها، ودماء المسلمين فلا تَسفِكها، والجماعة فلا تُفرّقها، والبيعة فلا تَنكُثها.

وكتب المهلب إلى الحجاج ينصحه ويقول له: إنَّ أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ فلا تتصد لهم، اتركهم حتى يدخلوا البَصْرَة ويَرَوا أهلِيهم ويَشَمُّوا أولادهم. وكان الحجاج لا ينقطع عن الكتابة لعبدالملك، وابن الأشعث كلما دخل قرية بايعه أهلها حتى بلغ جيش ابن الأشعث مئة وخمسين ألفًا، وخرج الحجاج وحصل القتال بين الفريقين وكل واحد منهما يرفع راية لا إله إلا الله. التقى الجيشان فانكسر جيش الحجاج وفرَّ لا يَلْوِي على أحد وجعل يقول: لله دَرُّ المُهَلَّب! أيُّ صاحبِ حَرْبٍ هو؟ قد أشار علينا بالرأي ولكنّا لم نقبل.

وقعت الفتنة وتابع كثير من الفقهاء ابن الأشعث، حتى إنهم أكرهوا الحسن البصري على الخروج معهم وكان ينهاهم، وخرج مع ابن الأشعث كثير من الفقهاء منهم: مُسْلِمُ بنُ يَسَارٍ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ وابنُ أبي ليلى وطَلَقُ بنُ حبيبٍ ومالكُ بنُ دِينَارٍ وأبو الجَوْزَاءِ وأبو المِنهَالِ وعَطَاءُ بنُ السَّائِبِ والشَّعْبِي[1]. وقيل لابن الأشعث: إذا أردت أن يقاتل الناس معك كما

(١) لو أن أحدنا فتح كتب الحديث والتفسير وكُتب الرجال لوجد في الطليعة هؤلاء، كانت فتنة عظيمة، نسأل الله أن يعيذنا من الفتن.

قاتلوا حول جَمَل عائشة -رضي الله عنها- فأَخْرِج الحسنَ البصري فأَكْرَهَ الحسنَ البصري على الخروج. وقام الشعبي وقال: قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة. وطالت المناهضة بين ابن الأشعث والحجاج فواقعه ثمانين وقعة بالكوفة والبصرة.

وسقطت نفوس كثيرة بالآلاف، وكان عبدالملك قد أمد الحجاج بجُند من جنده. وكان آخر ذلك أنْ هُزِمَ ابن الأشعث وهرب إلى رُتْبِيل ملك الترك، فكتب إليه الحجاج: والله الذي لا إله إلا هو لإن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث لأبعثنَّ إلى بلادك ألفَ ألفِ مقاتل ولَأُخَرِّبَنَّها.

فعند ذلك غدر رُتْبِيل بابن الأشعث فقبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه، وقيّدهم في الأصفاد، وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له: الرُّخَّج -وكان قد وُكِّل رجلٌ بابن الأشعث ورُبِطَ معه حتى لا يهرب- صعِد ابن الأشعث قصرًا وألقى بنفسه من سطح القصر فماتا جميعًا، فاحْتُزَّ رأسُه وبُعِث به إلى الحجاج في العراق فطاف به في العراق، ثم بعث به إلى أمير المؤمنين عبدالملك فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبدالعزيز بمصر فطيف به هنالك ثم دفنوا رأسه بمصر، وجثتُه بالرُّخَّج، وفي هذا قال الشاعر: [الكامل]

هَيْهَاتَ مَوْضِعُ جُثَّةٍ مِّن رَأْسِهَا رَأْسٌ بِمِصْـــرَ وَجُثَّـــةٌ بِـــالرُّخَّجِ

ما الذي استفاده ابن الأشعث؟ لم يستفد شيئًا وخسر كل شيء؛ كان مجاهدًا في سبيل الله قائدًا للجيوش الإسلامية في بلاد الترك، فصار لاجئًا عند ملك الترك الذي كان يحاربه على الإسلام وكان آخر حاله ما ذُكِر من خبر انتحاره! وقتل آلاف المسلمين.

وما كان مصير من دخلوا هذه الفتنة من العلماء؟

جعل الحجاج بعد أن خمدت الفتنة يتتبعهم ويلاحقهم -وكان ابتداء الفتنة سنة ٨١هـ والفتنة مدتها من ثلاث سنوات إلى أربع سنوات- حتى قتل آخرهم وهو سعيد بن جبير سنة ٩٥هـ ومات بعد ذلك، وقد قَتَل سعيدَ بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو

محتاج إلى علمه. وكان العلماء والناس يقولون: ليتنا كُنَّا أطعنا الحسن البصري. قال أيوب السِّخْتِيَاني[1]: لا أعرف أحدًا منهم قُتِل إلا رغب عن مصرعه، ولا نجا إلا حمد الله الذي سلَّمه.

وقال أبو قِلابة: قال لي مُسلم بن يَسار: إني أحمد الله إليك أني لم أَرْمِ بسهم، ولم أضرب فيها بسيف.قال أبو قِلابة: فقلت له: فكيف بمَن رآك بين الصَّفَّين، فقال: هذا مسلم بن يسار لا يقاتل إلا على الحق فقاتل حتى قتل؟ قال: فبكى والله حتى وددت أن الأرض انشقت فدخلتُ فيها.

فازداد الناس بعد ذلك يقينًا أن الخروج على الحاكم المسلم -ولو كان ظالمًا- لا يجلب على المسلمين إلا الشرور، واستقر أمر أهل السنة والجماعة على هذا.

- ومن الأخبار التي تشهد لهذا -أن الأدب ينزع الغضب-: خبر الحجاج حين فَرَّ منه رجلٌ يطلبه، فقيل له: هذا خاله موجود. فأخذ خاله وأراد أن يقتله، فقال: وما ذنبي؟ قال: ابن أخيك. قال الرجل: أَوَلَوْ جئتكَ بشاهدين ذَوَي عَدْل يشهدان على براءتي؟ قال: هات.

قال: موسى وإبراهيم -عليهما الصلاة السلام-.

قال: وكيف ذلك؟

فتلا الرجل قوله تعالى: {أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨} فضحك الحجاج، وقال: أمَّا هذا فقد أُلْهِمَ حُجَّتَه فاتركوه. ومن المعلوم أن الحجاج كان يؤاخذ الرجل على جريرة غيره، وقد أعلن ذلك في خطبته أولَ ما قدم العراق أميرًا فقال: والله لَأَلْحُوَنَّكُم لَحْوَ العُود، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمة، ولأَضْرِبَنَّكُم ضَرْبَ غَرَائِب الإبل، ولآخُذَنَّ البريءَ بالسَّقِيم، والمُحْسِنَ بالمسيء، والمُطِيعَ بالعاصي، حتى تستقيم لي قناتكم.

---

[1] بكسر السين وتُفتح.

ومن الأخبار الطريفة في أخذ الإنسان بجريرة غيره، ما حكاه الجاحظ: أنَّ امرأة أتَت معلمًا بابن لها -وكان المعلم طويل اللحية- وقالت له: إنَّ هذا الصبي عاق لا يطيع أمه، فأُحب أن تُفْزِعه، فأخذ المعلم لحيته والتقمها في فَمِه، وحرَّك رأسه، وصاح صيحة هائلة ففزعت الأم، وقالت: إنما قلت لك أَفْزِع الصبي لا تُفْزِعني أنا! قال: أما علمت أن العذاب إذا نزل أهلك الصالح والطالح!

- ويشهد لهذا: خبر الحجاج مع عمران بن حِطَّان وكان من الخوارج، وكان الحجاج حَنِقًا عليه بسبب خروجه، حتى جيء به أسيرًا في ضمن أسرى الخوارج، فقال: اضربوا عنقه. وسَبَّ عمرانَ، فقال عمران: بئس ما أدَّبك به مؤدبك يا حجاج؛ كيف أَمِنتَ أن أجيبك بمثل ما جبهتني به أو أفحش؟ أبعد الموت منزلة أُصَانِعُك عليها؟

فأطرق الحجاج استحياء مما فرط منه وأمر له بفرس وسرج وسيف وخلّى سبيله، فلما عاد عمران إلى أصحابه الخوارج قالوا له: والله يا أبا سِمَاك ما أطلقك إلَّا الله، فَعُد بنا إلى حرب الفاسق. فقال: هيهات هيهات غَلَّ يدًا مُطْلِقُها، واستَرَقَّ رقبة مُعْتِقُها. فأرسلها مثلًا.

وفي هذا يقول في الشمقمقية: [الرجز]

وَلَا تَعُدْ لِحَرْبِ مَن مَّنَّ وَلَوْ مَنَّ فَمَا غَلَّ يَداً كَمُطْلِقِ

- ويشهد لهذا: خبر الحجاج مع الشَّعبي، فإن الشعبي كان ممن خرج في فتنة ابن الأشعث، وكان الحجاج يكرمه قبل الفتنة، حتى إنه مرةً دخل عبدالرحمن ابن الأشعث على الحجاج وكان الشعبي عنده، فقال الحجاج: والله ما رأيته إلا وددت لو قتلته. فأخبر الشعبيُّ ابنَ الأشعث بما قال، فقال ابن الأشعث: والله لئن طال بي العمر لأَجْهَدَنَّ في إزالته عن ملكه. ثم حصلت الفتنة التي سبق الكلام عنها آنفًا.

الشاهد أن الشَّعبي لما جيء به إلى الحجاج، قال: ما عذرك؟ قال الشَّعبي: أيها الأمير، إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وايْمُ الله لا أقول في هذا المقام إلا حقًّا، قد والله خرجنا عليك، واجتهدنا كل الجهد فما أَلَوْنَا، فما كنا بالفجرة الأقوياء،

ولا بالبررة الأتقياء، ولقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وما جرّت إلينا أيدينا، وإن عفوت فبحلمك، وبعدُ فالحجة لك علينا.

فقال له الحجاج: أنت والله أحب إليَّ ممن يدخل عليَّ يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت وما شهدت. قد أَمِنتَ عندنا يا شَعبي، فَانصَرِفْ، فانصرَفَ الشعبي.

– ومن شواهد ذلك: خبر قُتَيْلَةَ وهي في قول ابن هشام أخت النَّضْر بن الحارث وتبعه النووي، وقال الزبير بن بكار: هي ابنته وتبعه ابن عبدالبر والذهبي وصححه السهيلي في الروض الأنف.

وقد كان النَّضرُ بن الحارث شيطانًا من شياطين قريش، وقد رُوي عن ابن عباس أن كل آية فيها ذكر وصف القرآن بأنه أساطير الأولين فإنها نزلت فيه.
قيل إنه نزل فيه: {...قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾}
{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ}
{سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ}
{وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾}
{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ}

كل هذه الآيات قيل إنها نزلت فيه، وقد كان يؤذي النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحِيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسْبِنْدِيَار وأضرابهما ، فكان إذا جلس النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– مجلسا فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خَلَفَهُ في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه فهلم إليَّ، فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني!

ولم يقتل المسلمون من أسرى بدر إلا رجلين: عُقْبَة بن أبي مُعَيط والنضر بن الحارث هذا، وكلاهما من شياطين قريش.

الشاهد أنه لمَّا قُتِل النضر قالت قُتَيلَةِ ترثيه: [الكامل]

يَـــا رَاكِـــبًا إِنَّ الأُثَيْـــلَ مَظِنَّـــةٌ مِّنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَّأَنتَ مُوَفَّقُ
أَبْلِـــغْ بِهَـــا مَيْـــتًا بِـــأَنَّ تَحِيَّـــةً مَّا إِنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّـــي إِلَيْـــكَ وَعَبْـــرَةً مَّسْـــفُوحَةً جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَى تَخْنِقُ
هَـلْ يَسْمَعَنِّـي النَّضْـرُ إِنْ نَادَيْتُـهُ أَمْ كَيْـفَ يَسْـمَعُ مَيِّتٌ لَّا يَنْطِقُ
ظَلَّـتْ سُـيُوفُ بَنِـي أَبِيـهِ تَنُوشُـهُ للهِ أَرْحَـــامٌ هُنَـــاكَ تُشَـــقَّقُ
قَسْـرًا يُّقَـادُ إِلَـى المَنِيَّـةِ مُتْعَـبًا رَسْفَ المُقَـيَّدِ وَهُوَ عَانٍ مُّوْثَـقُ
أَمُحَمَّـدٌ يَـا خَيْـرَ ضِـنْءِ كَرِيـمَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالفَحْلُ فَحْلٌ مُّعْرِقُ
مَـا كَـانَ ضَـرَّكَ لَـوْ مَنَنْـتَ وَرُبَّـمَا مَنَّ الفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ الْمُحْنَقُ
أَوْ كُنْـتَ قَابِـلَ فِدْيَـةٍ فَلَنَأْتِيَـا بِـأَعَزِّ مَـا يَغْلُـو لَـدَيكَ وَيَنْفُـقُ
فَالنَّضْـرُ أَقْـرَبُ مَـنْ أَسَـرْتَ قَرَابَـةً وَّأَحَقُّهُـمْ إِنْ كَـانَ عِتْـقٌ يُّعْتَـقُ

ذكر ابن عبدالبر: أنَّ الأبيات لمَّا بلغت النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بكى حتى أخْضَلت الدموع لحيته -وأرحمُ الناس من يبكي على تَرِكَةِ مِثل النضر بن الحارث- وقال: لو بلغني شِعرها قبل أن أقتله ما قتلتُه.

وإلى هذا أشار في الشمقمقية بقوله: [الرجز]

وَعِنــدَمَا سَــمِعَ مِــن قُتَيْلَــةٍ رِثَــا قَتِيلِهَــا الَّــذِي لَــمْ يُعْتَــقِ
رَدَّ لَهَــا سَلَبَــهُ وَقَــدْ بَكَــى شَـفَـقَةً بِـدَمْـعِهِ الـمُـنطَـلِقِ

وقول الناظم: (رد لها سلبه) قال عنه الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي في زهر الأفنان: إنه لم يقف عليه في كتب الحديث والسيرة، والله تعالى أعلم.

المجلس الرابع

في هذا المجلس:

تاسعًا: الأدب يثير الأحقاد:

- خبر سُديف بن ميمون وما قال في بني أمية عند أبي العباس السفاح.
- خبر شبل بن عبدالله وما قال في بني أمية عند أبي العباس السفاح.
- خبر الأحوص الشاعر وما قال في أمير المدينة ابن حزم عند الوليد بن عبدالملك.
- خبر محمد بن عبدالملك الزيات وما قال في إبراهيم بن المهدي.

عاشرًا: الأدب يكسب سرعة البديهة:

- خبر أخطب العرب والعجم والإنس والجن في مجلس معاوية بن أبي سفيان.
- من أخبار أبي العيناء.
- خبر أبي تمام مع ديك الجن.
- خبر الأموي صاحب الأندلس وقوله للعبيدي: عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك وشيء من أخبار العبيديين.
- خبر ابن الرقاع في مجلس الوليد بن عبدالملك.
- خبر عوف بن محلم مع الأمير طاهر بن الحسين وابنه.
- خبر الشوكاني وإصلاحه عمامته وهو في الصلاة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فكما أن الأدب ينزع الغضب وقد أخذنا شيئًا من شواهد ذلك في المجلس السابق **٩- فهو كذلك يثير الأحقاد** وليس هذا إقرارًا لإثارته للأحقاد وتهييجه للغضب لكنه دليل على عظيم تأثير الأدب وما له من سلطان على النفوس ومن شواهد ذلك:

- خبرُ سُدَيف بن مَيمُون: فإنه دخل على أبي العباس السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك وابناه وقيل غيرهم -ومعلوم ما كان بين بني العباس وبني أمية من الوَحشة الشديدة والعداوة- فأنشده سُدَيف: [الخفيف]

لَا يَغُرَّنْكَ مَا تَرَى مِن أُنَاسٍ ... إنَّ بَيْنَ الضُّلُوعِ دَاءً دَوِيَّا

فَضَعِ السَّيفَ وَارْفَعِ السَّوْطَ حَتَّى ... لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمَوِيَّا

فأثار غضب أبي العباس فقتل سليمان من ساعته.

- ودخل أيضًا شِبلُ بن عبد الله -وكان في لسانِهِ شرٌّ ورَهَقٌ كسابقه- على أبي العباس أيضًا وعندهُ ثمانونَ من بني أمية، فأنشده قصيدةً له محرضًا عليهم: [الخفيف]

أَقْصِهِمْ أَيُّهَا الخَلِيفَةُ وَاقْطَعْ ... عَنكَ بِالسَّيفِ شَأْفَةَ الأَرْجَاسِ

ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا ... وَلَهَا مِنكُمُ كَحَزِّ المَوَاسِي

وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سِوَائِي ... قُرْبُهَا مِن نَّمَارِقٍ وَّكَرَاسِي

أَنزِلُوْهَا بِحَيثُ أَنزَلَهَا اللَّـ ... ـهُ بِدَارِ الهَوانِ وَالإِتْعَاسِ

وَاذْكُرُوا مَصْرَعَ الحُسَينِ وَزَيدٍ ... وَقَتِيلًا بِجَانِبِ المِهْرَاسِ

وَالقَتِيلَ الَّذِي بِحَرَّانَ أَمْسَى ... ثَاوِيًا بَينَ غُرْبَةٍ وَّتَنَاسِي

فلما سمع ذلك أبو العباس تَنَكَّر، وأمر بهم فقُتلوا، وألقى عليهم البِساط وجلس للغداء، وإِنَّ أَنِينَ بعضهم لَيُسمع.

- ومن ذلك خبر الأَحْوَص الشاعر، وقد تَحَامل عليه أمير المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم تحاملًا شديدًا، فشَخَصَ إلى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، فأنشده قصيدةً يمتدحه فيها، قال فيها مُتَظَلِّمًا: [البسيط]

لَا تَرْثِيَـنَّ لِحَزْمِـيٍّ ظَفِـرْتَ بِـهِ   يَوْمًا وَّلَوْ أُلْقِيَ الحَزْمِيُّ فِي النَّـارِ
النَّاخِسِينَ لِمَرْوَانٍ بِذِي خُشُـبٍ   وَّالدَّاخِلِينَ عَلَى عُثْمَانَ فِي الـدَّارِ

فقال له الوليد: صدقت والله، لقد غفلنا عن حزمٍ وآلِ حزم. وأمر باستئصال أموالهم وإسقاطهم جميعًا من الديوان.

- ومن ذلك: خبرُ إبراهيم بن المَهْدِي لَمَّا وَثَبَ على المأمون، وكان قد اقترض من التجار مالًا كثيرًا، وكان فيه مالٌ لعبدالملك الزَّيَّات، فلمَّا لم يتم له أمر الخروج لوى التجارَ أموالَهم ولم يَرجعْها[1] إليهم، فصنع محمد بن عبدالملك الزيات قصيدةً يُخاطِب بها الخليفةَ المأمون، ولم يعرِضها على المأمون وإنما عرضها على إبراهيم -يهدده كأنه يقول: إن لم تَرجِع مال أبي عرضتها على المأمون- قال: [الطويل]

تَذَكَّـرَ أَمِيـرَ المُؤْمِنِـينَ قِيَامَـهُ   بِأَيْمَانِـهِ فِي الهَـزْلِ مِنْـهُ وَفِـي الجِـدِّ
وَوَاللهِ مَـا مِـن تَـوْبَةٍ نَّزَعَـتْ بِـهِ   إِلَـيكَ وَلَا مَـيلٍ إِلَـيكَ وَلَا وُدِّ
وَكَيفَ بِمَن قَدْ بَايَعَ النَّاسُ وَالْتَقَتْ   بِبَيْعَتِـهِ الرُّكْبَـانُ غَـوْرًا إِلَـى نَجْـدِ
وَمَـن صَكَّ تَسْلِيمُ الـخِلَافَةِ سَمْعَـهُ   يُنَـادَى بِـهَا بَيـنَ السِّمَاطَيـنِ عَن بُعْدِ
وَأَيُّ امْـرِئٍ سَـمَّى بِـهَا قَـطُّ نَفْسَـهُ   فَفَارَقَهَـا حَتَّـى يُغَيَّـبَ فِـي اللَّحْـدِ

وعرضها على إبراهيم فاستَحْلَفه أن يَكْتُمها، وأَدَّى مالَ أبيه دون سائر التجار.

- ومن الأخبار في هذا: أنه لمَّا دخلت بريطانيا اليمن قام أحد الأشياخ وخطب وكان شاعرًا، فقال في خطبته: [الخفيف]

يَـا بِرِيطَانِيَـا رُوَيـدًا رُوَيـدَا   إِنَّ بَطْـشَ الإِلَـهِ كَـانَ شَـدِيدَا
إِنَّ بَطْـشَ الإِلَـهِ أَهْلَـكَ فِرْعَـو   نَ وَعَـادًا مِّـن قَبْلِكُـمْ وَثَمُـودَا
إِنْ تُبِيـدُوا مِـنَ البُيُـوتِ بِطَيَّـا   رَاتِكُـمْ مَـا غَـدَا لَـدَيْنَا مَشِـيدَا
فَلَنَـا فِـي الجِبَـالِ تِلْـكَ بُيُـوتٌ   صَنَعَتْهَـا أَجْدَادُنَـا لَـمْ تَبِيـدَا

(١) يَرْجِعْها (بفتح حرف المضارعة الياء لأن رجع يتعدى بنفسه في اللغة الفصحى وبها جاء القرآن "فرجعناك إلى أمك" و"فإن رجعك الله" ويجوز ضم حرف المضارعة)

لَا تَظُنُّـوا هَـدْمَ المَـدَائِنِ يُوهِـي عَزْمَنَـا أَوْ يُلِيـنُ بَـأْسًا صَـلُودَا

فَالنِّـزَالَ النِّـزَالَ إِن كُنتُـمُ مِـن مَّن لَّدَى الحَرْبِ لَا يَخَافُ الجُنُودَا

لِتَـرَوا مَـن يَّبِيـتُ مِنَّـا وَمِـنكُمْ مُوثَقًـا عِنـدَ خَصْـمِهِ مَصْـفُودَا

مَا خَضَعْنَا لِلتُّرْكِ مَعْ قُرْبِهِمْ فِي الدْ دِيـنِ مِنَّـا فَكَيـفَ نَرْضَـى البَعِيـدَا

وَهُـمُ فِـي الأَنَـامِ أَشْجَـعُ جَيْـشٍ فَاسْأَلُوهُـمْ: هَـلْ صَادَفُونَـا قُعُـودَا؟

يَـا بَنِـي قَوْمِنَـا سِـرَاعًا إِلَـى اللَّـ ـهِ فَقَـدْ فَـازَ مَـن يَّمُـوتُ شَهِيـدَا

سَـارِعُوا سَـارِعُوا إِلَـى جَنَّـةٍ قَـدْ فَـازَ مَـن جَاءَهَـا شَـهِيدًا سَـعِيدَا

وَالْبَسُـوا حُلَّـةً مِّـنَ الكَفَـنِ الغَـا لِـي وَبِيعُـوا الحَـيَاةَ بَيـعًا مَّجِيـدَا

قالوا: فكان من أثرها أن خرج مئة ألف لمقاومة العدو وأخرجوهم.

ومن دواعي العناية بالأدب:

١٠- أنه يُكسب حُسْن البديهة ونحن بحاجة ماسّة إلى سرعة البديهة بدلًا من العِيِّ والحَصَر، ولعلنا نُطَوِّف مع شيء من هذه الأخبار.

- من ذلك: خبر سَحْبَان -وكان خطيب العرب بأسرها غيرَ مُنَازَع ولا مُدَافَع- يقال: إنَّ معاوية وَفَدَ عليه وَفْدٌ من خُراسان فَطَلَب سحبانَ، فلم يوجد عامة النهار، ثم اقْتُضبَ من ناحية كان فيها اقتضابًا وجيء به إلى مجلس الخليفة، والوفد أمامه والناس مجتمعون، وقيل له: تكلم في مقام الخلافة، فقال: انظروا لي عصًا تُقِيم من أَوَدِي، فقالوا: ما تصنع بالعصا وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه في يده فضحك معاوية وقال: هاتوا عصاه، فاتكأ على العصا وخطب من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ما تنحنح ولا أعاد كلمة ولا تردد ولا ابتدأ في معنى فخرج عنه وقد بقي عليه فيه شيء، فقال له معاوية: إنك أخطب العرب! قال سحبان: والعجم والإنس والجن.

وهو القائل: [الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الحَيُّ اليَمَانُونَ أَنَّنِي إِذَا قُلْـتُ: أَمَّـا بَعْـدُ أَنِّـي خَطِيبُهَـا

– ومن ذلك: أن الرَّشيد قال مرةً لشُرِيح القاضي: آيةٌ في كتاب الله ليس لك ولا لقومك حظٌّ منها. قال: وما هي؟ قال: {وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ} –أي أنَّ القرآن شرفٌ لك ولقومك، وهارون الرشيد عباسي يفتخر بهذا– فقال له شُرِيح: وآية في كتاب الله ليس لي ولا لقومي حظٌّ منها، قال: وما هي؟ قال: {وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ}.

– وقال أحدهم لصاحبه: قد كنتَ عند الأمير فما ولَّاك؟ قال: وَلَّانِي قفاه.

– وأبو العَينَاء محمد بن القاسم بن خلّاد له أخبار كثيرة في كتب الأدب في حسن الجواب وسرعة البديهة.

قيل له مرة: هل بقي في دهرنا من يُلقى؟ قال: نعم، في البئر.

ولقيه رجل من إخوانه في السَّحَر فجعل يعجب من بكوره فقال أبو العيناء: أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالتعجب!

وقال له المتوكل يومًا: ما أشد ما عليك في ذهاب بصرك؟ قال: ما حُرِمتُه يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك.

ودخل أبو العيناء عليه مرةً فقال له: يا أبا العيناء، كيف ترى دارنا؟ –يمازحه– فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت الناس يبنون دورهم في الدنيا، وأنت تبني الدنيا في دارك.

وسأله المتوكل مرةً عن حاله فقال: في أحوال مختلفة، خيرها رؤيتك، وشرها غيبتك.

وحضر يومًا مجلس بعض الوزراء، فتفاوضوا حديث البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء –وكان قد بالغ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال–: قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إياهم، وإنما هذا تصنيف الورَّاقين، وكذب المؤلفين. فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير! فسكت الوزير، وعجب الحاضرون من إقدامه عليه.

- ومن عجيب أخبار البديهة ما يروى من خبر أبي تَمَّام مع أحمد بن المُعتصِم، وذلك أنه قال في مدح أحمد بن المعتصم وهو ابن الخليفة: [الكامل]

إِقْدَامُ عَمْـرٍو فِي سَمَاحَـةِ حَاتِـمٍ فِي حِلْـمِ أَحْنَـفَ فِي ذَكَـاءِ إِيَـاسِ

فقال له الكندي وكان حاضرًا وأراد الطعن عليه: ما زدتَ على أن شبهت الأمير بأَجْلاف العرب! ومن هؤلاء الذين ذكرت؟ فأطرق أبو تمام يسيرًا ثم ارتجل بيتين زادهما في القصيدة لوقته لم يكونا فيها وهما قوله: [الكامل]

لَا تُنكِـرُوا ضَرْبِـي لَـهُ مَـن دُونَـهُ مَثَـلًا شَـرُودًا فِـي النَّـدَى وَالبَـاسِ

فَـاللهُ قَـد ضَـرَبَ الأَقَـلَّ لِنُـورِهِ مَثَـلًا مِـنَ المِشْكَـاةِ وَالنِّبْـرَاسِ

فعجب أحمد بن المعتصم وجميع من حضره من فطنته وذكائه وأضعف أحمد جائزته.

يقول: لا تنكروا قولي: إن إقدامه كإقدام عمرو وهو أشجع منه، وسماحته كسماحة حاتم وهو أكرم منه، وحلمه كحلم الأحنف وهو أحلم منه، وذكاءه كذكاء إياس وهو أذكى منه؛ لأن الله تعالى قد شبه نوره بما هو أقل منه فقال تعالى: {مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} ونور الله ﷻ أعظم لكنَّ المراد ضرب المثل.

- ومن الأخبار في ذلك: أن الطِّرِمَّاح قال يومًا للفرزدق: يا أبا فراس، أنت القائل:[الكامل]

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًـا دَعَائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطْـوَلُ

أعز من ماذا؟ وأطول من ماذا؟ وأذَّن المؤذن وهو يسأله، فقال الفرزدق: ألا تسمع ما يقول المؤذن؟ الله أكبر، أكبرُ من ماذا؟ يعني أنه أكبر من كل شيء، فكذلك بيتٌ دعائمه أعز من كل عزيز وأطول من كل طويل، فانقطع الطِّرِمَّاحُ انقطاعًا ظاهرًا.

- ومن ذلك: أن أبا تمام لقي مرةً دِيكَ الجِن، وهو طفل يلعب، ويدَّعي قول الشعر، فأراد أبو تمام أن يختبره، فقال: إن كنتَ شاعرًا كما تقول فأَجِزْ -أي أكمِل-: [الخفيف]

فَرَّقُوا بَينَ مَنْ أُحِبُّ وَبَينِي

فقال ديك الجن: أُبَعِّد أم أُقَرِّب؟ قال: بَعِّد. قال:

مِثْلَ بُعْدِ السِّمَاكِ وَالفَرْقَدَينِ

قال: قَرِّب. قال:

مِثْلَ مَا بَينَ حَاجِبِيَّ وَعَينِي

– ومن ذلك: أنَّ ابن سِيرين كان إذا اقْتُضِي –طُلِب منه قضاء الدين– قال: أعطيك في أحد اليومين. فيظن السامع أنه يقصد أعطيك اليوم أو غدًا، وهو يريد الدنيا والآخرة.

– وكان المَرُّوذِيُّ ومُهَنَّا عند الإمام أحمد، فطرق طارقٌ الباب وقال: أين المَرُّوذِي؟ فرؤي كراهة هذا في وجه المروذي، فقال مُهَنَّا –ووضع إصبعه على باطن كفه–: ليس المَرُّوذِيُّ هاهنا، وما يصنع المَرُّوذِيُّ هاهنا؟ فذهب الرجل وتبسم الإمام أحمد.

– وأُحْضِرَ الثوريُّ إلى مجلس المهدي فأراد أن يقوم فمُنع، فحلف بالله أنه يعود، فترك نعله وخرج ثم رجع فلبسها ولم يعد، فقال المهدي: ألم يحلف أنه يعود؟ فقالوا: إنه عاد فأخذ نعله.

– وذكر ابن سيرين أن رجلًا كان يصيب بالعين، فرأى بغلة شُريح فأراد أن يَعِينَها ففطن له شريح. فقال: إنها إذا ربَضت لم تقم حتى تقام. فقال الرجل: أف أف. وسلمت بغلته. وإنما أراد: أن الله –سبحانه وتعالى– هو الذى يقيمها.

– وأبو حنيفة جاءه رجل فقال له: أدركني قبل الفجر وإلا طلقت امرأتي. قال: ما ذاك؟ قال: إنها تركت كلامي الليلة. فقلت لها: إن لم تحدثيني قبل الفجر فأنت طالق. ففرِحَتْ، وهي لا تحدثني.

فقال أبو حنيفة –وكان صاحب بديهة حاضرة–: اذهب إليها وقل: حدثيني قبل أن يؤذن المؤذن. ثم اذهب إلى المؤذن وقل له يؤذن قبل الفجر ثم اجلس إليها.

ففعل الرجل فلما سَمِعَت المؤذن قالت: الحمد لله استرحتُ منك. قال: الحمد لله رجعتِ إليّ؛ لم يطلع الفجر.

- وقال الرشيد مرةً للفضل بن الربيع -وهو صغير-: دارُنا أحسن أم داركم؟ فقال: إن كان أمير المؤمنين في دارنا فدارنا أحسن، وإن كان في داره فداره أحسن.

- ومن ذلك ما وقع لأبي عبدالله بن مرزوق، وكان قد ذهب إلى بلدٍ وطلبوا منه أن يقعد على المنبر ويفسر لهم شيئًا من القرآن، واتفقوا معه على آياتٍ يقرؤونها، وكان غريبًا عن هذا البلد، فلما جلس على المنبر قرأ القارئ آيات غير التي ذكروا له؛ قرأ قوله تعالى: {وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا} فشرع ابن مرزوق ينفق مما آتاه الله من العلم حتى بلغ قوله تعالى: {فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ} فذكر فضائل الكلب، ثم قال: إلَّا أنَّ فيه خَصلةً ذميمة وهي أنه ينبح الغريب يعرِّض بهم ثم نزل عن المنبر.

- والأموي صاحب الأندلس كتب إليه نزار العبيدي صاحب مصر كتابًا سبَّه فيه وهجاه، فكتب إليه الأموي: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك. فاشتد هذا على نزار وأفحمه عن الجواب.

وكان العبيديون يدّعون أنهم من آل البيت ويذكرون نسبهم على المنبر، حتى إنَّ العزيز أحد خلفائهم -وكانوا أربعة عشر متخلفًا لا خليفة قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء، ولما تكلم في تاريخ الإسلام عن عبيدالله الملقب بالمهدي أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية قال: ويا حبذا لو كان رافضيًا وبَسّ، ولكنه زنديق- صعِد المنبر في أول ولايته يوم جمعة فوجد رقعةً مكتوبًا فيها: [السريع]

إِنَّــــا سَمِعْنَــــا نَسَــــبًا مُنكَــــرًا ... يُتْلَـى عَلَـى المِنبَـرِ فِـي الجَامِـعِ
إن كُنـــتَ فِيمَـــا تَـــدَّعِي صَـــادِقًا ... فَـــاذْكُرْ أَبًـــا بَعْـــدَ الأَبِ الرَّابِـــعِ
وَإن تُـــرِدِ تَحْقِيـــقَ مَـــا قُلْتُـــهُ ... فَانسُـــبْ لَنَـــا نَفْسَـــكَ كَالطَّائِـــعِ
أَوْ لَا دَعِ الأَنسَـــــابَ مَسْتُـــــورَةً ... وَادْخُـلْ بِنَـا فِـي النَّسَـبِ الوَاسِـعِ
فَـــإِنَّ أَنسَـــابَ بَنِـــي هَاشِـــمٍ ... يَقْصُـــرُ عَنْـــهَا طَـــمَعُ الطَّامِـــعِ

والطائع هو الخليفة العباسيّ في ذلك الوقت وهو معروف النسبة.

وكانوا يدعون علم الغيب، صعد العزيز مرة فوجد رقعة مكتوبًا فيها: [البسيط]

بِالظُّلْمِ وَالجَوْرِ قَد رَضِينَا ... وَلَيسَ بِالكُفْرِ وَالحَمَاقَةْ

إِن كُنتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيبٍ ... فَاذْكُرْ لَنَا صَاحِبَ البِطَاقَةْ

- ومن الأخبار في البديهة: خبرُ الإمام الشوكاني، فإنه ألَّف كتابه: السَّيل الجَرَّار في شرح حدائق الأزهار. وحدائق الأزهار من متون الزَّيْدِيَّة، فَرَدَّ الأقوال غير المَبنِيَّة على دليل، فغضب لهذا بعضهم وألَّف كتابًا سماه: الغَطَمْطَمُ الزَّخَّار المُتَدَفِّق على حدائق الأزهار لِيُطَهِّرَه من رجس السيل الجرار، فلما بلغ ذلك الشوكاني قال: هذا ليس بفقيه؛ ألا يعلم أن السيل لا ينجس!

ومرةً سقطت عمامته وهو يصلي فحملها ووضعها على رأسه فأنكروا عليه بعد الصلاة فقال: حمل عِمَامة، أهْونُ من حمل أُمَامَة.

يشير إلى ما في الصحيحين من صلاته -صلى الله عليه وسلم- وهو حاملٌ أمامة بنت زينب بنتِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

- ومن الأخبار في هذا: أن الشيخ محمد عالي ولد عبد الودود الشنقيطي -رحمه الله- جاءه رجل وكان قد أنشد قصيدة نونية، قال فيها (فَنُوا) بضم النون فأنكروا عليه، وقالوا: إن الصواب فتح النون.

فجاء الشيخَ محمد عالي وأخبره فقال الشيخ: {نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ} يريد به شيئين:

الأول: أن فَنُوا مثل نَسُوا فالذي قاله صحيح.

والثاني: أنهم لم ينتبهوا إلى الآية، ولو انتبهوا لعلموا أن الصواب ضم النون.

- وأتى رجلٌ الشيخ محمد عبد الله ولد الصديق الشنقيطي -رحمه الله- فقال: صلة ميم الجمع عند ورش لا نعرفها، فهل لها شاهدٌ يشهد لها؟ قال الشيخ: نعم لها شاهد وهو قول الشاعر: [الطويل]

فَمَنْ أَنتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ انتُمُ ... وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ الأَعَاصِرِ

قَضَى اللهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ   بَقِيَّـــةَ خَلْـــقِ اللهِ آخِـــرَ آخِـــرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَن كَانَ قَبْلَكُمْ   وَلَـــمْ تُــدْرِكُوا إِلَّا مِــدَقَّ الحَوَافِــرِ

قيل: إنه لم يُقَلْ في الاحتقار أبلغ من هذه الأبيات!

– ومن الأخبار البديهة: أنَّ ابنَ الرِّقَاع أنشد قصيدة في مجلس الوليد بن عبد الملك في وصف الخمر، فقال الوليد: قد والله وصفتها فأجدت وصفها، حتى ارتبتُ بك. فقال ابن الرِّقَاع: وأنا والله يا أمير المؤمنين قد ارتبت بك؛ كيف عرفتَ أني أجدت صفتها؟ فضحك الوليد وتركه.

– ومن ذلك ما وقع لعَوفِ بن مُحَلِّم، فإنه رأى الأميرَ طاهر بن الحسين على حَرَّاقة –ضرب من السفن– وكان على الجسر فنادى بهذه الأبيات: [المتقارب]

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةِ ابنِ الحُسَيْ   نِ كَيــفَ تَعُــومُ وَلا تَغْــرَقُ
وَبَحْـرَانِ مِـن تَحْتِهَـا واحِـدٌ   وَّآخَــرُ مِــن فَوقِهَــا مُطْبِــقُ
وَأَعْجَــبُ مِــن ذَاكَ عِيــدَانُهَا   وَقَــد مَسَّــهَا كَيْــفَ لَا تُــورِقُ

فكانت هذه الأبيات سبب اتصاله به وكان عوف صاحب نوادر وأخبار ومعرفة بأيام الناس فاختصه الأمير طاهر بن الحسين لمنادمته ومسامرته، فكان لا يسافر إلا وهو معه، وبقي كذلك ثلاثين سنة لا يفارقه، وكلما استأذن عوفٌ في الانصراف إلى أهله ووطنه لا يأذن له من فرط محبته له، إلى أن مات الأمير طاهر وولي بعده ابنه عبد الله وكان أشد تعلقًا به من أبيه طاهر، فأنزله منزلته من أبيه، وأفضلَ عليه حتى كثر ماله وحسنت حاله، فاتفق أن خرجوا مرةً فسمع عبد الله بن طاهر صوت عندليب يغرّد أحسن تغريد فقال: قاتل الله أبا كبير الهذليّ إذ يقول: [الطويل]

أَلَا يَا حَمَامَ الأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ   وَّغُصْــنُكَ مَيَّــادٌ فَفِــيمَ تَنُــوحُ
أَفِقْ لَا تَنُحْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَإِنَّنِي   بَكَيْــتُ زَمَانًــا وَّالفُــؤَادُ صَــحِيحُ
وَلُوعًــا فَشَــطَّتْ غُرْبَــةً دَارُ زَينَــبٍ   فَهَــا أَنَــا أَبْكِــي وَالفُّــؤادُ قَــرِيحُ

فقال عوف بن محلِّم: أحسن والله وأجاد أبو كبير، إنه كان في الهذليين مئةٌ وثلاثون شاعرًا ما فيهم إلا مُفلِق وما كان فيهم مثلُ أبي كبير وأخذ يصفه، فقال له عبد الله: أقسمت عليك إلا أجزت قوله، فقال له: قد كَبِرَتْ سنّي وفني ذهني وأنكرتُ كلَّ ما كنت أعرفه. فألحَّ عليه عبد الله، فتذكر إذ ذاك عوف بن محلِّم عياله الذين لم يرهم منذ ثلاثين سنة فقال على البديهة والارتجال –وهو من بدائع البدائه–:

أَفِـي كُـلِّ عَـامٍ غُرْبَـةٌ ونُـزُوحُ ... أَمَـا لِلنَّـوَى مِـن وَنْيَـةٍ فَتُرِيـحُ
لَقَـد طَلَّـحَ البَيْـنُ المُشِـتُّ رَكَائِبِـي ... فَهَـلْ أَرَيَـنَّ البَيْـنَ وَهْـوَ طَلِيـحُ
وَأَرَّقَنِـي بِـالرَّيِّ نَـوْحُ حَمَامَـةٍ ... فَنُحْـتُ وَذُو الشَّـجْوِ الحَزِينُ يَنُـوحُ
عَلَى أَنَّـهَا نَاحَـتْ وَلَـمْ تُـذْرِ دَمْعَةً ... وَنُحْـتُ وَأَسْـرَابُ الدُّمُـوعِ سُـفُوحُ
وَنَاحَـتْ وَفَرْخَاهَـا بِحَيْـثُ تَرَاهُـمَا ... وَمِـن دُونِ أَفْرَاخِـي مَهَامِـهُ فِيـحُ
أَلَا يَـا حَـمَامَ الأَيْـكِ إِلْفُـكَ حَاضِـرٌ ... وَغُصْـنُكَ مَيَّـادٌ فَفِـيمَ تَنُـوحُ
عَسَى جُودُ عَبدِاللهِ أَنْ يَعْكِسَ النَّوَى ... فَتُضْحِي عَصَا التَّسْيَارِ وَهْيَ طَرِيحُ
فَإِنَّ الغِنَى يُدْنِي الفَتَى مِن صَدِيقِه ... وَعُـدْمُ الفَتَـى بالمُغْرِبِيـنَ طَـرُوحُ

فاستعبر عبدالله ورقَّ له وجرت دموعه، وقال: والله إنني لضنينٌ بمفارقتك، شحيحٌ على الفائت من محاضرتك، ولكن والله لا أعملت خفًّا ولا حافرًا إلا راجعًا إلى أهلك وأمر له بثلاثين ألف درهم.

المـــجـــلـــس الخـامس

في هذا المجلس:

الحادي عشر: الأدب يثمر السلامة من اللحن:

-خبر سبب طلب سيبويه العربية.

- خبر سبب طلب أبي زيد النحوي الأدب.

- تأويل رؤيا من رأى أنه يصنع طعامًا ويضع فيه ملحًا.

-لِمَ باؤك تجُرّ وبائي لا تجر!

- خبر المولَع بالنصب.

الثاني عشر: الأدب يُذب به عن الأحساب وتحمى به القبائل.

- خبر زياد الأعجم مع الفرزدق

- خبر ابن بشير الأنصاري مع ابن عمه الأحوص.

الثالث عشر: الأدب تخلد به مفاخر الإسلام.

كان فتح أبي تمام لِعَمُّورِيَّة بشعره أعظم من فتح المعتصم لها بجيشه.

- ما فتح عَمُّورِيَّة أمام معركة شَقْحَب ومعركة الزَّلَّاقة!

- خبر فتح قُتَيبة لِكاشْغَر أدنى مدائن الصين وقول هُبَيرَة بن مُشَمْرَج لملك الصين:

كيف يكون قليلَ الأصحاب مَن أوَّلُ خَيلِه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون! وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإنَّ لنا آجالًا إذا حضرت فأَكْرَمُها القتل، ولسنا نكرهه ولا نخافه، وقد حلف قُتَيبة أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطى الجزية.

الرابع عشر: الأدب يمضي الشفاعات.

- شفاعة علقمة بن عبدة الشاعر في أخيه عند الحارث بن أبي شمر الغساني.
- شفاعة أمية بن الأسكر في ابنه كلاب عند عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.
- شفاعة أبي تمام للواثق عند أبيه المعتصم في أن يولّيه العهد.

- شفاعة أبي تمام في بني تغلب عند مالك بن طوق.
- شفاعة الفرزدق في خُنَيس عند تميم بن زيد.

الخامسَ عشر: الأدب يستنجز الصلات ويستخلص الوعود المنتهية بالحرمان.

- الشاعر الذي وعده معن بن زائدة بصلة فأبطأ عليه.
- دعبل مع بعض أمراء الرَّقَّة.
- أبو العتاهية مع عمرو بن العلاء حين تأخر عنه برُّه.
- بشار يأخذ بلجام بغلة خالد البرمكي وهو في طريقه إلى المسجد ويستنجز صلته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فما زلنا في فوائد الاشتغال بعلم الأدب والثمرات التي يجتنيها مَن حَصَّله.

من ذلك:

١١- السلامة من اللحن: والمقصود باللحن هنا الخطأ.

- وقد مَرَّ عمر بن الخطاب ﷺ على نَفَرٍ يتمرَّنون بالسهام، فوجدهم لا يُحسنون فَأَنَّبهم، فقالوا: إنا قومٌ متعلمين. فقال: والله لَخطؤكم في لسانكم أشدُّ عليَّ من خطئكم في رميكم. كان ينبغي أن يقولوا: متعلمون.

- وقد أخرج الخطيبُ البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، عن سيبويه أنه جاء الخليلَ بنَ أحمدَ فشكا إليه حمادَ بنَ سلمة، قال: سألته عن حديث هشام بن عروة عن أبيه في رجل رَعُفَ، فانتهرني وقال لي: أخطأتَ؛ إنما هو رَعَف -بفتح العين- فقال له الخليل: صدق، أتلقى بهذا الكلام أبا سلمة!

- وقال وكيع: أتيتُ الأعمش أسمع منه الحديث، فكنت ربما لَحَنتُ، فقال لي: يا أبا سفيان، تركتَ ما هو أولى بك من الحديث! فقلت: وأي شيء يا أبا محمد أولى بي من الحديث؟! فقال: النحو. فأملى عليَّ الأعمش النحو، ثم أملى عليَّ الحديث.

- وقال أبو زيد النحوي: كان الذي حَدَاني على طلب الأدب والنحو: أني دخلت على جعفر بن سليمان، فقال: ادنُه. فقلت: أنا دنيٌّ. فقال: لا تقل -يا بُنَيَّ- أنا دنيٌّ، ولكن قل: أنا دانٍ.

- وكان عبد الملك بن مروان يقول: اللحن في الرجل السَّرِيِّ -أي الشريف- كالجُدَرِيِّ في الوجه.

- وقال الشَّعْبِي: النحو في العلم كالملح في الطعام؛ لا يستغنى عنه.

- ومن طريف ما يذكر: أنه دخل رجل على ابن سيرين، فقال: إني رأيت في المنام أني أصنع طعامًا وأضع فيه ملحًا. فقال: أنت طالب علم، وأنت الآن تطلب النحو. وكذلك كان.

- وقد كان السلف يضربون أولادهم على اللحن.

- وقال الأصمعي: أخوف ما أخافه على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار» لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه. ولذلك قال الحافظ العراقي في ألفيّة الحديث: [الرجز]

وَلْيَحْذَرِ اللَّحَّانَ وَالمُصَحِّفَا عَلَى حَدِيثِهِ بِأَن يُّحَرِّفَا
فَيَدْخُلَا فِي قَوْلِهِ مَن كَذَبَا فَحَقٌّ النَّحْوُ عَلَى مَن طَلَبَا

-وقد دخل أعرابي مرة السوق فسمعهم يلحنون، فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!

- وقيل لبعضهم: ما فعل أبوك بحمارِهِ؟ قال: باعِه. فقيل: لمَ قلت: باعِه؟ قال: لمَ قلتَ أنت: بحمارِهِ؟ قال: لأني جررته بالباء. قال: فلمَ تجرُّ باؤكَ وبائي لا تجُر!

- وتكلم بعض الخلفاء في مجلس فيه أعرابي فلَحَنَ الخليفة، فَصَرَّ الأعرابيُّ أذنيه، فلحن مرة أخرى -أعظم من الأولى- فقال الأعرابي: أفٍّ لهذا، ما هذا! فلحن الثالثة، فقال الأعرابي: أشهدُ لقد وَلِيتَ هذا الأمر بقضاءٍ وقدر!

- وقال أبو زيد الأنصاريّ: كنت ببغداد فأردت الانحدار إلى البصرة، فقلت لابن أخي: اكترِ لنا. فجعل ينادي: يا معشر الملاحون -بالرفع- فقلت له: ويلك ما تقول! قال: جُعِلْتُ فداك أنا مولعٌ بالنصب!

- ودخل مرةً خالد بن صفوان مكان الاستحمام وفيه رجل مع ابنه، فأراد هذا الرجل أن يُعرِّف خالدًا ما عنده من البيان والفصاحة، فقال: يا بني، ابدأ بيداك ورجلاك، ثم التفت إلى

خالد وقال: يا خالد، هذا كلام قد ذهب أهله. فقال خالد: هذا كلامٌ ما خلق الله له أهلًا قط.

– وقد استأذنَ رجل على إبراهيم النَّخَعِي فقال: أبا عمران في الدار؟ فلم يجبه، فقال: أبي عمران في الدار؟ فناداه مِن داخل الدار وقال: قل الثالثة وادخل.

– وقال رجل لصاحبه: عرفتُ النحو، إلا أني لا أعرف هذا الذي يقولون: أبو فلان وأبا فلان وأبي فلان فقال: هذا أسهل شيءٍ في النحو: أبا لمن عظم قدره، وأبو للمتوسطين، وأبي لمن دون ذلك. فقال: علمتني علمك الله!

ونحن نسأل الله أن يجنبنا هذا العلم الذي لا ينفع.

– وقد دخل مرة رجل مع خصمه على القاضي وقال: يا أيها القاضي، لي عليه درهمان. فقال خصمه: يا أيها القاضي هي ثلاثة دراهم لكنه أراد أن يظهر الإعراب فضيع درهمًا منها.

– وقيل لبعضهم: من أين أقبلت؟ قال: من عند أهلونا. وكان صاحبه أشد غفلةً منه، فقال: ما أفصحك! أنا أعرف من أين أخذتها، أخذتها من ﴿ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا ﴾.

– ولقي رجلٌ صاحبَه –وكان صاحبُه من أهل الأدب– وخاف أن يلحن فقال: أخاك أخوك أخيك في الدار؟ قال: لا لو لي.

– وكان الحسن البصري إذا عثر لسانه بشيءٍ من اللحن قال: أستغفر الله. فقيل له في ذلك، فقال: من أخطأ فيها فقد كذب على العرب، ومن كذب فقد عمل سوءًا، والله –عز وجل– يقول: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

ومن دواعي العناية بالأدب:

١٢- أن الأدب تُحمى به الأعراض ويُذَبُّ به عن الأنساب، وربما حمى الشاعر قبيلته.

- ومِمَّن حمى قبيلته: زياد الأعجم؛ وذلك أن الفرزدق هَمَّ بهجاء عبد القيس، فبلغ ذلك زيادًا، فبعث إليه أن لا تعجل وأنا مهدٍ لك بهدية، فانتظر الفرزدق الهدية فجاءته وكانت أبياتًا يقول فيها: [الطويل]

فَمَا تَـرَكَ الهَاجُونَ لِي إِنْ هَجَوتُهُ مَصَحًّـا أَرَاهُ فِـي أَدِيـمِ الفَـرَزْدَقِ
وَلَا تَرَكُوا عَظْمًا يُرَى تَحْتَ لَحْمِهِ لِكَاسِـرِهِ أَبْقَـوْهُ لِلْمُتَعـرِّقِ
سَأَكْسِـرُ مَـا أَبْقَـوا لَـهُ مِـنْ عِظَامِـهِ وَأَنكُـتُ مُـخَّ السَّـاقِ مِنـهُ وَأَنتَقِـي
فَإِنَّـا وَمَـا تُهْـدِي لَنَـا إِنْ هَجَوتَنَـا لَكَالبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَ فِي البَحْرِ يَغرَقِ

فلما بلغته الأبيات كفّ الفرزدق عما أراد وقال: لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم.

- وقريبٌ من هذا أن الأَحْوَصَ بنَ محمدٍ الأنصاريَّ الشاعرَ هجا رجلًا من الأنصار يقال له: ابن بشير وكان كثير المال، فاشترى ابن بشير هدية ووفد بها على الفرزدق مستجيرًا به فأجاره، ثم قال: أين أنت من الأحوص؟ فقال: هو الذي أشكو، فأطرق الفرزدق ساعة ثم قال: أليس الذي يقول: [الطويل]

أَلَا قِفْ بِرَسْمِ الدَّارِ فَاسْتَنطِقِ الرَّسْمَا فَقَـدْ هَـاجَ أَحْزَانِـي وَذَكَّرَنِـي نُعْمَـا

قال: بلى. قال: والله لا أهجو شاعرًا هذا شِعره.

فاشترى ابن بشير أنفس من الهدية الأولى وقدم بها على جرير فاستجاره، فأجاره ثم قال له: ما فعل ابن عمك الأحوص؟ قال: هو صاحبي الذي هجاني، قال: أليس القائل:[الطويل]

تَمَشَّى بِشَتْمِي فِي أَكَارِيسِ مَالِكٍ يُشِيدُ بِهِ كَالكَلْبِ إِذْ يَنبَحُ النَّجْمَا

قال: بلى. قال: والله لا أهجو شاعرًا هذا شعره.

فاشترى ابن بشير أكثر من الهديتين، وأهداها إلى الأحوص وصالحه!

وهجا رجلٌ من بني حرامٍ الفرزدقَ، فجاء به قومُهُ يقودونه إليه، فقال الفرزدق: [الوافر]

وهجَو مَـنْ يَـكُ خائِفًـا لِأَذَاةِ شِـعْرِي فَقَدْ أَمِنَ الهِجَاءَ بَنو حَرَامِ

هُمُ قَادُوا سَفِيهَهُمُ وَخَافُوا قَلَائِدَ مِثْلَ أَطْوَاقِ الحَمَامِ

ومن دواعي العناية بالأدب:

١٣- أنه يُخَلِّد مفاخر الإسلام.

أكثر الناس يعرفون فتح عَمُّورِيَّة، والسبب في هذا أبيات أبي تَمَّام التي قال فيها: [البسيط]

السَّـيفُ أَصْـدَقُ أَنبَـاءً مِـنَ الكُتُـبِ فِـي حَـدِّهِ الـحَدُّ بَـيْنَ الـجِدِّ وَاللَّعِـبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِـنَّ جَـلَاءُ الشَّـكِّ وَالرِّيَـبِ

وَالعِلـمُ فِـي شُـهُبِ الأَرْمَـاحِ لَامِعَـةً بَينَ الخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُهُبِ

أَيـنَ الرِّوَايَـةُ بَـلْ أَيـنَ النُّجُـومُ وَمَـا صَاغُوهُ مِن زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِن كَذِبِ

تَخَـرُّصًا وَّأَحَادِيـثًا مُّلَفَّقَـةً لَّيسَـتْ بِنَبـعٍ إِذَا عُـدَّتْ وَلَا غَـرَبِ

ومن جميل ما فيها قوله:

إِن كَانَ بَينَ صُروفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ مَّوصُـولَةٍ وَّذِمَـامٍ غَـيرِ مُنقَضِـبِ

فَبَيْـنَ أَيَّامِـكَ اللَّائِـي نُصِـرْتَ بِهَـا وَبَيْـنَ أَيَّـامِ بَـدْرٍ أَقـرَبُ الـنَسَبِ

حتى قيل: كان فتح أبي تمام لعَمُّوريَّة بشعره أعظم من فتح المعتصم لها بجيشه!

وما فتح عمورية أمام معركة شَقْحَب التي شارك فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وهُزِم فيها التتار.

ما فتح عمورية أمام الزَّلَّاقة التي حفظ الله بها الإسلام في الأندلس أربع مئة سنة، حتى قال بعض المؤرخين: إن السبب في تأخر سقوط الأندلس أربعة قرون معركة الزَّلَّاقة. وأكثر الناس لا يعرفها؛ لأنها لم تُرْزَق شاعرًا يُخَلِّدها، وعَمُّوريَّة خَلَّدها أبو تمام.

– وخذ مثالًا على ذلك: في سنة ستٍ وتسعين غزا قتيبة بن مسلم الباهلي كَاشْغَر، وهي أدنى مدائن الصين، فغنم وسبا، فكتب إليه ملك الصين: أن ابعث إليَّ من يخبرني عنكم وعن دينكم. فانتخب قتيبة عشرة لهم جمالٌ وألسنٌ وبأسٌ وعقلٌ وصلاح، وأوفدهم عليه وكان منهم هُبَيرة بن مُشَمْرَج الكِلَابي، وقال لهم قتيبة: إذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم. فساروا وعليهم هُبَيرة بن مُشَمْرَج فالتقوا بالملك فقال لهم: قولوا لصاحبكم: إني قد عرفت قلة أصحابه فلينصرف وإلا بعثت إليكم من يهلككم. فقال هُبَيرة: كيف يكون قليلَ الأصحاب مَن أول خيلِهِ في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأَكْرَمُها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه، وقد حلف قتيبة أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية. فقال ملك الصين: فإنا نخرجه من يمينه، ونبعث تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها. فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم وقدموا على قتيبة، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردهم، ووطئ التراب، فقال سَوَادَة بن عبدالملك السَّلولي يخلد بشعره هذه المفخرة قال: [الكامل]

لَا عَيْبَ فِي الوَفْدِ الَّذِينَ بَعَثْتَهُمْ ... لِلصِّينِ أَن سَلَكُوا طَرِيقَ المَنْهَجِ
كَسَرُوا الجُفُونَ عَلَى القَذَى خَوْفَ الرَّدَى ... حَاشَا الكَرِيمَ هُبَيرَةَ بنَ مُشَمْرَجِ
لَمْ يَرْضَ غَيْرَ الخَتْمِ فِي أَعْنَاقِهِمْ ... وَرَهَائِنٍ دُفِعَتْ بِحِمْلِ سَمَرَّجِ
أَدَّى رِسَالَتَكَ الَّتِي اسْتَرْعَيْتَهُ ... وَأَتَاكَ مِنْ حِنثِ اليَمِينِ بِمَخْرَجِ

فأوفد قُتيبةُ هُبَيرةَ إلى الوليد بن عبدالملك فمات في الطريق –مات في موضع يقال له قرية من بلاد فارس– فرثاه سوادة قال: [الكامل]

للهِ دَرُّ هُبَيْرَةَ بنِ مُشَمْرَجٍ ... مَاذَا تَضَمَّنَ مِن نَّدًى وَّجَمَالِ
وَبَدِيهَةٍ يَّعْيَا بِهَا أَبْنَاؤُهَا ... عِنْدَ احْتِفَالِ مَشَاهِدِ الأَقْوَالِ
كَانَ الرَّبِيعَ إِذَا السُّيُوفُ تَتَابَعَتْ ... وَاللَّيثَ عِنْدَ تَكَعْكُعِ الأَبْطَالِ

فَسَــقَى بِقَرْيَــةَ حَيــثُ أَمْسَــى قَبْــرُهُ غُـــرٌّ يَرُحْـــنَ بِمُسْبِــلٍ هَطَّـــالِ
بَكَـــتِ الجِيَـــادُ الصَّـــافِنَاتُ لِفَقْـــدِهِ وَبَكَـــاهُ كُـــلُّ مُثَقَّـــفٍ عَسَّـــالِ
وَبَكَتْـــهُ شُعْـــثٌ لَّـــمْ يَجِـــدْنَ مُوَاسِيًـــا فِـي العَـامِ ذِي السَّنَـوَاتِ وَالإِمْحَـالِ

١٤- الأدب يُمضي الشفاعات

من شواهد ذلك أنه لما قَتل الحارثُ بنُ أبي شمر الغسانيُّ المنذرَ بنَ ماء السماء -وهو المنذر الأكبر، وماء السماء أُمُّه- أَسَرَ جماعةً من أصحابه، وكان فيمن أسر شاسُ بن عَبَدَةَ في تسعين رجلًا من بني تميم، وبلغ ذلك أخاه علقمة بن عبدة الشاعر صاحبَ امرئ القيس -وهو المعروف بعلقمة الفحل- فقصد الحارثَ ممتدحًا بقصيدته المشهورة التي أولها: [الطويل]

طَحَـا بِـكَ قَلْـبٌ فِي الحِسَـانِ طَـرُوبُ بُعَيْـدَ الشَّبَابِ عَصْـرَ حَـانَ مَشِيبُ

فأنشده إياها، حتى بلغ قوله:

إِلَى الحَـارِثِ الوَهَّـابِ أَعْمَلْـتُ نَـاقَتِي لِكَلْكَلِهَـــا وَالقُصْـــرَيَيْنِ وَجِيـــبُ
إِلَيْـكَ أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ كَـانَ وَجِيفُهَـا بِمُشْـــتَبِهَاتٍ هَـــوْلُهُنَّ مَهِيـــبُ
هَــدَانِي إِلَيْــكَ الفَرْقَــدَانِ وَلَاحِــبٌ لَــهُ فَــوْقَ أَصْـوَاءِ المِـتَانَ عُلُـوبُ
بِهَـا جِيَـفُ الحَسْـرَى فَأَمَّـا عِظَامُهَـا فَبِـيضٌ وَأَمَّـا جِلْـدُهَا فَصَـلِيبُ
فَــلَا تَحْــرِمَنِّي نَــائِلًا عَــنْ جَنَابَــةٍ فَـإِنِّي امْـرُؤٌ وَسْـطَ القِبَـابِ غَرِيـبُ
وَفِي كُـلِّ حَـيٍّ قَـدْ خَبَطْـتَ بِنِعْمَـةٍ فَحُـقَّ لِشَـاسٍ مِـن نَـدَاكَ ذَنُـوبُ

فقال الحارث: نعم وأَذْنِبَة، وأطلق له شاسًا أخاه، وجماعةَ أسرى بني تميم، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم.

ومن شواهد ذلك أنَّ كلاب بن أمية بن الأسكر خرج هو وأخٌ له إلى الجهاد في زمن عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وأميةُ يومئذ شيخ كبير قد ضعف بصره، فحزن عليهما، وقال في ذلك أشعارًا، منها قوله: [البسيط]

يَــا أُمَّ هَيْــثَمَ مَــاذَا قُلْــتِ أَبْــلَانِي رَيْــبُ المَــنُونِ وَهَــذَانِ الجَدِيــدَانِ

إِمَّـا تَـرَيْ حَجَـرِي قَـدْ رَكَّ جَانِبُـهُ فَقَـدْ يَسُـرُّكِ صُـلْبًا غَيْـرَ كَـذَّانِ
أَو مَـا تَـرَيْنِيَ لَا أَمْضِـي إِلَى سَـفَرٍ إِلَّا مَعِـي وَاحِـدٌ مِـنْكُمْ أَوِ اثْنَـانِ
وَلَسْتُ أَهْـدِي بِـلَادًا كُنْـتُ أَسْكُنُهَا قَدْ كُنْتُ أَهْدِي بِهَا نَفْسِي وَصُحْبَانِي
يَـا ابْـنَيْ أُمَيَّـةَ إِنِّي عَنْكُمَـا غَـانِي وَمَـا الغِـنَى غَيْـرَ أَنِّي مُـرْعَشٌ فَـانِي
يَـا ابْـنَيْ أُمَيَّـةَ إِن لَّا تَشْـهَدَا كِـبَرِي فَـإِنَّ نَأْيَكُمَـا وَالثُّكْـلَ مِـثْلَانِ
إِذْ يَحْمِـلُ الفَـرَسُ الأَحْـوَى ثَلَاثَتَنَـا وَإِذْ فِرَاقُكُمَـا وَالمَـوْتُ سِـيَّانِ
أَصْبَحْتُ هُـزْؤًا لِرَاعِي الضَّأْنِ أُعْجِبُهُ مَـاذَا يَرِيبُـكَ مِـنِّي رَاعِـيَ الضَّـانِ
انْعَـقْ بِضَـأْنِكَ فِي نَجْـمٍ تُحَفِّـرُهُ مِـنَ الأَبَـاطِحِ وَاحْبِسْـهَا بِجُمْـدَانِ
إِنْ تَـرْعَ ضَـأْنًا فَـإِنِّي قَـدْ رَعَيْـتُهُمُ بِـيضَ الوُجُـوهِ بَـنِي عَمِّـي وَإِخْـوَانِي

وقال أيضًا: [الوافر]

سَأَسْـتَعْدِي عَلَـى الفَـارُوقِ رَبًّـا لَـهُ عَمَـدَ الحَجِـيجُ عَلَـى اتِّسَـاقِ
وَأَدْعُـو اللهَ مُجْتَهِـدًا عَلَيْـهِ بِـبَطْنِ الأَخْشَـبَيْنِ إِلَى دُفَـاقِ
إِنِ الفَـارُوقُ لَمْ يَـرْدُدْ كِلَابًـا عَلَـى شَـيْخَيْنِ هَامُهُمَـا زَوَاقِـي

فبكى عمر بكاء شديدًا، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص بالكوفة يأمره بإقفال كلاب بن أمية إلى المدينة، فلما دخل عليه قال له: ما بلغ من برِّك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلُب له لبنًا أغزرَ ناقةٍ في إبله وأسمنَها فأُريحُها وأتركُها حتى تستقر، ثم أغسلُ أخلافها حتى تبرد، ثم أحلُبُ له فأسقيه.

فبعث عمر إلى أمية فجاء يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ فقال: كما ترى يا أمير المؤمنين. قال: فهل لك من حاجة؟ قال: نعم أشتهي أن أرى كلابًا فأَشَمَّهُ شَمَّةً وأَضُمَّهُ ضَمَّةً قبل أن أموت، فبكى عمر وقال: ستبلغ في هذا ما تحب إن شاء الله، ثم أمر كلابًا أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث إليه بلبنها. ففعل فناوله عمر الإناء وقال: دونك هذا يا أبا كلاب. فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال: لَعَمْرُ الله يا أمير المؤمنين إني لَأَشَمُّ رائحةَ يدي كلاب من هذا الإناء.

فقال له عمر: هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به. فوثب إلى ابنه فضَمَّه إليه وقبَّله. وجعل عمر يبكي ومن حضره وقال لكلاب: الزم أبويك، فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنَك بنفسك بعدهما.

ومن شواهده أن أبا تمام الطائي شفع للواثق بالله هارون عند أبيه المعتصم في أن يُوَلِّيَه العهد، فقال قصيدته التي مطلعها: [الكامل]

الحَــقُّ أَبلَــجُ وَالسُّــيُوفُ عَــوارِ فَحَــذارِ مِــنْ أَسَــدِ العَــرِينِ حَــذَارِ

وفيها يقول:

فَاشْــــدُدْ بِهَـــارُونَ الخِلَافَـــةَ إِنَّــــهُ سَــــكَنٌ لِوَحْشَــــتِهَا وَدَارُ قَــــرَارِ
بِفَــتًى بَــنِي العَبَّــاسِ وَالقَمَــرِ الَّــذِي حَفَّتْــــهُ أَنْجُـــــمُ يَعـــرُبٍ وَنِـــزَارِ
كَـــرَمُ العُمُومَـــةِ وَالخُؤُولَـــةِ مَجَّـــهُ سَـــلَفَا قُـــرَيشٍ فِيـــهِ وَالأَنْصَـــارِ
هُـــوَ نَـــوْءُ يُمْـــنٍ فِـــيهِمُ وَسَـــعَادَةٍ وَسِـــرَاجُ لَيْـــلٍ فِـــيهِمُ وَنَهَـــارِ
فَـــاقْمَعْ شَـــيَاطِينَ النِّفَـــاقِ بِمُهْتَـــدٍ تَرْضَـــى البَرِيَّـــةُ هَدْيَـــهُ وَالبَـــارِي
لِيَسِـــيرَ فِي الآفَـــاقِ سِـــيرَةَ رَأْفَـــةٍ وَّيَسُوسَـــــهَا بِسَـــــكِينَةٍ وَّوَقَـــــارِ
فَالصِّـــــينُ مَنْظُـــــومٌ بِأَنْـــــدَلُسٍ إِلَى حِيطَـــانِ رُومِيَـــةٍ فَمُلْـــكِ ذِمَـــارِ
وَلَقَـــدْ عَلِمْـــتُ بِـــأَنَّ ذَلِـــكَ مِعْصَـــمٌ مَـــا كُنْـــتَ تَتْرُكُـــهُ بِغَـــيْرِ سِـــوَارِ
فَـــالأَرْضُ دَارٌ أَقْفَـــرَتْ مَـــا لَمْ يَكُـــنْ مِـــنْ هَاشِـــمٍ رَبٌّ لِتِلْـــكَ الـــدَّارِ
سُـــوَرُ القُـــرَانِ الغُـــرُّ فِـــيكُمْ أُنزِلَـــتْ وَلَكُـــمْ تُصَـــاغُ مَحَاسِـــنُ الأَشْـــعَارِ

واستعطف أبو تمام أيضا مالكَ بنَ طوقٍ التغلبيَّ لقومه بني تغلب وكانوا أفسدوا في الطرق، فخافوه واستشفعوا بأبي تمام فقال في قصيدة مشهورة يخاطب بها مالكًا: [الكامل]

وَرَأَيْــتَ قَوْمَــكَ وَالإِسَــاءَةُ مِــنْهُمُ جَرْحَـــى بِظُفْـــرٍ لِلزَّمَـــانِ وَنَـــابِ
هُـــمْ صَـــيَّرُوا تِلْـــكَ البُـــرُوقَ صَـــوَاعِقًا فِـــيهِمْ وَذَاكَ العَفْـــوَ سَـــوْطَ عَـــذَابِ
فَأَقِـــلْ أُسَـــامَةُ جُرْمَهَـــا وَاصْـــفَحْ لَهَـــا عَنْـــهُ وَهَـــبْ مَـــا كَـــانَ لِلوَهَّـــابِ
رَفَـــدُوكَ فِي يَـــوْمِ الكُـــلَابِ وَشَـــقَّقُوا فِيـــهِ المَـــزَادَ بِجَحْفَـــلٍ غَـــلَّابِ

وَهُــمُ بِعَــيْنِ أُبَــاغَ رَاشُــوا لِلْــوَغَى   سَــهْمَيْكَ عِنْــدَ الحَــارِثِ الحَــرَّابِ
وَلَيَــالِيَ الحَشَّــاكِ وَالثَرْثَــارِ قَــدْ   جَلَبُــوا الجِيَــادَ لَوَاحِــقَ الأَقْــرَابِ
فَمَضَــتْ كُهُــولُهُمُ وَدَبَّــرَ أَمْــرَهُمْ   أَحْــدَاثُهُمْ تَــدْبِيرَ غَــيْرِ صَــوَابِ
لَا رِقَّــةُ الحَضَــرِ اللَّطِيــفِ غَــذَتْهُمُ   وَتَبَاعَــدُوا عَــنْ فِطْنَــةِ الأَعْــرَابِ
فَــإِذَا كَشَــفْتَهُمُ وَجَــدتَّ لَــدَيْهِمُ   كَــرَمَ النُفُــوسِ وَقِلَّــةَ الآدَابِ
أَسْــبِلْ عَلَــيْهِمْ سِــتْرَ عَفْــوِكَ مُفْضِــلًا   وَانْفَــحْ لَهُــمْ مِــن نَائِــلٍ بِــذِنَابِ
لَــكَ فِي رَسُــولِ اللهِ أَعْظَــمُ أُسْــوَةٍ   وَأَجَلُّهَــا فِي سُــنَّةٍ وَكِتَــابِ
أَعْطَــى المــُؤَلَّفَةَ القُلُــوبِ رِضَــاهُمُ   كَرَمًــا وَرَدَّ أَخَائِــذَ الأَحْــزَابِ

فذكر أصحاب الأخبار أن هذه القصيدة وقعت من مالك أجل موقع فأجزل ثوابه عليها، وقَبِلَ شفاعته، وردَّ القومَ إلى رتبتهم ومنزلتهم، من بعد اليأس المستحكم، والعداوة الشديدة.

ومن ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي لما ولّى تميم بن زيد القينيَّ السِّند، دخل البصرة فجعل يخرج من أهلها من شاء، فجاءت عجوز إلى الفرزدق تسأله أن يشفع في ابنها قالت: إن تميم بن زيد خرج بابن لي معه ولا قرَّة لعيني ولا كاسب لي غيره، فقال لها: وما اسم ابنك؟ فقالت: خُنَيس، فكتب إلى تميم بن زيد مع بعض مَن شَخَص إليه: [الطويل]

تَمِــيمُ بْــنَ زَيْــدٍ لَا تَكُــونَنَّ حَــاجَتِي   بِظَهْــرٍ فَــلَا يَعْيَــا عَلَــيَّ جَوَابُهَــا
وَهَــبْ لِي خُنَيْسِــا وَاحْتَسِــبْ فِيــهِ مِنَّــةً   لِعَبْــرَةِ أُمٍّ مَّــا يَسُــوغُ شَــرَابُهَا
وَقَــدْ عَلِــمَ الأَقْــوَامُ أَنَّــكَ مَاجِــدٌ   وَلَيْــثٌ إِذَا مَــا الحَــرْبُ شَــبَّ شِــهَابُهَا

فلما ورد الكتاب على تميم، تشكّك في الاسم فقال: أحبيش؟ أم خنيس؟ ثم قال: انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا؟ فأصيب ستة ما بين حبيش وخنيس فوجّه بهم إليه.

١٥- الأدب يستنجز ما تأخر من صِلات الكرام ويستخلص الوعود المنتهية بالحرمان.

من ذلك أن بعض الشعراء قصد معنَ بن زائدة فوعده معنٌ واشتغل عنه، فنفِدت نفقة الشاعر، وضاق لذلك صدره، وعزم على الانصراف عن بابه، فكتب إليه أبياتًا يقول فيها:

[الوافر]

بِــــأَيِّ الخَلَّتَـــــيْنِ عَلَيْـــكَ أُثْـــني ... فَـــإِنِّي عِنْـــدَ مُنْصَـــرَفِي مَسُـــولُ
أَبِالحُسْـــنَى وَلَـــيْسَ لَهَـــا ضِـــيَاءٌ ... عَلَـــيَّ فَمَـــنْ يُصَـــدِّقُ مَـــا أَقُـــولُ
أَمِ الأُخْـــرَى وَلَسْـــتَ لَهَـــا بِأَهْـــلٍ ... وَأَنْـــتَ لِكُـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ فَعُـــولُ

فلما قرأ ذلك معنٌ دعا به فاعتذر إليه وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ووقع لدعبل مع بعض أمراء الرَّقَّة نظير هذا، فمثَل بين يديه وقال: أصلح الله الأمير، إني لا أقول كما قال صاحب معن وذكر الأبيات الثلاثة المتقدمة قال: ولكني أقول:

مَـــاذَا أَقُـــولُ إِذَا أَتَيْـــتُ مَعَاشِـــرِي ... صِـــفْرًا يَـــدَايَ مِـــنَ الجَـــوَادِ المُـــجْزِلِ
إِنْ قُلْـــتُ أَعْطَـــانِي كَـــذَبْتُ وَإِنْ أَقُـــلْ ... ضَـــنَّ الأَمِـــيرُ بِمَالِـــهِ لَمْ يَجْمُـــلِ
وَلَأَنْـــتَ أَعْلَـــمُ بِالمَـــكَارِمِ وَالعُـــلَا ... مِـــنْ أَنْ أَقُـــولَ فَعَلْـــتَ مَـــا لَمْ تَفْعَـــلِ
فَـــاخْتَرْ لِنَفْسِـــكَ مَـــا أَقُـــولُ فَـــإِنَّنِي ... لَا بُـــدَّ مُخْـــبِرُهُمْ وَإِن لَمْ أُسْـــأَلِ

فقال له الأمير: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ونظير ذلك ما حصل لأبي العتاهية فإنه مدح عمرو بن العلاء فتأخر عنه برُّه وكان عمرو ينتظر مالًا يجيء إليه من بعض أعماله فأبطأ عليه فكتب إليه أبو العتاهية هذه الأبيات:

يَـا ابْـنَ العَـلَاءِ وَيَـا ابْـنَ القَـرْمِ مِـرْدَاسِ ... إِنِّي مَـدَحْتُكَ فِي صَـحْبِي وَجُلَّاسِـي
أُثْـــنِي عَلَيْـــكَ وَلِي حَـــالٌ تُكَـــذِّبُنِي ... فِي مَـا أَقُـولُ فَأَسْـتَحْيِي مِـنَ النَّـاسِ
حَـتَّى إِذَا قِيـلَ مَـا أَوْلَاكَ مِـنْ صَـفَدٍ ... طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي

فقال عمرو لصاحب بيت ماله: كم عندك؟ قال: سبعون ألفًا، قال: ادفعها له، واعذِرني عنده، ولا تدخله علي؛ فإني أستحيي منه.

ومن ذلك أن بشار بن بُرْد وَرَدَ على خالد البرمكي وهو بفارس فامتدحه فوعده خالد ومَطَلَه، فوقف بشار على طريقه وهو يريد المسجد فأخذ بلجام بغلته وأنشده:

أَظَلَّــتْ عَلَيْنَــا مِنْــكَ يَوْمًــا سَــحَابَةٌ ... أَضَــاءَتْ لَنَــا بَرْقًــا وَأَبْطَــا رَشَاشُــهَا

فَــلَا غَيْمُهَــا يُجْلَــى فَيَيْــأَسَ طَــامِعٌ ... وَلَا غَيْثُهَــا يَــأْتِي فَيُــرْوَى عِطَاشُــهَا

فحبس بغلته، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: لن تنصرف السحابة حتى تَبُلَّكَ إن شاء الله.

المجلس السادس

في هذا المجلس:

السادسَ عشر: الأدب فيه ترويح القلوب وإِجْمَام النفوس:

- كان ابن عباس إذا أفاض في القرآن والسنة قال لمن عنده: أَحْمِضُوا بنا.
- كان الزُّهْرِي يقول لأصحابه: هاتوا من أشعاركم.
- قال مالك بن دِينَار: الحكايات تُحَف أهل الجنة.

وَرَوِّحِ القَلْبَ بِذِكْرِ الطُّرَفِ ... فَإِنَّ ذَلِكَ صَنِيعُ السَّلَفِ

ملحقان:

١- باب في المزاح:

- من مزاح النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- من مزاح الصحابة -رضي الله عنهم-.

كانوا يضحكون والإيمان في قلوبهم كالجبال الرَّواسي.

- خبر قول عِكْرِمَة: اضرب ظِلَّه ثمانين.
- من مزاح الشَّعْبِي.
- من نَوادِر أمير الفُكَاهَة ورائد الدُّعَابَة أبي دُلَامَة.

٢- باب في أخبار الحمقى والمُغَفَّلِين:

- ما فائدة رِوَايَة أخبارهم؟
- من أخبار أَشْعَب.
- خبر أَزْهَرَ والبُرْج الذي بناه في ارتفاع ألف خُطْوَة وعَرْضِ خُطْوَة واحدة.
- نصيحة نَحْوِيٍّ لمُحْتَضِر.

لَوْ قِيلَ كَمْ خَمْسٌ وَّخَمْسٌ لَّاغْتَدَى ... يَوْمًا وَّلَيْلَتَهُ يَعُدُّ وَيَحْسُبُ

وَيَقُولُ مُعْضِلَةٌ عَجِيبٌ أَمْرُهَا ... وَلَئِن فَهِمْتُ لَهَا لَأَمْرِيَ أَعْجَبُ

خَمْسٌ وَّخَمْسٌ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ... قَوْلَانِ قَالَهُمَا الخَلِيلُ وَثَعْلَبُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فَكُنَّا قد أخذنا شيئًا من الثمرات التي يَجْتَنِيها طالبُ علم الأدب، ونختِم بهذه الثمرة وهي

١٦- أن في الأدب ترويحًا للقلب وإجمامًا للنفس، وقد كان ابن عباس -رضي الله عنهما- إذا أفاض في القرآن والسُنَن قال لِمَن عنده: أَحْمِضُوا بنا -أي خُوضُوا في الأشعار والأخبار التي تُرَوِّح النفس-.

وقال عليٌّ -رضي الله عنه-: أجِمُّوا هذه القلوب، وابتَغوا لها طرائف الحِكْمَة؛ فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان.

وكان الزُهْرِيُّ يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم؛ فإنَّ الأُذُنَ مَجَّاجَة، وإنَّ النفس حَمِضَة. وقد حَدَّث حَمَّادُ بنُ زَيدٍ مرةً بأحاديث، ثم قال: خُذُوا في أَبْزَارِ الجنة. قالوا: فَحَدَّثَنَا بالحِكَايات. أي خذوا في الحكايات التي تكون للعلم النافع المُوْصِل إلى الجنة كَالأَبْزَارِ في الطعام تُطَيِّبُه وتُشَهِّيه وتُشَوِّق النفس إليه.

وقال مَالِك بنُ دِينَار: الحكايات تُحَفُ أهل الجنة.

وقال الحافظ العِراقيُّ في أَلْفِيَّة الحديث: [الرجز]

وَاسْتُحْسِنَ الإِنشَادُ فِي الأَوَاخِرِ ... بَعْـدَ الحِكَايَـاتِ مَـعَ النَّـوَادِرِ

وقال الناظم: [الرجز]

وَرَوِّحِ القَلْـبَ بِـذِكْرِ الطُّـرَفِ ... فَـإِنَّ ذَلِـكَ صَـنِيعُ السَّـلَفِ

وفي هذا المعنى يقول أبو الفَتْح البُسْتِي: [الطويل]

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بِالجِدِّ رَاحَةً ... يَّجِـمَّ وَعَلِّلْـهُ بِشَـيءٍ مِّـنَ المَـزْحِ

وَلَكِـنْ إِذَا أَعْطَيْتَـهُ المَـزحَ فَلْيَكُـنْ ... بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ المِلْحِ

وبهذا تـمَّ الكلام على دواعي العناية بالأدب، ولا بأس أن يُلْحَقَ بهما الكلام عن بابين من الأبواب الأَصِيلَة في علم الأدب:

الأول: في مِزاح الأشراف.

والثاني: في أخبار الحمقى والـمُغَفَّلين.

مِزاح الأشراف له شواهد كثيرة.

- كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يُمازِح أصحابه، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قالوا: يا رسولَ اللَّهِ! إنَّكَ تُدَاعِبُنا. قالَ: «نعم، غيرَ أني لا أقولُ إلَّا حقًّا». وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لِأَنَس: «يا ذا الأُذُنَين» قال الرَّاوي: يعني يُمَازِحه. وقال أنس ﷺ: إنْ كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لَيُخَالِطُنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عُمَير، ما فعل النُغَير؟».

وجاءه رجلٌ اسْتَحْمَلَه فقال -صلى الله عليه وسلم-: «إني حاملُك على وَلَدِ الناقة» فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟».

وأتى النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يومًا رجلًا من أصحابه اسمه زَاهِر وكان -صلى الله عليه وسلم- يُحِبُّه وكان رجلًا دميمًا فأتاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يبيع متاعه، فَاحْتَضَنَه مِن خلفه وهو لا يُبصِره، فقال: مَن هذا؟ أَرْسِلْنِي. فَالْتَفَتَ فعرف النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فجعَل لا يَأْلُو ما أَلصَقَ ظَهرَه بصَدرِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- حينَ عرَفه، فجعَل النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يقولُ: «مَن يشتري العبدَ؟» فقال: يا رسولَ اللهِ، إذًا تَجِدُني كَاسِدًا. فقال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «لَكِنَّك عندَ اللهِ لَسْتَ بكاسِد» أو قال: «أنت عندَ اللهِ غالٍ».

وأتت عجوزٌ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يُدْخِلَني الجنة فقال -صلى الله عليه وسلم-: «يا أمَّ فلان، إنَّ الجنة لا يدخلُها عجوز» فَوَلَّتْ

تبكي، فقال -صلى الله عليه وسلم-: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: {إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾}».

- وقال الذهبي -في تذكرة الحفاظ- في ترجمة أبي هريرة رضي الله عنه: وَلِيَ إِمْرَة المدينة وكان يَمُرُّ في السوق يَحْمِل الحُزْمَة وهو يقول: أوسعوا الطريق للأمير. وكان فيه دُعَابَة رضي الله عنه.

- ومن أولئك ضِرَارُ بنُ الخطاب رضي الله عنه كان صاحب مِزَاح قال البدوي في عَمُود النسب: [الرجز]

... ضِـــرَارٌ ذُو الـــدَّدِ مُـزَوِّجُ الحُـورِ مِـنَ اهْـلِ أُحُـدِ

يشير إلى قصة وهي أنَّ الأَوْسَ والخَزْرَجَ اختلفوا فِيمَن كان أشجع يوم أُحُد، فَمَرَّ بهم ضِرَارُ ابنُ الخطاب وكان يوم أحد في صف المشركين ثم أسلم بعد ذلك رضي الله عنه وحسن إسلامه فقالوا: هذا شهدها وهو عالم بها. فبعثوا إليه فتى منهم فسأله عن ذلك، فقال: لا أدري ما أَوْسُكُم مِن خَزْرَجِكُم، ولكنِّي زَوَّجْتُ يومَ أُحُدٍ منكم أَحَدَ عشر رجلًا من الحور العين.

وقال يومًا لأبي بكر -رضي الله عنهما- : نحن كُنَّا لقريش خيرًا منكم، أدخلناهم الجنة، وأَوْرَدتُمُوهم النار.

- وعن بَكْر بن عبد الله أنه قال: كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يَتَبَادَحُون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال. وهو في صحيح الأدب المفرد.

- وعن بلال بن سعد أنه قال: أَدْرَكتُهم يَشْتَدُّون بين الأغراض، ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رُهْبَانًا.

- وسئل إبراهيم النَّخَعِي: هل كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم كالجبال الرَّوَاسي.

- وقال رجلٌ لِعِكْرِمَة: فُلَانٌ قَذَفَنِي في النوم. قال: اضرب ظِلَّه ثمانين.

- ولقي رجلٌ مُغَفَّلٌ الشَّعْبيَّ ومعه امرأته تمشي، فقال: أيكما الشَّعْبِي؟ قال: هذه.

- وسأله آخر: هل يجوز للمُحْرِمِ أن يَحُكَّ بَدَنه؟ قال: نعم. قال: إلى كم؟ قال: إلى أن يبدو العظم.

وأتاه رجل فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عُرْسٌ ما شهدته.

- والأعمش كان له ولد مُغَفَّل، فقال له: اشتر لي حبلًا طوله كذا، فذهب ثم رجع فقال: في عَرْضِ كم؟ قال: في عَرْضِ مُصِيبَتي فيك.

- وابن أبي عَتِيق -وهو عبدالله بن أبي عَتِيق محمدِ بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق- كان صاحب مِزاح ودُعَابَة، مَرَّ به رجلٌ مرة ومعه كلب، فقال للرجل: ما اسمك؟ قال: وَثَّاب. قال: فما اسم كلبك؟ قال: عَمْرو. قال: واخِلَافاه!

- والأخفش كتب إلى صديق له يَسْتَعير منه دابةً، وكلمة دابة لا تقع في الشعر لأنها تجمع بين ساكنين وأراد أن يدخلها في شعره، فقال: [المتقارب]

أَرَدتُ الرُّكُـــوبَ إِلَـــى حَاجَـــةٍ فَجُــدْ لِـي بِفَاعِلَـةٍ مِّـن دَبَبْـتُ

فأجابه صاحبه وكان ظريفًا: [المتقارب]

بُرَيْذِينُنَـــا يَـــا أَخِـــي غَامِـــزٌ فَكُنْ أَنتَ لِي فَاعِلًا مِّنْ عَذَرْتُ

- ولا بأس أن يُذْكَر هنا اسْتِطْرَادًا شيء مِن نوادر أبي دُلَامَة أَمِيرِ الفُكَاهَة ورَائِدِ الدُّعَابَة، الذي امتلأَتْ كُتُبُ الأدب من نَوَادِرِهِ وأخباره وطَرَائِفِه، وتَعَلَّقَ به الخلفاء والوُلَاة لجَوْدَة شعره وحُسْنِ أدبه وكَثْرَة مُلَحِه.

من أخباره: أنَّ المَهْدِيَّ كان في مجلسه، فدخل أبو دُلَامَةَ وكان في المجلس جماعة من بني هاشم من الوُجَهَاء والكُبَراء والأَعْيَان، فلما دخل أبو دُلَامة قال المهدي: أقسم بالله لَإِن لم تَهْجُ واحدًا من هؤلاء الذين في المجلس لأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ، فكلَّما مَرَّ نظرُه إلى رجل غَمَزَه بِعَينه -أي لا تَهْجُني وأُعْطِيكَ ما يُرْضِيك- وكلهم من الوُجَهَاء والكُبَراء. قال: فنظرتُ إلى أمير المؤمنين فَعَلِمْتُ أنها عَزْمَةٌ من عَزَمَاتِه.

فَهَدَتْهُ حِيلَتُه إلى أن يَهْجُوَ نفسه؛ لأنه واحد من أهل المجلس، فقال: [الوافر]

أَلَا أَبْلِـغْ لَـدَيكَ أَبَـا دُلَامَـةْ فَلَسْـتَ مِـنَ الكِـرَامِ وَلَا كَرَامَـةْ
جَمَعْتَ دَمَامَةً وَّجَمَعْتَ لُؤْمًا كَـذَاكَ اللُّـؤْمُ تَتْبَعُـهُ الدَّمَامَـةْ

فضحك القوم وعجبوا من حُسْنِ تَخَلُّصِه من الموقف، وما بقي منهم أحد إلا وَصَلَه وأهدى إليه.

ومن لطائفه: أنَّ المهدي خرج يومًا مع علي بنِ سليمان إلى الصَّيد، فَرَمَى المهديُّ سهمه فأصاب ظَبْيًا، ورمى علي بنُ سليمان سهمًا فأصاب كَلْبًا، فضحك المهدي وقال: يا أبا دُلَامَة احكم وحُكْمُك نافذ، فقال أبو دُلَامَة على البَدِيهَة: [مجزوء الرمل]

قَـدْ رَمَـى المَهْـدِيُّ ظَبْـيًا شَـكَّ بِالسَّهْـمِ فُـؤَادَهْ
وَعَلَـيُّ بـنُ سُـلَيْمَا نَ رَمَـى كَلْبًـا فَصَـادَهْ
فَهَنِيئًـا لَّهُمَـا كُـلْ لُ امْـرِئٍ يَّـأْكُل زَادَهْ

يعني أن الخليفة يأكل من الظبي وعلي يأكل من الكلب، فضحك المهدي حتى كاد يسقط من سرجه وقال: صدق أبو دلامة. وأمر له بجائزة سنيَّة، فافتدى علي بن سليمان نفسه من ذلك الحكم بمالٍ كثير.

ومما يُستطرف ويُستظرف ويُتَعَجَّب منه مِن أخباره:

أن المهدي غَضِبَ عليه يومًا فحلف بالله لَيَخْرُجَنَّ في بَعْثِ حَرْب، فخرج مع رَوْحِ بنِ حاتم المُهَلَّبي لقتال الشُّرَاةِ وهم الخوارج، ولما التقى الجَمْعَان بَرَزَ رجل من الخوارج يريد المُبَارَزَة، فأمره رَوْحٌ أن يَخْرُج، فقال أبو دُلَامَة: نَشَدتُك بالله لا تَفْعَل. قال رَوح: والله لَتَفْعَلَنّ. قال أبو دُلَامة: هذا والله إذًا أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يومٍ من أيام الدنيا وأنا جائع، فَأْمُر لي بشيء آكله، فأمر له بدجاجةٍ ورغيفين، فلما رآه الخارجيّ بارزًا من الصف أقبل عليه بالسيف فقال له أبو دُلَامَة: مَهْلَكَ، قِفْ. قال: ما لديك؟ قال: أَتَسْتَجِيزُ أن تقتل رجلًا على دينك؟ قال: لا. قال: فلمَ تريد قتلي وأنا على دينك؟ فقال الرجل: اذهب.

فقال: لا والله لا أفعل حتى تسمعَني. قال: قُل. قال: هل بيني وبينك تِرَة؟ قال: لا. قال: فهل بيني أهلي وبين أهلك عداوة؟ قال: لا. قال: فوالله لا أنصرف حتى تأكل معي من طعامي، فيعلم هؤلاء جميعًا هَوَانَهم علينا وأنَّا على وِفَاق –وهذا الكلام كله وهُما بين الجيشين والسيوف مشهورة والناس ينظرون إليهما– فاقتربا حتى تداخلت أعناق فرسَيْهما، وجعلا يأكلان معًا.

ورَوْحٌ وأصحابه يكادون يسقطون من الضحك لما يرون من صنيع أبي دُلَامَة.

فلما فرغا رجع الخارجي إلى جيشه ورجع أبو دُلَامَة إلى رَوح وهو يقول: قد كفيتك قِرْني، فَقُلْ لغيري يَكْفِيك قِرنَه.

ومن عجيب احتياله في طلب المال: أنه كان يدّعي أنه رأى الرؤيا ويطلب بها المال، مرَّ يومًا على تَمَّارٍ في الكوفة فقال له: [المتقارب]

رَأَيتُـكَ أَطْعَمْتَنِـي فِـي المَنَـامِ   قَوَاصِــرَ مِــن تَمْــرِكَ البَارِحَــهْ
فَــأُمُّ العِيَــالِ وصِبْيَانُهَــا   إِلَـى البَـابِ أَعْيُنُهُـمْ طَامِحَـهْ

فأعطاه شيئًا من التمر.

وأطرف من هذا أنه دخل على الخليفة أبي جَعْفَر المَنصُور وقال له: [مجزوء الكامل]

إِنِّــي رَأَيْتُــكَ فِــي المَنَــا   مِ وَأَنــتَ تُعْطِينِــي خِيَــارَهْ
مَمْلُــوءَةً بِدَرَاهِــمٍ   وَّعَلَيــكَ تَأْوِيــلُ العِبَــارَهْ

فضحك المنصور وقال: هات خِيَارة لِأملأها لك دراهم. فمضى إلى السوق وأتى بِدُبَّاءَةٍ عظيمة، فقال له أبو جعفر: ما هذا؟ فقال: ما رأيت في المنام إلا دُبَّاءَة ولكني نسيت فلما رأيت الدُّبَّاءَة في السوق تذكرت.

– **والمُلْحَق الآخر هو في أخبار الحمقى والمغفلين** وقد ذكر ابن الجَوْزِي في كتابه (أخبار الحَمْقَى والمُغَفَّلِين) ثلاثَ فوائد لرواية أخبارهم وطرائفهم.

الأولى: أن العاقل إذا سمع أخبارهم عرف قدر نعمة العقل التي وهبه الله إياها، فحمد الله وشكره.

والثانية: أن ذِكْرَ هذه الأخبار يُنبِّه الإنسان إلى ما قد يَغْفُل عنه.

والثالثة: أن في رواية أخبارهم ترويحًا عن النفس لما فيها من الظَّرْف واللُّطْف، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–كما في صحيح مسلم: «يا حنظلة ساعةً وساعة».

– من أولئك: أَشْعَب، وكان مولىً لآل عثمان بن عفان، حَدَّثَ عن نفسه قال: نشأتُ أنا وأبو الزِّنَاد في حَجْر عائشة بنت عثمان، فلم يَزَلْ يعلو وأسفل حتى بلغ كلٌّ منَّا المنزلة التي ترى.

وكان صاحب سَند، يروي حديث النبي –صلى الله عليه وسلم–: « لو دُعِيتُ إلى ذِرَاع أو كُرَاع لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِراعٌ أو كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ ».

وهو مَضْرِب مثل في الطَّمَع، لما قدم بغداد في أيام المهدي تلَّقاه الناس لأنه كان ذا إسناد، قالوا حَدِّثنا، قال: حَدَّثَني سالم بن عبد الله بن عمر –وكان يبغضني في الله– قال: خَصْلَتَان لا تجتمعان في مؤمن. وسكت، قالوا: ما هما؟ قال: نسي سالم إحداهما ونسيت أنا الأخرى.

ومرَّ أشعب مرة في طريق فعبث به الصبيان، فقال: ويحكم! سالم يقسم تمرًا. فَمَرُّوا يَعْدُون فعدا أشعب معهم وقال: ما يدريني لعله حق.

وقيل لأشعب: ما بلغ من طَمَعِك، قال: ما رأيت اثنين يَتَسَارَّان إلا ظننتهما يأمران لي بشيء.

وقد وقف مرةً على امرأة تصنع طَوقًا من خُوص، فقال: زِيدِيهِ طوقًا أو طَوْقَين، فقالت: أتريد أن تشتريَه؟ قال: لا، ولكن عسى أن يشتريَه إنسان فيُهدِي إليَّ فيه شيئًا، فيكون كبيرًا خيرٌ مِن أن يكون صغيرًا.

وقال رجلٌ يومًا لأشعب: إن سالم بن عبد الله بن عمر قد مضى إلى بُسْتَان كذا ومعه طعامٌ كثير، فبَادَرَ حتى لَحِقَه، فأغلق الباب في وجهه، فتَسَوَّر عليه، فقال سالم: ويحك! بناتي. فناداه أشعب: لقد علمتَ ما لنا في بناتك مِن حَقٍ، وإنك لتعلم ما نريد. فأمر سالم له بالطعام.

وذُكِر عنه أن توضأ مرةً فترك رجله اليمنى وغسل اليسرى، فقيل له: لـمَ تركت غسل اليمنى؟ قال: لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «أُمَّتي غُرٌ مُحَجَّلُون من أثر الوضوء» وأنا أُحِبُّ أن أكون أغرَّ محجلًا ثلاثًا، مُطْلَقَ اليمنى –وهو وصف محمود في الخيل–.

– ومن أولئك أَزْهَر، وكان يُجالس الأمير عمرو بن الليث فقدم يومًا رسولٌ من السلطان، فقال الأمير لأَزْهَر: جَمِّلْنَا بسكوتك اليوم –وكان كثير الكلام– فسكت طويلًا ثم لم يصبر فقال: بَنَيتُ في القرية بُرْجًا ارتفاعه ألفُ خطوة. فَأَوْمَأ إليه حاجب الأمير أن اسكت. فقال له الرسول: في عرض كم؟ قال: في عرض خطوة واحدة. فقال له الرسول: ما كان ارتفاعه ألفَ خطوة لا يكفي عرضَه خطوة! قال: أردت أن أزيد فمنعني هذا الواقف.

ودخل نَحْويٌ على رجلٍ يَجُود بنفسه، فقال: يا فلان، قل: لا إله إلا اللهُ، وإن شئت فقل: لا إله إلا اللهَ، والأُولى أَحَبُّ إلى سِيبَوَيه.

ودخل آخر يعزي قومًا فقال: آجَرَكم الله، وإن شئتم: أَجَرَكم الله، كلاهما سَماعيٌّ من الفَرَّاء.

وقيل لـجُحَا –وقد مات أبوه–: ألا تذهب فتشتري الكَفَن؟ قال: أخاف أن أشتغل بشراء الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

وقيل له يومًا: ما أحسنَ القمر. قال: إي والله خاصةً في الليل.

- ومن الطرائف: طرائفُ المُسْتَمْلِينَ -وهم المُبَلِّغونَ عن الشيوخ- قال مرةً مُحَدِّثٌ: حَدَّثنا بهذا الحديث عِدَّة. فقال المُسْتَمْلِي: عِدَّةُ ابنُ مَن؟ قال: ابن فَقَدتُك!

وقد قيل في كاتب: [الطويل]

أَقُولُ لَهُ بَكْرًا فَيَسْمَعُ خَالِدًا ... وَّيَكْتُبُهُ زَيْدًا وَيَقْرَؤُهُ عَمْرَا

وقيل: [الطويل]

يَعِي غيرَ ما قُلْنَا وَيَكْتُبُ غَيْرَ مَا ... وَعَاهُ وَيَقْرَا غَيْرَ مَا هُوَ كَاتِبُ!

وقد ذَكَر شيئًا من طرائفهم السَّخَاوِيُّ في فتح المُغِيث، ثم أورد هذين البيتين.

وأراد رجلٌ أن يكسر لَوْزَة فزلقت عن الحجر، فقال سبحان الله! كل شيء يفر من الموت حتى البهائم!

وفي مِثْل هؤلاء يقول الشاعر: [الكامل]

لَوْ قِيلَ كَمْ خَمْسٌ وَّخَمْسٌ لَّاغْتَدَى ... يَوْمًا وَلَيْلَتَهُ يَعُدُّ وَيَحْسُبُ[1]

وَيَقُولُ: مُعْضِلَةٌ عَجِيبٌ أَمْرُهَا ... وَلَئِن فَهِمْتُ لَهَا لَأَمْرِيَ أَعْجَبُ

خَمْسٌ وَّخَمْسٌ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ... قَوْلَانِ قَالَهُمَا الخَلِيلُ وَثَعْلَبُ

فهذه طائفة متنوعة من الأخبار والحكايات فيها لغةٌ سليمة، ونادرة لطيفة، وحكاية بديعة، فيها الغَنَاء عما قد يتحدث به بعض الناس مما يكون فيه السوء والأخلاق الرديئة. والحمد لله رب العالمين.

انتهى المجلس.

(١) التي بمعنى: يَعُد، بضم السين. والتي بمعنى: يظن، فيها وجهان الفتح والكسر.

مجالس في أدب العرب

القسم الثاني

أدب العلماء والفقهاء

وفيه أربعة مجالس

المجلس السابع

في هذا المجلس:

- **شعر العلماء**

* هل شعر العلماء ضعيف؟

* الفجوة بين الفقه والأدب.

* المدونة لسحنون -وقد طبعت في اثني عشر جزءًا- ليس فيها من الشعر إلا بيت واحد!

* الشعر أربعة أضرب.

- **من شعر العلماء:**

*سعيد بن المسيب.

*عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود.

*من أخبار من طلَّق زوجته فندم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فسبق أن المقصود من هذه المجالس أمران:

الأول: التعرف على منزلة الأدب وأهميتِه.

والثاني: أن تُعرَض نوادرُه وجواهرُه وروائعُه؛ لأنها إذا عُرِضَت في المَعرِض الحسن أَوْشَكَت أن تنجذب إليها القلوب وأن تَهْوِيَ إليها الأفئدة.

وكنا قد أخذنا أن الطريق إلى تحقيق هذا المقصود ثلاثة أشياء:

الأول: ما الدواعي إلى العناية بالأدب؟ وما الثمرات التي يَجْتَنِيها مُتعَلِّم الأدب؟

وهذا هو الذي فرغنا منه في المجالس السابقة.

والثاني: هو التعرف على أدب العلماء والفقهاء، وعَرْضُ شيء من شعرهم وما تجيش به نفوسهم سواء كان العالم من المكثرين من الشعر أم المقلين منه، وهذا أوان الشروع فيه.

والثالث: عصور الأدب، وسيأتي إن شاء الله.

ذكر ابن خَلْدُون أنه أخبره أبو القاسم بن رضوان -وكان كاتبًا في الدولة المَرِينِيَّة- أنه أنشد صاحبه أبا العباس أحمد بن شعيب الجزنائي -وكان كاتب السلطان ومُقدَّمًا في البصر باللسان- أنشده قصيدة لابن النَّحْويّ ولم يُسَمِّه له، مطلعها: [الكامل]

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالأَطْلَالِ   مَا الفَرْقُ بَينَ جَدِيدِهَا وَالبَالِي

قال: فقال لي على البَدِيهَة: هذا شعر فقيه. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟

قال: من قوله "ما الفرق" إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب.

فقلت له: لله أبوك! إنه ابن النَّحْويّ.

وقد أخذ من هذا بعضهم أن شعر الفقهاء رَدِيء ضعيف، وشاع هذا حتى إنك ترى في بعض التراجِم: وكان شِعرُه شِعرَ فقيه. وهذي العبارة تساوي عندهم عبارة: كان شعره شعرًا رَدِيئًا.

والمقصود هنا بيان عدم صحة هذا التعميم، وأنه يمكن للفقيه أن يكون شاعرًا كبيرًا تسير بشعره الرُّكْبَان ويتحدَّث بشعره الخَافِقَان، وسنرى -إن شاء الله- كثيرًا من الصلة الحَمِيمَة بين الفقهاء والشعر والأدب.

نعم كانت هنالك فَجْوَة بين بعض الفقهاء والأدب حتى إن مُدَوَّنَة سَحْنُون -التي طُبِعَت في اثني عشر جزءًا وطُبِعت في أقل من ذلك- ليس فيها من الشعر إلا بيت واحد وهو قول حسّان -رضي الله عنه-: [الوافر]

وَهَـانَ عَلَـى سَـرَاةِ بَنِـي لُـؤَيٍّ   حَرِيــقٌ بِالبُوَيْــرَةِ مُسْتَطِيــرُ

ولله در ابن النحويّ صاحب المُنفَرِجَة إذ يقول: [البسيط]

أَصْبَحْـتُ فِيمَـن لَّهُـمْ دِينٌ بِلَا أَدَبٍ   وَّمَـن لَّـهُمْ أَدَبٌ عَـارٍ عَـنِ الـدِّينِ
أَصْبَحْتُ فِيهِم غَرِيبَ الشَّكْلِ مُنفَرِدًا   كَبَيْتِ حَسَّانَ فِي دِيوَانِ سَحْنُونِ

وقال الشيخ محمد سالم بن عبد الودود في نظم عمدة الفقه: [الرجز]

مُعْتَـذِرًا مِّمَّــا يَجُـسُّ النُّبَـهَا   مِـنَ البُـرُودَةِ لِنَظْـمِ الفُقَهَــا

وهذا تواضع من الشيخ وإلا فقد كان عالي الكعب في الشعر.

ومن شواهد هذا: قوله في رثاء سَمِيِّه العلامة محمد سالم ولد أَلُمَّا: [الخفيف]

أَكْسَبَ الرُّزْءُ ذَا البَلَاغَةِ عِيًّا ... أَفْحَمَ اللَّوْذَعِيَّ وَالأَلْمَعِيَّا
أَنَا مِن نَّعْيِ شَيْخِنَا ابْنِ أَلُمَّا ... لَمْ أَزَلْ أَحْسِبُ الغِنَاءَ نَعِيًّا
لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرِضَ الشِّعْـ ... ـرَ وَقَدْ كُنتُ بِالقَرِيضِ مَلِيًّا
مَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي شَيخِ صِدْقٍ ... أُوتِيَ الحُكْمَ وَالكِتَابَ صَبِيًّا
عَاشَ فِي طَاعَةٍ ثَمَانِينَ حَوْلًا ... يَعْبُدُ اللهَ بُكْرَةً وَّعَشِيًّا
يَنظُرُ الغَافِلُونَ مَا هُوَ فِيهِ ... فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا وَّبُكِيًّا
يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا كَانَ شَيخًا ... عَالِمًا عَامِلًا تَقِيًّا نَّقِيًّا
زَاهِدًا عَابِدًا صَؤُومًا قَؤُومًا ... عَارِفًا كَامِلًا وَّلِيًّا زَكِيًّا
نَحْنُ أَدْرَى بِهِ فَكَانَ عَلَى ذَ ... لِكَ صُلْبَ القَنَاةِ جَلْدًا قَوِيًّا
سَيِّدًا أَيِّدًا مُّطَاعًا مَّهِيبًا ... هَيِّنًا لَّيِّنًا كَرِيمًا حَيِيًّا
طَاهِرَ القَلْبِ ظَاهِرَ البِشْرِ سَهْلَ الـ ... خُلْقِ حُلْوَ الجِوَارِ عَذْبًا شَهِيًّا
طَائِرَ الصِّيتِ عَالِيَ القَدْرِ جَزْلَ الرْ ... رَأْيِ ثَبْتَ الجَنَانِ شَهْمًا ذَكِيًّا
مَا خَلَا مِن وَّصْفٍ بِهِ يُحْمَدُ النَّا ... سُ بَلَى لَمْ يَكُن رَسُولًا نَّبِيًّا

وقبل بيان ذلك بعرض شيء من شعر العلماء، ينبغي أن نعرف مسألتين:

المسألة الأولى: الشَّاعِرِيَّة صفة، والفِقْهِيَّة صفة، والصفات لا تتزاحم، بمعنى أن الجوهر يقبل أن يتصف بأكثر من عرَض، فالشَّاعِرِيَّة والفِقْهِيَّة ليس بينهما تناقض ولا تضاد، كما أن ما في الإناء يمكن أن يكون أحمر ويمكن أن يكون حلوًا ويمكن أن يكون حارًّا وقد تجتمع هذه الثلاثة، فالشاي مثلًا يكون أحمرَ وحلوًا وحارًّا، فلا مانع لا في العقل ولا في النقل من اجتماعهما، فقد يكون شاعرًا فقيهًا، وقد يكون شاعرًا غير فقيه، وقد يكون فقيهًا غير شاعر، وقد يعدم الوصفان، فليس بين الشاعرية والفقهية علاقة تلازم بمعنى أن وجود أحدِهما

يستلزم وجود الآخر، ولا تضاد بمعنى أن وجود أحدهما ينفي وجود الآخر، فهذا ينسف ثلاثة أرباع هذا التعميم، لذا إذا قال فقيهٌ شعرًا وكان شعره رديئًا فليس لأنه فقيه، بل لأنه تعرض لما لا يحسن[1] .

ومن الطريف: أن رجلًا ذهب إلى المازنيّ، فقال له: إني قلت شعرًا وأريد أن أنشدك إياه فتُقَوِّمَنِي. فقال: هات. فأنشده الشعر، فقال المازنيّ: قد أحسنت والله إذ أخرجت هذا البلاء من صدرك، لأنه لو بقي في صدرك لقتلك.

والمسألة الثانية: هي أن الفقهاء من أولى الناس بالبراعة في الشعر؛ لأنهم أول ما يشتغلون يشتغلون بالكتاب والسنة، بالوحي الذي هو أفصحُ الكلام.

وإلى جانب إبطال دعوى أن اشتغال الفقهاء بالفقه يحول بينهم وبين أن يكونوا شعراءَ مبدعين نريد أن نعيش مع أشعارهم وما تجيش به نفوسهم ثم إن معرفةَ أن العلماء أخذوا منه بالنصيب الوافر داعية من دواعي العناية بالأدب.

ويحسن قبل أن نتعرف على شيء من شعر الفقهاء أن نعرف أن الشعر أربعةُ أضرب، كما ذكر ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، ذكر أنه تَدبَّر الشعر فوجده أربعة أَضْرُب:

الضَّرْب الأول: ضَرْبٌ حَسُن لفظُه وجاد معناه، كقول الشاعر: -يُنسَب إلى الفَرَزْدَق في زين العابدين ويُنسب إلى غيره-: [البسيط]

فِـي كَفِّـهِ خَيْـزُرَانٌ رِيْحُـهُ عَبِـقٌ ... مِّن كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَـمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَّيُغْضَى مِن مَّهَابَتِهِ ... فَمَـا يُكَلَّـمُ إِلَّا حِيـنَ يَبْتَسِـمُ

قال: إنه لم يقل في الهيبة شيءٌ أحسن منه، وكقول النَّابِغَة: [الطويل]

كِلِينِي لِهَمٍّ يَـا أُمَيمَةَ نَـاصِبِ ... وَلَيلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَواكِبِ

قال: إنه لم يبتدئ أحدٌ من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب.

وكقول أَوْس بن حَجَر: [المنسرح]

---

[1] كتاب أدب الفقهاء لعبدالله كنون وبرنامج فقهاء أدباء لعادل باناعمة.

أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ أَجْمِلِـي جَزَعَـا　　　إِنَّ الَّـذِي تَحْذَرِيـنَ قَـدْ وَقَعَـا

قال: إنه لم يبتدئ أحدٌ مرثيَةً بأحسن من هذا.

والضرب الثاني: ضربٌ حَسُن لفظه وحلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل -وينسب إلى كُثيِّر-: [الطويل]

وَلَمَّـا قَضَيْنَـا مِـن مِّنًـى كُـلَّ حَاجَـةٍ　　　وَّمَسَّـحَ بِالأَرْكَـانِ مَـنْ هُـوَ مَاسِـحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا　　　وَلَا يَنْظُـرُ الغَـادِي الَّـذِي هُـوَ رَائِـحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا　　　وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

فهذه الألفاظ أحسنُ شيء مخارجَ ومطالعَ ومقاطعَ، لكن إذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء التي أهزلتها الأسفار، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المَطيُّ في الأبطح.

والضرب الثالث: ما جاد معناه وقَصُرَت ألفاظه، كقول لَبِيد: [الكامل]

مَـا عَاتَـبَ الـمَرْءَ الكَرِيـمَ كَنَفْسِـهِ　　　وَالـمَرْءُ يُصْـلِحُهُ الـجَلِيسُ الصَّـالِحُ

فهذا وإن كان جيد المعنى والسَّبْك فإنه قليل الماء والرَّوْنَق في اللفظ.

والضرب الرابع: ما تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأة: [الهزج]

وَفُوهَـــــا كَأَقَـــــاحِيٍّ　　　غَـــــذَاهُ دَائِـــــمُ الهَطْـــــلِ

كَمَـــا شِـــيبَ بِـــرَاحٍ بَـــا　　　رِدٍ مِـــنْ عَسَـــلِ النَّحْـــلِ

وكقول الخليل بن أحمد العروضي: [المجتث]

إِنَّ الخَلِـــــيطَ تَصَـــــدَّعْ　　　فَطِـــرْ بِـــدَائِكَ أَوْ قَـــعْ

لَـــوْلَا جَـــوَارٍ حِسَـــانٌ　　　حُـــورُ المَـــدَامِعِ أَرْبَـــعْ

أُمُّ البَنِـــــينَ وَأَسْمَـــــا　　　ءُ وَالرَّبَـــــابُ وَبَـــــوْزَعْ

لَقُلْـــتُ لِلرَّاحِـــلِ ارْحَـــلْ　　　إِذَا بَـــدَا لَـــكَ أَوْ دَعْ

- من أولئك الفقهاء الأدباء: سعيد بن المُسَيِّب؛ سمع مرةً منشدًا ينشد: [الطويل]

تَضَوَّعَ مِسْكًا بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ   بِـهِ زَيْنَـبٌ فِـي نِسْـوَةٍ خَفِـرَاتِ
يُخَبِّئْـنَ أَطْـرَافَ البَنَـانِ مِـنَ التُّـقَى   وَيَـخْرُجْنَ جُنْحَ اللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتِ

فقال سعيد: هذا والله مما يَلَذُّ سماعه. ثم قال:

وَلَيْسَتْ كَأُخْرَى وَسَّعَتْ جَيْبَ دِرْعِهَا   وَأَبْدَتْ بَنَانَ الكَفِّ فِي الجَمَرَاتِ
وَقَامَـتْ تَـرَاءَى بَيـنَ جَمْـعٍ فَأَفْتَنَـتْ   بِرُؤْيَتِهَـا مَـن رَاحَ مِـنْ عَرَفَـاتِ

فكانوا يَرَوْنَ أن هذا الشعر له، قاله ارتجالًا.

وفي طبقات فحول الشعراء أنه لما ورد عليهم هِجَاء جريرٍ والتَّيْمِيِّ قال سعيد بن المسيب لعبد الرحمن بن حرملة: أنشِدني شيئًا مما قالاه. قال: فأنشدته للتيمي وهو يقول: هيه هيه – يعني زد– قال: ثم أنشدته لجرير. فقال: أَكَلَه أَكَلَه.

ولما قيل له: إن قومًا بالعراق يَعِيبُون إنشاد الشعر قال: نَسَكوا نُسُكًا أعجميًا.

– ومن أولئك: عُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود –عبدُالله بن مسعود عمُّ أبيه–، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم علم المدينة.

يقول الزُّهْري: سمعتُ من العلم شيئًا كثيرًا فظننتُ أني اكتفيت، حتى لقيتُ عُبيدَالله فإذا كأني ليس في يدي منه شيء.

ومِن شعره قوله وقد طلق امرأته ثم ندم: [الطويل]

كَتَمْتَ الهَوَى حَتَّى أَضَرَّ بِكَ الكَتْمُ   وَلَامَـكَ أَقْـوَامٌ وَلَـوْمُهُمُ ظُلْـمُ
وَنَـمَّ عَلَيْـكَ الكَاشِحُـونَ وَقَبْلَهُـمْ   عَلَيْكَ الهَوَى قَدْ نَـمَّ لَوْ نَفَعَ النَمُّ
وَزَادَكَ إِغْـرَاءً بِـهَا طُـولُ هَجْرِهَـا   قَدِيمًا وَأَبْلَى لَحْـمَ أَعْظُمِـكَ الـهَمُّ
أَلَا مَـنْ لِنَفْـسٍ لَا تَمُـوتُ فَيَنْقَضِـي   عَنَاهَـا وَلَا تَحْيَـا حَيَـاةً لَهَـا طَعْـمُ
تَجَنَّبْـتَ إِتْيَـانَ الحَبِيـبِ تَأَثُّـمًا   أَلَا إِنَّ هِجْـرَانَ الحَبِيبِ هُوَ الإِثْـمُ
فَـذُقْ هَجْرَهَـا قَـدْ كُنـتَ تَـزْعُمُ أَنَّـهُ   رَشَـادٌ أَلَا يَـا رُبَّمَـا كَـذَبَ الزَّعْـمُ

كان يقول طلقها وتستريح، فما وجد بعد طلاقها إلا الهم والندم، وله: [الطويل]

فَلَوْ أَكَلَتْ مِن نَّبْتِ دَمْعِي بَهِيْمَةٌ   لَّهَيَّجَ مِنْهَا رَحْمَةً حِينَ تَأْكُلُهْ
وَلَوْ كُنتُ فِي غُلٍّ فَبُحْتُ بِلَوْعَتِي   إِلَيْهِ لَلَانَتْ لِي وَرَقَّتْ سَلَاسِلُهْ
وَلَمَّا عَصَانِي القَلْبُ أَظْهَرْتُ عَوْلَةً   وَّقُلْتُ أَلَا قَلْبٌ بِقَلْبِي أُبَادِلُهْ؟

وله أيضًا: [الوافر]

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي   فَبَادِيهِ مَعَ الخَافِي يَسِيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ   وَّلَا حُزْنٌ وَّلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ
أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ العَهْدَ مِنْهَا   أَطِيرُ لَوَ انَّ إِنسَانًا يَطِيرُ
شَقَقْتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فِيهِ   هَوَاكِ فَلِيمَ وَالْتَأَمَ الفُطُورُ

ومما يُنسب إليه: [الطويل]

أُحِبُّكِ حُبًّا لَّا يُحِبُّكِ مِثْلَهُ   قَرِيبٌ وَّلَا فِي العَالَمِينَ بَعِيدُ
أُحِبُّكِ حُبًّا لَّوْ عَلِمْتِ بِبَعْضِهِ   لَجُدْتِ وَلَمْ يَصْعُبْ عَلَيكِ شَدِيدُ
وَحُبُّكِ يَا أُمَّ العَلَاءِ مُدَلِّهِي   شَهِيدِي أَبُو بَكْرٍ فَذَاكَ شَهِيدُ
وَيَعْلَمُ وَجْدِي القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ   وَّعُرْوَةُ مَا أَلْقَى بِكُمْ وَسَعِيدُ
وَيَعْلَمُ مَا أُخْفِي سُلَيْمَانُ كُلَّهُ   وَخَارِجَةٌ يُّبْدِي لَنَا وَيُعِيدُ

وهؤلاء الستة من فقهاء المدينة وهو سابعهم

مَتَى تَسْأَلِي عَمَّا أَقُولُ فَتُخْبَرِي   فَلِلْحُبِّ عِنْدِي طَارِفٌ وَّتَلِيدُ

يُحكى أنه لقيه بعد هذا سعيد بن المُسيِّب فقال له: لو سألْتَنَا ما شهدنا لك بزور.

والشيء بالشيء يُذْكَر: ممن طلق امرأته فتبِعَتْها نفسه قَيسُ بن الذُّرَيْح، وكان أبوه قد أمره بطلاقها فطلقها وكاد أن يذهب عقله بعد طلاقها، وندم على ذلك أشد الندم، وقال في ذلك: [الوافر]

فَوَا كَبِدِي عَلَى تَسْرِيحِ لُبْنَى   فَكَانَ فِرَاقُ لُبْنَى كَالخِدَاعِ
تَكَنَّفَنِي الوُشَاةُ فَأَزْعَجُونِي   فَيَا لَلنَّاسِ لِلْوَاشِي المُطَاعِ

فَأَصْـبَحْتُ الغَـدَاةَ أَلُـومُ نَفْسِـي   عَلَـى أَمْـرٍ وَّلَيْـسَ بِمُسْتَطَـاعِ
كَمَغْبُـونٍ يَّعَـضُّ عَلَـى يَدَيْـهِ   تَبَـيَّنَ غَبْنُـهُ بَعْـدَ البِيَـاعِ

– وممن طلق زوجته فندم الفرزدق، وكان من حديثه أن ابنة عمه النَّوَارَ خطبها رجل فرضِيَتْ به، ولم يكن أحدٌ أقربَ إليها من أوليائها من الفرزدق، فسألَتْه أن يُزوِّجَها إياه، فقال: حتى تُشهِدي الناس أنكِ قد جعلْتِ أمركِ إليَّ. فلما أشهدتِ الناس على ذلك قام في الناس وقال: أشهدكم أني زوجتُها نفسي، فنفَرَتْ من ذلك وناكرته، وكان عبدالله بن الزبير – رضي الله عنهما– يومئذ يدعى له بالخلافة وكان في مكة فحملها حَيٌّ من العرب إليه، فقال في ذلك الفرزدق: [الطويل]

وَإِنَّ امْرَأً يَّسْعَى يُخَبِّبُ زَوجَتِي   كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَرَى يَسْتَبِيلُهَا
وَمِـنْ دُونِ أَبْـوَالِ الأُسُـودِ بَسَـالَةٌ   وَّأَيْـدٍ طِـوَالٌ يَّمْنَـعُ الضَّيْـمَ طُولُـهَا

ولم يُدرك الفرزدقُ النَّوارَ حتى قدِمَتْ مكة، فنزلَتْ على زوجة عبدالله بن الزبير واسمها تُمَاضِر بنتُ مَنظُورِ بن زَبَّان، ونزل هو على حمزة بن عبدالله بن الزبير، ومدحه بشعر، لكن كان يرى أنَّ كلَّ ما أصلح حمزةُ من أمر عبدالله بن الزبير في النهار أفسدته تماضر في الليل، فقال في ذلك: [البسيط]

أَمَّـا البَنُـونَ فَلَـمْ تُقْبَـلْ شَـفَاعَتُهُمْ   وَشُـفِّعَتْ بِنْـتُ مَنْظُـورِ بـنِ زَبَّانَـا
لَـيْسَ الشَّـفِيعُ الَّـذِي يَأْتِيـكَ مُـؤْتَزِرًا   مِّثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

فبلغ ذلك عبدالله بن الزبير فأَحْفَظَه ودعا النَّوَار، وقال: إن شِئْتِ فرَّقْتُ بينكما وبعثتُ به إلى ثَغْر من ثغور المسلمين وأرحت المسلمين من شرّ لسانه، وإلا فهو ابن عمك وهو فيك راغب فأزوجه إياك قالت: نعم. ثم إن الفرزدق تزوج عليها وهجاها وآذاها، فلم تزل تسأله طلاقها حتى أجابها إلى ذلك، وطلبت منه أن يشهد الحسن البصري. فذهب وأشهد الحسن البصري، وقال: أشهدك أن النَّوَار طالقٌ ثلاثًا. فقال الحسن: قد شهدنا.

فلما انصرف ندم على ما فعل، فقال له صاحبه: والله إني أرى أنَّ ندمك سيَتَرَقْرَق؛ أتدري من أشهدت؟ أشهدتَ الحسن البصري! والله لإن رجعت لتُرجمنَّ بأحجارك. فقال الفرزدق في هذا: [الوافر]

نَــدِمْتُ نَدَامَــةَ الكُسَــعِيِّ لَمَّــا غَــدَتْ مِنِّــي مُطَلَّقَــةً نَّــوَارُ
وَكَـانَتْ جَنَّتِـي فَخَرَجْـتُ مِنْهَـا كَـآدَمَ حِيـنَ أَخْرَجَـهُ الضِّـرَارُ
فَكُنْــتُ كَفَــاقِئٍ عَيْنَيْــهِ عَمْــدًا فَأَصْبَـحَ لَا يُضِـيءُ لَـهُ نَـهَارُ

والكُسَعِي رجل من كُسَع، اسمه محاربُ بن قيس، وكان من حديثه أنه كان يرعى إبلًا له بوادٍ كثير العُشب فبَصُر بِنَبْعَةٍ -والنَّبْعَة ضرب من الشجر تُتخذ منه القِسِيّ وتتخذ من أغصانه السهام- فأعجبته وعمل قَوْسًا وقال: [مشطور الرجز]

يَـا رَبِّ وَفِّقْنِـي لِنَحْـتِ قَوْسِـي
فَإِنَّهَــا مِــن لَّذَّتِــي لِنَفْسِــي
وَانْفَـعْ بِقَوْسِي وَلَـدِي وَعِرْسِـي

ثم رأى حُمُرًا فكَمَنَ لها ورمى بسهمهِ -وكان بالليل- فرمى عَيْرًا منها فنفذ فيه السهم وجازه وأصاب جبلًا خلف العَير فأَوْرَى نارًا فظنَّ أنه أخطأ، ثم أخذ سهمًا ثانيًا وفعل مثل ذلك وأنفذ السهمُ العَير وضرب الجبل خلفه، وظن أنه أخطأ وفعل ثالثةً كذلك ورابعةً وخامسة، فلما ظن أنه لم يُصِب عَمَد إلى قوسه فضرب بها حجرًا ثم بات، فلما أصبح نظر فإذا الحُمُر حوله مُصَرَّعَة، وأَسْهُمُه بالدم مُضَرَّجَة، فندم على كسر القوس وعَضَّ على إبهامه فقطعها أسفًا وحسرة، ثم أنشأ يقول: [الوافر]

نَــدِمْتُ نَدَامَــةً لَّــوْ أَنَّ نَفْسِــي تُطَاوِعُنِـي إِذًا لَّقَطَعْـتُ خَـمْسِي
تَبَيَّــنَ لِــي سَــفَاهُ الــرَّأْيِ مِنِّــي لَعَمْـرُ أَبِيـكَ حِيـنَ كَسَـرْتُ قَوْسِـي

وإلى هذه الندامة أشار الفرزدق بقوله: "ندمت ندامة الكسعيّ".

وإلى هاتين القصتين أشار في الشمقمقية بقوله: [الرجز]

وَإِن تَـمَادَيْتَ عَلَـى إِتْعَابِـهَا   وَلَـمْ تَكُـن مُّنْتَهِيًـا عَـن رَهَـقِ
فَسَـوْفَ تَعْـرُوكَ عَلَـى إِتْلَافِهَـا   نَدَامَــةُ الكُسْــعِيِّ وَالفَــرَزْدَقِ

والله تعالى أعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المجلس الثامن

في هذا المجلس:

- **من شعر العلماء**

* عُروَة بن أُذَينَة وخبره مع هشام بن عبدالملك

– شيء من أخبار أبي السَّائِب المَخْزُومي ووَلَعِه بالشعر.

* زَيْن العابدين

* ابن المُبَارك

* الشافعي

* أحمد بن المُعَذَّل

* عبدالوهاب البغدادي

– عَينيَّة ابن زُرَيق التي مَن لم يحفظها لم يَتِمَّ ظَرْفُه.

* ابن عبدالبَّر

* ابن حَزْم

– ذكر بعض العلماء الذين طلبوا العلم كبارًا.

* البَاجِي ومحنته ومحنة وَكِيع.

* الزَّمَخْشَري وشيء من أخباره وأشعاره وردود العلماء عليه شعرًا.

* ابن جُزَيٍّ الكَلْبي.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فمن الفقهاء الأدباء عُروَة بن أُذَينَة، وهو من علماء المدينة ومن شيوخ الإمام مالك، من شعره قوله: [البسيط]

إِذَا وَجَدتُ أُوَارَ الحُبِّ فِي كَبِدِي غَدَوْتُ نَحْوَ سِقَاءِ المَاءِ أَبْتَرِدُ
هَبْنِي بَرَدتُ بِبَرْدِ المَاءِ ظَاهِرَهُ فَمَن لِّنَارٍ عَلَى الأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ

يقال: إنه وقفت عليه امرأة فقالت: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت القائل:

إِذَا وَجَدتُ أُوَارَ الحُبِّ فِي كَبِدِي غَدَوْتُ نَحْوَ سِقَاءِ المَاءِ أَبْتَرِدُ
هَبْنِي بَرَدتُ بِبَرْدِ المَاءِ ظَاهِرَهُ فَمَن لِّنَارٍ عَلَى الأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ

والله ما قال هذا رجل صالح! وفي رواية أنها قالت: والله ما خرج هذا من قلبٍ سليم.

ذكر هذا الخبر ابن عبد ربه في العِقْد الفريد ثم قال: كذبَت عدُوَّة الله ... بل لم يكن مرائيًا ولكنه كان مصدورًا فَنَفَث.

وهو القائل: [البسيط]

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينِي تَطَلُّبُهُ وَلَو قَعَدتُ أَتَانِي لَا يُعَنِّينِي

وكان قد خرج مرة مع أهل العلم والفضل من المدينة إلى الشام، في وفد إلى هشام بن عبدالملك أمير المؤمنين آنذاك، وكان هشام يقضي حاجاتهم، فلما رأى عُروَةَ قال: أنت القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينِي تَطَلُّبُهُ وَلَو قَعَدتُ أَتَانِي لَا يُعَنِّينِي

والله ما أراك إلا كذَّبتَ نفسك! فقال عروة: صدقت يا أمير المؤمنين، لقد أذكرتني ما كنت ناسيًا.

وخرج من فَوْرِهِ وركب راحلته ورجع إلى المدينة، وفي اليوم الثاني سأل هشام بن عبدالملك عنه وقال: أين عروة؟ فقالوا: إنه رجع إلى المدينة. فَلَوَّم نفسه وقال: رجل من قريش وَفَدَ إلي فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذا شاعر لا آمن أن يقول فيّ ما يبقى ذكره.

فوجه إليه رسولًا بألف دينار، وقال: أدركه قبل أن يصل إلى المدينة.
فما أدركه إلا وقد دخل داره في المدينة، فطرق عليه الباب وخرج فقال له:
هذه ألف دينار من الخليفة. فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام، وقل له:
كيف رأيت قولي:

أَسْــعَى لَـــهُ فَيُعَنِّينِـــي تَطَلُّبُـــهُ ... وَلَــو قَعَــدتُ أَتَانِــي لَا يُعَنِّينِــي

ومن جميل شعره قوله: [الكامل]

إِنَّ الَّتِـــي زَعَمَـــتْ فُـــؤَادَكَ مَلَّهَـــا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَّهَا
فَبِـكَ الَّـذِي زَعَمَـتْ بِهَـا وَكِلَاكُمَـا ... يُبْـدِي لِصَـاحِبِهِ الصَّـبَابَةَ كُلَّهَـا
وَيَبِيـتُ بَيـنَ جَوانِحِـي حُـبٌّ لَّـهَا ... لَـوْ كَـانَ تَحْـتَ فِرَاشِهَـا لَأَقَلَّهَـا
وَلَعَمْرُهَــا لَــوْ كَــانَ حُبُّــكَ فَوْقَهَــا ... يَوْمًــا وَّقَــد ضَــحِيَتْ إِذًا لَأَظَلَّهَــا
بَيْضَــاءُ بَاكَرَهَــا النَّعِـيمُ فَصَــاغَهَا ... بِلَبَاقَـــةٍ فَأَدَقَّهَـــا وَأَجَلَّهَـــا
وَإِذَا وَجَــدْتُ لَهَــا وَسَـاوِسَ سَـلْوَةٍ ... شَـفَعَ الفُـؤَادُ إِلَـى الضَّمِيـرِ فَسَلَّهَا
لَــمَّا عَرَضْــتُ مُسَـلِّمًا لِّـيَ حَاجَـةٌ ... أَرْجُــو مَعُونَـتَهَا وَأَخْشَـى ذُلَّهَــا
مَنَعَـتْ تَحِيَّتَهَـا فَقُلْـتُ لِصَاحِبِـي ... مَــا كَــانَ أَكْثَرَهَــا لَنَــا وَأَقَلَّــهَا
فَـــدَنَا وَقَـــالَ: لَعَـــلَّهَا مَعْـــذُورَةٌ ... مِّــنْ أَجْـلِ رِقْبَتِهَـا فَقُلْـتُ: لَعَلَّــهَا

من الطريف أن أبا السَّائِب المَخْزُومي -وكان كثير الطرب، غزير الأدب، وله فكاهات مذكورة، وأخبار مشهورة، وجَدُّه كان شريك النبي -

صلى الله عليه وسلم- وقال فيه: "مرحبًا بأخي وشريكي كان لا يُدَارِي ولا يُمَارِي"- استنشد أبو السائب عروة بن عبيدالله بن عروة بن الزبير هذه الأبيات، وكان عروة بن عبيدالله سمعها من عروة بن أُذَينة؛ جاء أبو السائب إلى عروة بن عبيدالله، فقال عروة: ألك حاجة؟ قال أبو السائب: نعم، أبيات لعروة بن أذينة بلغني أنك سمعتها منه -يريد هذه الأبيات- قال عروة: وأي أبيات؟ قال: وهل يخفى القمر!

فلما أنشده إياها قال أبو السائب: هذا والله الصادق الود، الدائم العهد، لا الهذلي الذي يقول: [الكامل]

إِنْ كَانَ أَهْلُكِ يَمْنَعُونَكِ رَغْبَةً عَنِّـي فَـأَهْلِي بِـي أَضَـنُّ وَأَرْغَـبُ

وأبو السائب المخزومي كان -على شرفه وجلالته وفضله في العلم والدين- مولعًا بالشعر حتى إنه قال: أما والله لو كان الشعر مُحَرَّمًا لوَرَدْنا الرَّحْبَة كل يومٍ مرارًا -والرَّحْبَة: المكان الذي تقام فيه الحدود- وكان قد سهر مرة مع صاحب له وتناشدا شيئًا من الشعر فكان مما أنشده صاحبه قول العَرْجِي: [الكامل]

بَاتَـا بِـأَنعَمِ لَيلَـةٍ حَـتَّى بَـدَا صُـبْحٌ تَلَـوَّحَ كَـالأَغَرِّ الأَشْـقَرِ

فَتَلَازَمَـا عِنـدَ الفِـرَاقِ صَـبَابَةً أَخْذَ الغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوبِ الـمُعسِرِ

فأَعْجَب أبا السائب هذا البيت حتى حلف ألا يتكلم بغير هذا البيت حتى يرجع إلى أهله، فخرج مع صاحبه فتَلَقَّاه عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب فسلم وقال: كيف أنت يا أبا السائب؟ قال:

فَتَلَازَمَـا عِنـدَ الفِـرَاقِ صَـبَابَةً أَخْذَ الغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوبِ الـمُعسِرِ

يقول صاحب أبي السائب: فالتفت إليَّ وقال: متى أنكرت عقل صاحبك؟ قلتُ: منذ الليلة. قال: لله أيُّ كَهْل أُصيبت به قريش. قال: ثم مضينا، فلَقينا قاضي المدينة فسلم وقال: كيف أنت يا أبا السائب؟ قال:

فَتَلَازَمَـا عِنـدَ الفِـرَاقِ صَـبَابَةً أَخْذَ الغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوبِ الـمُعسِرِ

فالتفت إليَّ وقال: متى أنكرت عقل صاحبك؟! قلت: آنفًا. فتركني وانصرف، قلت: أفتدعه هكذا؟ والله ما آمن أن يَتَرَدَّى في بعض آبار العقيق!

قال القاضي: صدقت. فوضع القيد في رجله ونزل القاضي عن بغلته – وكان سمينًا لا يستطيع أن يتحرك– وأمر غلامه أن يحمله عليه ويلحقه بأهله، وأبو السائب ينشد البيت ويحرك يديه، فحُمِل أبو السائب على البغلة إلى أهله وهو على هذه الحال.

– ومن الفقهاء العلماء الشعراء زين العابدين علي بن الحسين، يقول الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابًّا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: [البسيط]

يَا مَن يُّجِيبُ دُعَا الـمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ
قَـدْ نَـامَ وَفْـدُكَ حَـولَ البَيـتِ وَانتَبَهُـوا وَأَنـتَ يَـا حَـيُّ يَـا قَيُّـومُ لَـمْ تَنَـمِ
أَدْعُــوكَ رَبِّــي حَزِيــنًا هَائِــمًا قَلِــقًا فَـارْحَمْ بُكَائِي إِلَـهَ البَيـتِ وَالحَـرَمِ
إِن كَــانَ جُــودُكَ لَا يَرْجُــوهُ ذُو سَــفَهٍ فَمَـن يَّجُودُ عَلَى العَاصِينَ بِالكَرَمِ

ثم بكى بكاءً شديدًا، وأنشد يقول: [الطويل]

أَلَا أَيُّهَا المَقْصُودُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ إِلَيكَ شَكَوتُ الضُّرَّ فَارْحَمْ شِكَايَتِي
أَلَا يَا رَجَائِي أَنتَ كَاشِفُ كُرْبَتِي فَهَب لِي ذُنُوبِيَ كُلَّهَا وَاقْضِ حَاجَتِي
أَتَيــتُ بِأَعْمَــالٍ قِبَــاحٍ رَدِيَّــةٍ وَّمَا فِي الـوَرَى عَبدٌ جَنَى كَجِنَايَتِي

أَتُحْرِقُنِـي بِالنَّـارِ يَـا غَايَـةَ المُنَـى   فَأَيْـنَ رَجَائِـي ثُـمَّ أَيْـنَ مَخَافَتِـي

- ومن الفقهاء الشعراء: ابن المبارك، وخبر الأبيات التي كتبها إلى الفضيل بن عياض مشهور، فإنه كتب له وهو في الثغر: [الكامل]

يَـا عَابِـدَ الحَرَمَيـنِ لَـوْ أَبصَرْتَنَـا   لَعَلِمْـتَ أَنَّـكَ فِـي العِبَـادَةِ تَلْعَـبُ
مَن كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ   فَنُحُورُنَـا بِدِمَائِنَـا تَتَخَضَّـبُ
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِـي بَاطِـلٍ   فَخُيُولُنَـا يَـومَ الصَّـبِيْحَةِ تَتْعَـبُ
رِيْحُ العَبِيْرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا   رَهَـجُ السَّـنَابِكِ وَالغُبَـارُ الأَطْيَـبُ
وَلَقَـد أَتَانَـا مِـن مَّقَـالِ نَبِيِّنَـا   قَـوْلٌ صَـحِيحٌ صَـادِقٌ لَّا يَكْـذِبُ
لَا يَسْتَوِي وَغُبَـارُ خَيْـلِ اللهِ فِـي   أَنْـفِ امْـرِئٍ وَّدُخَـانُ نَـارٍ تَلْهَـبُ
هَـذَا كِتَـابُ اللهِ يَنطِـقُ بَيْنَنَـا   لَـيسَ الشَّهِيـدُ بِميِّـتٍ لَّا يَكْـذِبُ

فلما قرأ الفضيل بن عياض الكتاب ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبدالرحمن، ونصحني.

ومن الشعر الذي كان يتمثل به فيما قيل: [الرمل]

وَإِذَا صَـاحَبْتَ فَاصْـحَب مَاجِـدًا   ذَا حَيَـاءٍ وَّعَفَـافٍ وَّكَـرَمْ
قَوْلُـهُ لِلشَّـيْءِ لَا إِن قُلْـتَ لَا   وَإِذَا قُلْـتَ نَعَـمْ قَـالَ نَعَـمْ

وهو القائل: [البسيط]

اللهُ يَـدْفَعُ بِالسُّـلْطَانِ مُعْضِـلَةً   فِـي دِينِنَـا رَحْمَـةً مِّنـهُ وَدُنيَانَـا
لَـوْلَا الأَئِمَّـةُ لَـمْ تَأْمَـن لَّنَـا سُبُـلٌ   وَّكَـانَ أَضْعَفُـنَا نَهبًـا لِّأَقْـوَانَا

قيل: إن الخليفة هارون الرشيد أعجبه هذا، فلما بلغه أن ابن المبارك مات قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ائذن للناس يعزونا في ابن المبارك؛ أليس هو القائل:

اللهُ يَـــدْفَعُ بِالسُّـــلْطَانِ مُعْضِـــلَةً فِـي دِينِنَـا رَحْمَـةً مِّنـهُ وَدُنْيَانـا

فمَن الذي يسمع هذا من ابن المبارك ولا يعرف حقنا!

وكان هارون الرشيد من الخلفاء الصالحين وقد قال فيه الشاعر: [الوافر]

فَمَـــن يَّطْلُـــبْ لِقَـــاءَكَ أَوْ يُـــرِدْهُ فَبِالحَرَمَيْـــنِ أَوْ أَقْصَـــى الثُّغُـــورِ

فَفِـــي أَرْضِ العَـــدُوِّ عَلَـــى طِمِـــرٍّ وَفِـــي أَرْضِ التَّرَفُّـــهِ فَـــوْقَ كُـــورِ

- ومن أولئك -وهو غني عن الذكر- الإمام الشافعي -رحمه الله- ومن شعره قوله: [الطويل]

إِذَا شِئْتَ أَن تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى وَدِينُـــكَ مَوْفُـــورٌ وَّعِرْضُـــكَ صَيِّـــنُ

لِسَـانَكَ لَا تَـذْكُرْ بِـهِ عَـوْرَةَ امْـرِئٍ فَكُلُّـــكَ عَـــوْرَاتٌ وَّلِلنَّـــاسِ أَلْسُـــنُ

وَعَيْنُـكَ إِنْ أَبْـدَتْ إِلَيْـكَ مَعَايِـبًا فَصُنْهَا وَقُـلْ يَـا عَيـنُ لِلنَّـاسِ أَعْيُـنُ

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَّسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى وَفَـارِقْ وَلَكِـن بِالَّتِـي هِـيَ أَحْسَـنُ

ومن الأخبار الطريفة ما حكاه أبو القاسم بن الأزرق قال: دخلت على الشافعي -رحمه الله- فقلت: يا أبا عبدالله، ما تنصفنا، لك هذا الفقه تفوز بفوائده، ولنا هذا الشعر، وقد جئت تداخلنا فيه، فإمّا أفردتنا بالشعر، أو أشركْتَنا في الفقه، وقد جئتُ بأبيات إن أجزتَهَا بمثلها تبتُ من الشعر، وإن عجزتَ عنها تبتَ، فقال لي: إيه يا هذا، فأنشدته: [الكامل]

مَـــا هِمَّـــتِي إِلَّا مُقَارَعَـــةُ العِـــدَى خَلِـــقَ الزَّمَـــانُ وَهِمَّـــتِي لَمْ تَخْلَـــقِ

وَالنَّـــاسُ أَعْيُـــنُهُمْ إِلَى سَـــلَبِ الفَـــتَى لَا يَسْـــأَلُونَ عَـــنِ الحِجَـــا وَالأَوْلَـــقِ

لَكِـــنَّ مَـــنْ رُزِقَ الحِجَـــا حُـــرِمَ الغِـــنَى ضِـــــدَّانِ مُفْتَرِقَـــــانِ أَيَّ تَفَـــــرُّقِ

لَـــوْ كَـــانَ بِالحِيَـــلِ الغِـــنَى، لَوَجَـــدتَّنِي بِنُجُـــومِ أَقْطَـــارِ السَّـــمَاءِ تَعَلُّقِـــي

فقال الشافعي: ألا قلت كما أقول ارتجالًا: [الكامل]

إِنَّ الَّـــذِي رُزِقَ اليَسَـــارَ وَلَمْ يَنَـــلْ حَمْـــدًا وَلَا أَجْـــرًا لَغَيْـــرُ مُوَفَّـــقِ

فَالجَـــدُّ يُـــدْنِي كُـــلَّ أَمْـــرٍ شَاسِـــعٍ وَالجَـــدُّ يَفْـــتَحُ كُـــلَّ بَـــابٍ مُغْلَـــقِ

فَـإِذَا سَمِعْـتَ بِـأَنَّ مَجْـدُودًا حَـوَى   عُـــودًا فَـــأَثْمَرَ فِي يَدَيْـــهِ فَحَقِّـــقِ
وَإِذَا سَمِعْـــتَ بِـــأَنَّ مَحْرُومًـــا أَتَـــى   مَـــاءً لِيَشْـــرَبَهُ فَغَـــصَّ فَصَـــدِّقِ
وَمِـنَ الـدَّلِيلِ عَلَـى القَضَـاءِ وَكَوْنِـهِ   بُـؤْسُ اللَّبِيـبِ وَطِيـبُ عَـيْشِ الأَحْمَـقِ

قال ابن الأزرق: فقلتُ: تالله لا قلت شعرًا بعدها.

– ومن أولئك أحمد بن المُعذَّل، من فقهاء المالكية في العراق كان يسمى الراهب، ويُعدَل بأحمد ابن حنبل، قال بعضهم: رأيته في الموقف وقد ضَحِيَ للشمس! فقلت: يا أبا الفضل، هذا أمر قد اختُلِف فيه فلو أخذت بالتوسعة. فأنشأ يقول: [الطويل]

ضَـحِيتُ لَـهُ كَـيْ أَسْـتَظِلُّ بِظِلِّـهِ   إِذَا الظِّلُّ أَضْحَى فِي القِيَامَةِ قَالِصَا
فَـوَا أَسَـفَى إِن كَـانَ سَـعْيُكَ بَـاطِلًا   وَيَـا حَسْـرَتَا إِن كَـانَ حَجُّـكَ نَاقِصَـا

وقد ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك كثيرًا من شعره.

– ومن أولئك القاضي عبد الوهاب البغدادي، كان فقيهًا أديبًا شاعرًا، قال ابن بسام في الذخيرة: وقد وجدت له شعرًا معانيه أجلى من الصبح، وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح.

وكان قد خرج من بغداد بسبب الفاقة، وشَيَّعه يوم فصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطوائف كثيرة، فقال: لو وجدت بين ظهرانَيكم رغيفين كل غداة وعشي ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية! واجتاز في طريقه بمعرة النعمان قاصدًا مصر، وبالمعرة يومئذ أبو العلاء المعري فأضافه واحتفى به، وفي ذلك يقول المعري من جملة أبيات: [البسيط]

وَالمَالِكِيُّ ابنُ نَصْرٍ زَارَ فِي سَفَرٍ   بِلَادَنَـا فَحَمِـدْنَا النَّـأْيَ وَالسَّـفَرَا
إِذَا تَفَقَّــهَ أَحْيَــا مَالِكًــا جَــدَلًا   وَيَنشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إِنَّ شَعَرَا

ثم في مصر فُتحَت عليه الدنيا فمات من أكلة اشتهاها فأكلها، وقال كلمته المشهورة: لا إله إلا الله لمَّا عشنا متنا! وقد بقي قلبه متعلقًا ببغداد وفيها يقول: [الطويل]

سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادَ مِن كُلِّ مَوْطِنٍ وَحُقَّ لَهَا مِنِّي سَلَامٌ مُضَاعَفُ
فَوَاللهِ مَا فَارَقْتُهَا قَالِيًا لَهَا وَإِنِّي بِشَطَّيْ جَانِبَيهَا لَعَارِفُ
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِأَسْرِهَا وَلَمْ تَكُنِ الأَرْزَاقُ فِيهَا تُسَاعِفُ
وَكَانَتْ كَخِلٍّ كُنتُ أَهْوَى دُنُوَّهُ وَأَخْلَاقُهُ تَنْأَى بِهِ وَتُخَالِفُ

ومن شعره الرائق الفائق قوله: [الوافر]

مَتَى تَصِلُ العِطَاشُ إِلَى ارْتِوَاءٍ إِذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ مِنَ الرَّكَايَا
وَمَن يَثْنِي الأَصَاغِرَ عَن مُرَادٍ وَقَدْ جَلَسَ الأَكَابِرُ فِي الزَّوَايَا
وإِنَّ تَرَفُّعَ الوُضَعَاءِ يَوْمًا عَلَى الرُّفَعَاءِ مِنْ إِحْدَى البَلَايَا
إِذَا اسْتَوَتِ الأَسَافِلُ والأَعَالِي فَقَدْ طَابَت مُنَادَمَةُ المَنَايَا

- وقريب من خبره في الشوق إلى بغداد: خبر ابن زُرَيق، له قصيدة غراء بديعة، قال ابن حزم: يقال: من تَخَتَّم بالعقيق، وقرأ لأبي عَمرو، وتفقه للشافعي، وحفظ قصيدة ابن زُرَيق فقد استكمل الظَّرْف.

كان أبو الحسن علي بن زريق البغدادي قد خرج من بغداد إلى الأندلس ليمدح أبا عبد الرحمن الأندلسي؛ لأنه بلغه أنه يعطي الشعراء، فلما ذهب إليه وألقى قصيدته بين يديه لم يعطه إلا دريهمات يسيرة -قيل: إنه أراد أن يبلوَه ويختبرَه-، فقال ابن زُرَيق: إنا لله وإنا إليه راجعون! سَلَكْت البَراري والبحار، والمَهامِهَ والقفار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء النزر! فانكسرت إليه نفسه واعتلَّ فمات!

وشُغِل عنه الأندلسي أيامًا ثم سأل عنه، فخرجوا يطلبونه فوجدوه قد مات وعند رأسه رقعة مكتوبةٌ فيها هذه الأبيات: [البسيط]

لَا تَعْذُلِيـــهِ فَـــإِنَّ العَـــذْلَ يُولِعُـــهُ   قَـد قَلْـتِ حَقًّـا وَّلَكِـن لَّـيسَ يَسْـمَعُهُ
جَـاوَزْتِ فِـي لَومِـهِ حَـدًّا أَضَـرَّ بِـهِ   مِـنْ حَيْـثُ قَـدَّرْتِ أَنَّ اللَّـومَ يَنفَعُـهُ
فَاسْـتَعْمِلِي الرِّفْـقَ فِـي تَأْنِيبِـهِ بَـدَلًا   مِّن عُنْفِهِ فَهْوَ مُضْنَى القَلْبِ مُوجَعُهُ

إلى أن قال:

أَسْتَودِعُ اللهَ فِـي بَغْـدَادَ لِـي قَمَـرًا   بِـالكَرْخِ مِـن فَلَـكِ الأَزْرَارِ مَطْلِعُـهُ
وَدَّعْتُـــهُ وَبِـــوُدِّي لَـــوْ يُوَدِّعُنِـــي   صَفْـــوُ الحَيَـــاةِ وَأَنِّـــي لَا أُوَدِّعُـــهُ
كَـمْ قَـد تَّشَـفَّعَ بِـي أَلَّا أُفَارِقَـهُ   وَلِلضَّـــرُورَاتِ حَـــالٌ لَا تُشَـــفِّعُهُ
وَكَمْ تَشَبَّثَ بِي يَومَ الرَّحِيلِ ضُحًى   وَأَدْمُعِـــي مُسْـــتَهِلَّاتٌ وَّأَدمُعُـــهُ
لَا أَكْذِبُ اللهَ ثَوبُ الصَّبْرِ مُنْخَرِقٌ   عَنِّـــي بِفُرقَتِـــهِ لَكِـــنْ أُرَقِّعُـــهُ
أُعْطِيتُ مُلْكًا فَلَمْ أُحْسِنْ سِيَاسَتَهُ   وَكُلُّ مَن لَّا يَسُوسُ المُلْكَ يُخلَعُهُ
وَمَـنْ غَـدَا لَابِسًـا ثَـوبَ النَّعِيمِ بِـلَا   شُـــكْرٍ عَلَيْـــهِ فَعَنْـــهُ اللهُ يَنزِعُـــهُ

– ومن أولئك الفقهاء الأدباء: الإمام الحافظ ابن عبد البَرّ، وله كتاب من أحسن كتب الأدب وهو بَهْجَة المَجالس وأُنس المُجالس، وله أشعار كثيرة منها ما قاله في كتاب التمهيد الذي شرح فيه موطأ الإمام مالك – وقد مكث في تأليفه ثلاثين سنة– قال فيه: [الطويل]

سَمِيـرُ فُـؤَادِي مُـذْ ثَلَاثِيـنَ حِجَّـةً   وَّصَـيقَلُ ذِهْنِـي وَالـمُفَرِّجُ عَـنْ هَـمِّي
بَسَـطتُ لَكُـم فِيـهِ كَـلَامَ نَبِـيِّكُمْ   بِمَـا فِـي مَعَانِيـهِ مِـنَ الفِقْـهِ وَالعِلْـمِ
وَفِيـهِ مِـنَ الآدَابِ مَـا يُهْتَـدَى بِـهِ   إِلَـى البِرِّ وَالتَّـقْوَى وَيُنْهَى عَنِ الظُّلْـمِ

– ومن أولئك: ابن حزم، وفي تَرْجَمته أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جِنازةً فدخل المسجد فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قم فصل تحية

المسجد. وكان قد بلغ ستًّا وعشرين سنة. قال: فقمت وركعت، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلت المسجد فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس ليس ذا وقت صلاة. وكان بعد العصر فانصرفتُ وقد حزنت. هذا المشهور أنه كان ابتداء طلبه العلم وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة على خلاف في صحته، وله نظائر فالكسائي الإمام الحجة في القراءات والنحو ابتدأ طلب العلم وهو ابن أربعين سنة، وأبوبكر القَفَّال كان ماهرًا في صناعة الأقفال، ابتدأ طلب العلم وهو ابن ثلاثين سنة حتى صار عالما فقيهًا، والأزهري صاحب التصريح في شرح التوضيح والأزهرية وإعراب الألفية كان وقّادًا بالجامع الأزهر ابتدأ طلب العلم وهو ابن ست وثلاثين سنة، والعلّامة عبد الله القرعاوي ابتدأ طلب العلم وهو ابن ثلاثين سنة، وغيرهم كثير.

ويكفي في هذا الصحابة؛ قال البخاري في صحيحه: وقد تعلم أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في كِبَر سنهم.

وكان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين قاله أبو العباس بن العريف، وقال أبو مروان ابن حَيَّان -فيما نقله الذَّهَبيُّ في السِّيَر-: وأكثر معايبه زعموا -عند المنصف- جهله بسياسة العلم، التي هي أَعْوَص من إتقانه.

ولما أحرقوا كتبه قال: [الطويل]

فَإِن تُحْرِقُوا القِرْطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الَّذِي تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيْرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي وَيَنْـزِلُ إِنْ أَنْـزِلْ وَيُدْفَـنُ فِـي قَبْـرِي
دَعُوْنِـيَ مِـنْ إِحْـرَاقِ رَقٍّ وَّكَاغَـدٍ وَّقُولُوا بِعِلْمٍ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَن يَّدْرِي
وَإِلَّا فَعُـوْدُوا لِلمَكَاتِـبِ بَـدْأَةً فَكَـمْ دُوْنَ مَـا تَرْجُـونَ للهِ مِـنْ سِتْـرِ

وقريب منه قول الشافعي: [البسيط]

عِلْمِـي مَعِـي حَيْثُمَـا يَمَّمْـتُ يَتْبَعُنِـي قَلْبِـــي وِعَــاءٌ لَّـــهُ لَا بَطْـــنُ صُنــدُوقِ
إن كُنتُ فِي البَيْتِ كَانَ العِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنتُ فِي السُّوقِ كَانَ العِلْمُ فِي السُّوقِ

وعلى الضدّ قولُ محمد بن يسير: [المتقارب]

أَمَـا لَـوْ أَعِـي كُـلَّ مَـا أَسْـمَعُ وَأَحْفَـظُ مِـن ذَاكَ مَـا أَجــمَعُ
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَد جَمَعْتُ لَقِيــلَ هُــوَ العَالِــمُ المِصْقَــعُ
وَلَكِـنَّ نَفْسِي إِلَـى كُـلِّ شَيْءٍ مِّـــنَ العِلْـــمِ تَسْـــمَعُهُ تَنــزِعُ
وَأَحْضُـرُ بِالعِـيِّ فِـي مَـجْلِسٍ وَعِلْمِـيَ فِـي الكُتْـبِ مُسْتَـودَعُ
فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَد جَمَعْتُ وَلَا أَنَــا مِـــن جَمْعِــهِ أَشْبَــعُ
وَمَـن يَّـكُ فِـي عِلْمِـهِ هَكَـذَا يَكُــن دَهْــرَهُ القَهْقَــرَى يَرْجِــعُ
إِذَا لَــمْ تَكُــنْ حَافِظًــا وَّاعِيَـا فَجَمْعُـــكَ لِلكُتْـــبِ لَا يَنفَـــعُ

ومن جميل شعر ابن حزم -وله شعر كثير رائق- قوله: [الوافر]

لَئِن أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلًا بِجِسْمِي فَرُوحِـــي عِنـــدَكُمْ أَبَـــدًا مُّقِـــيمُ
وَلَكِــن لِّلعِيَــانِ لَطِيــفُ مَعْنًــى لَــهُ سَــأَلَ المُعايَنَــةَ الكَلِيــمُ

- ومن أولئك الفقهاء الأدباء: الإمام أبو الوليد البَاجِيّ، وهو الذي تصدى لابن حزم وناظره ونقض كثيرًا من حججه، وهو صاحب المنتقى في شرح الموطإ، روى عنه حافظا المشرق والمغرب الخطيب البغدادي وابن عبدالبر من شعر الباجي قوله: [المتقارب]

إِذَا كُنــتُ أَعْلَــمُ عِلْمًــا يَّقِينًــا بِــأَنَّ جَمِيــعَ حَيَاتِــي كَسَاعَــهْ
فَلِــمْ لَا أَكُــونُ ضَنِيــنًا بِهَــا وَأَجْعَــلُهَا فِـي صَـلَاحٍ وَّطَاعَـهْ

وله محنة عجيبة تمالأ الناس عليه بسببها، وذلك أنه ادّعى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- زال عنه وصف الأميّة، استدلالًا بحديث البخاري في صلح الحديبية أنه -صلى الله عليه وسلم- كتب محمد بن عبدالله، فثار عليه

الناس، وأكثر القالة فيه مَن لم يفهم غرضه، حتى أنشد بعض خطبائهم على المنبر يوم الجمعة على رؤوس الناس قول الشاعر فيه: [البسيط]

بَرِئْتُ مِمَّن شَرَى دُنْيَا بِآخِرَةٍ وَّقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ قَد كَتَبَا

وخبره بكماله في ترتيب المدارك.

ومحنة وكيع قريبة من محنته، وهي غريبة؛ تورَّط فيها ولم يرد إلا خيرًا، ولكن فاتته سكتة لَمَّا روى في مكة بين ظهرانَيْ قريش حديث أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد موته تُرِك حتى ربا بطنه وَانثَنَى خِنصِراه، اجتمعت قريش، وأرادوا صلب وكيع، ونصبوا خشبة لصلبه، فجاء سفيان بن عُيَيْنة فقال لهم: اللهَ اللهَ هذا فقيه أهل العراق، وابن فقيهه، وهذا حديث معروف.

قال سفيان: ولم أكن سمعته إلا أني أردت تخليص وكيع.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة وكيع: ما لوكيع ولرواية هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد كادت نفسُه أن تذهب غلطًا.

– ومن أولئك: الزَّمَخْشَريّ جار الله محمود، وكان مُعْتَزِلِيًّا متظاهرًا بالاعتزال، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل: أبو القاسم المعتزلي بالباب.

ويقال: إنه أول ما صنف كتاب الكَشَّاف –ذكر هذا ابن خَلِّكَان في وَفَيَات الأعيان– كتب استفتاح الخطبة: الحمد لله الذي خلق القرآن. على اعتقادهم الضال، يقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا رغب أحد فيه. فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن.

قال ابن خَلِّكَان: رأيت في كثير من النسخ الحمد لله الذي أنزل القرآن وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف.

وقد قال الزمخشري عن كتابه الكشاف: [البسيط]

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنيَا بِلَا عَدَدٍ وَّلَيسَ فِيهَا لَعَمْرِي مِثلُ كَشَّافِي
إِن كُنتَ تَبغِي الهُدَى فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ فَالجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالكَشَّافُ كَالشَّافِي

ومما يُنسب إليه قوله: [الطويل]

وَإِن يَسْأَلُوا عَن مَّذْهَبِي لَمْ أَبُحْ بِهِ وَأَكْتُمُهُ كِتْمَانُهُ لِيَ أَسْلَمُ
فَإِنْ حَنَفِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي أُبِيحُ الطِّلَا وَهْوَ الشَّرَابُ المُحَرَّمُ
وَإِن مَّالِكِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي أُبِيحُ لَهُمْ أَكْلَ الكِلَابِ وَهُمْ هُمُ
وَإِن شَافِعِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي أُبِيحُ نِكَاحَ البِنتِ وَالبِنتُ تَحْرُمُ
وَإِن حَنبَلِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ثَقِيلٌ حُلُولِيٌّ بَغِيضٌ مُّجَسِّمُ
وَإِن قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَحِزْبِهِ يَقُولُونَ تَيسٌ لَّيسَ يَدْرِي وَيَفْهَمُ
تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَمَا أَحَدٌ مِّنْ أَلْسُنِ النَّاسِ يَسْلَمُ
وَأَخَّرَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ مَعْشَرًا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمُ
وَمُذْ أَفْلَحَ الجُهَّالُ أَيقَنتُ أَنَّنِي أَنَا المِيمُ وَالأَيَّامُ أَفْلَحُ أَعْلَمُ

الأفلح: مَشقُوق الشَّفَة السفلى. والأعلم: مشقوق الشفة العليا. وهذا لا يستطيع أن ينطق حرف الميم. وأشار إلى هذا الشيخ حَمَّاد بن ألَمين في نصيحته فقال: [الرجز]

قَولُ الزَّمَخْشَرِي وَمُذْ أَفْلَحَ لَا تَعْدِلْ بِهِ فَهْوَ يُضَاهِي المَثَلَا

ومما يُنسب إلى الزمخشري: [الكامل]

سَهَرِي لِتَنقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لِي مِن وَّصْلِ غَانِيَةٍ وَّطِيبِ عِنَاقِ
وَتَمَايُلِي طَرَبًا لِّحَلِّ عَوِيصَةٍ أَشْهَى وَأَحْلَى مِن مُّدَامَةِ سَاقِ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا أَحَلَى مِنَ الدُّوكَاءِ وَالعُشَّاقِ
وَأَلَذُّ مِن نَّقْرِ الفَتَاةِ لِدُفِّهَا نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي

يَا مَن يُّحَاوِلُ بِالأَمَانِيَ رُتْبَتِي   كَمْ بَيـنَ مُستَفِـلٍ وَّآخَـرَ رَاقِـي
أَأَبِيتُ سَـهْرَانَ الـدُّجَى وَتَبِيتُـهُ   نَـوْمًا وَّتَبْغِي بَعْـدَ ذَاكَ لَحَاقِـي

وقريب منه في المعنى قول محمد بن هارون الدمشقي الفقيه: [الوافر]

لَمَحْبَـرَةٌ تُجَالِسُنِـي نَـهَارِي   أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أُنسِ الصَّدِيقِ
وَرُزْمَةُ كَاغَدٍ فِي البَيتِ عِندِي   أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِدْلِ الدَّقِيقِ

والزمخشري في تفسير قوله تعالى: {وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى} قَرَّرَ نفي رؤية الله -عز وجل- على مذهبه الضال، وذم أهل السنة وإثباتهم لها، ثم قال: والقول ما قال بعض العَدْلِيَّة فيهم -وقد يكون هو صاحب هذين البيتين-: [الكامل]

لَـجَمَاعَةٌ سَـمَّوا هَـوَاهُمْ سُـنَّةً   وَّجَـمَاعَةً حُـمُرٌ لَّعَمْرِيَ مُوكَفَهْ
قَـدْ شَـبَّهُوهُ بِـخَلْقِهِ وَتَـخَوَّفُوا   شُنْعَ الوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالبَلْكَفَهْ

يقصد قولهم بلا كيف، وقد رد عليه جماعة من العلماء منهم ابن الوزير في العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم-، وممن رد عليه القائل: [الكامل]

يَـا عَائِبًـا مِـن جَهْلِـهِ لِلْبَلْكَفَـهْ   هِي قَوْلُكُمْ فِي الذَّاتِ دَعْ عَنكَ الصِّفَهْ
وَاللهُ لَـيسَ كَمِثْلِـهِ شَـيءٌ وَّذَا   هُـوَ مَـا اعْتَـرَفْتَ بِـهِ فَدَعْ عَنـكَ السَّفَـهْ
مَـن لَّـمْ يَقُـلْ بِـمَقَالِنَا فِيهَـا شَـرَى   بِنُصُـوصِ وَحْـيِ اللهِ رَأْيَ الفَلْسَـفَهْ

وقال آخر في الرد عليه: [الكامل]

وَمُبَلْكِفٌ لِّلـذَّاتِ طَـالَ تَعَجُّبِـي   مِـن شِـدَّةِ اسْـتِنكَارِهِ لِلبَلْكَفَـهْ
إِن كُنـتَ تُنكِرُهَـا فَكَيِّـفْ ذَاتَـهُ   أَيضًا وَّقُل هِيَ كَالذَّوَاتِ مُكَيَّفَهْ
بَلْ أَنـتَ تُثْبِتُهَـا وَلَا تَـدْرِي كَمَـا   لَم تَدْرِ قَطُّ مَنِ الحَمِيرُ المُوكَفَهْ
وَلَقَـد هَجَـوْتَ وَمَـا دَلَلْـتَ وَإِنَّـمَا   أَبَدًا تَـدُلُّ عَلَى الـحِمَارِ العَجْرَفَهْ

وقال آخر: [الكامل]

وَالشَّيخُ مَحْمُودٌ هُوَ الفِيلُ الَّذِي كَادُوا بِهِ المَعْنَى الَّذِي فِي البَلْكَفَهْ

الفيل الوارد في سورة الفيل جاء في بعض كتب التاريخ والتفسير أن اسمه محمود.

- ومن أولئك: ابن جُزَي -رحمه الله- صاحب القوانين الفقهية في الفقه، وتقريب الوصول في الأصول، والتسهيل لعلوم التنزيل في التفسير من شعره قوله: [الطويل]

لِكُلِّ بَنِي الدُّنيَا مُرَادٌ وَّمَقْصِدٌ وَّإِنَّ مُرَادِي صِحَّةٌ وَّفَرَاغُ
لِأَبْلُغَ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَبْلَغًا يَكُونُ بِهِ لِي لِلجِنَانِ بَلاَغُ
وَفِي مِثْلِ هَذَا فَلْيُنَافِسْ أُولُو النُّهَى وَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا الغَرُورِ بَلاَغُ
فَمَا الفَوْزُ إِلَّا فِي نَعِيمٍ مُّؤَبَّدٍ بِهِ العَيْشُ رَغْدٌ وَّالشَّرَابُ يُسَاغُ

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المجلس التاسع

في هذا المجلس:

- **من شعر العلماء**

* الشَّاطِبيّ.

* الإِلْبِيرِيّ: تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتَّا.

* أبو الفتح البُسْتِيّ: زِيَادَةُ المَرْءِ فِي دُنيَاهُ نُقْصَان.

* ابن الوَرْدِيّ: اعتَزِلْ ذِكْرَ الأَغَانِي وَالغَزَل.

* أبو حَيَّان

– خبر توما الحكيم، وما قال حماره!

– أبيات أبي حيان في مدح شيخ الإسلام التي يقال: إنه لم يقل خيرًا منه ولا أفحل، وما الذي غيّره على شيخ الإسلام!

* شيخ الإسلام ابن تيمية وأبياته التي كتبها في آخر عمره وبعثها إلى ابن القيم.

* ابن القيم

– أبياته التي ذكر فيها هدايته إلى مذهب أهل السنة على يد شيخ الإسلام ابن تيمية.

– إثبات ابن القيم للمجاز في النونية وغيرها.

– أبياته في الرد على معتقد النصارى التي لا يستطيع أن يجيب نصراني عن حججها إلى يوم الدين!

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فمن أولئك العلماء الأدباء: الإمام الشاطبيّ صاحب حِرْزِ الأَمَاني، يقول فيها: [الطويل]

وَإِنَّ كِتَــابَ اللهِ أَوْثَــقُ شَــافِعٍ وَّأَغْنَــى غَنَــاءٍ وَّاهِبًــا مُتَفَضِّــلَا
وَخَيـرُ جَلِيـسٍ لَّا يُـمَلُّ حَدِيثُـهُ وَتَــرْدَادُهُ يَــزْدَادُ فِيــهِ تَجَمُّــلَا
وَحَيثُ الفَتَى يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ مِـنَ القَبْـرِ يَلْقَـاهُ سَـنًا مُتَـهَلِّلَا
هُنَالِـكَ يَهْنِيـهِ مَقِـيلًا وَّرَوضَـةً وَّمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ العِزِّ يُجْتَلَى
يُنَاشِـدُ فِـي إِرْضَائِـهِ لِـحَبِيبِهِ وَأَجْـدِرْ بِـهِ سُـؤْلًا إِلَيـهِ مُوَصَّـلَا
فَيَـا أَيُّهَـا القَـارِي بِـهِ مُتَمَسِّـكًا مُّجِـلًّا لَّـهُ فِـي كُـلِّ حَـالٍ مُّبَجِّلَا
هَنِـيئًا مَّرِيـئًا وَّالِـدَاكَ عَلَيهِـمَا مَلَابِسُ أَنْـوَارٍ مِّنَ التَّاجِ وَالـحُلَى
فَمَـا ظَنُّكُمْ بِالنَّجْـلِ عِنـدَ جَزَائِـهِ أُولَئِـكَ أَهْـلُ اللهِ وَالصَّفْـوَةُ المَـلَا

وفيها يقول:

وَلَـوْ أَنَّ عَيْنًـا سَـاعَدَتْ لَتَوَكَّفَـتْ سَـحَائِبُهَا بِالـدَّمْعِ دِيـمًا وَّهُطَّـلَا
وَلَكِنَّهَا عَن قَسْوَةِ القَلْبِ قَحْطُهَا فَيَا ضَيعَةَ الأَعْمَارِ تَمْشِي سَبَهْلَلَا

وفيها أغراض الشعر! ففيها النَّسِيب، وذلك في قوله:

نَعَمْ إِذْ تَمشَّت زَينَبٌ صَالَ دَلُّهَا سَمِيَّ جَمَالٍ وَّاصِلًا مَّن تَوَصَّلَا

يريد أنَّ الحروف التي تُدْغَم أو تُظْهَر عندها ذال (إذ) ستة، وهي المجموعة في أوائل هذه الكلمات الست، فهذا النسيب.

وفيها الرثاء فإنّه لما ذكر أن الدال تدغم في عشرة أحرف جمعها في أوائل هذه الكلمات العشر:

وَلِلدَّالِ كِلْمٌ تُرْبُ سَهْلٍ ذَكَا شَذًا ضَفَا ثَـمَّ زُهْدٌ صِدْقُهُ ظَاهِرٌ جَلَا

يقول: هذا التُرْب الذي دُفِن فيه سَهْل عَبَقَت رائحتُه ففيه الزهد الصادق.

– ومن أولئك العلماء الأدباء: الإِلْبِيريّ، الذي عرف بقصيدته: [الوافر]

تَفُـــتُّ فُـــؤَادَكَ الأَيَّـــامُ فَتَّـــا وَتَنحِـتُ جِسْـمَكَ السَّـاعَاتُ نَـحْتَا
وَتَدْعُــوكَ المَنُــونُ دُعَــاءَ صِـدْقٍ أَلَا يَــا صَــاحِ أَنــتَ أُرِيــدُ أَنتَــا

يقول فيها:

أَبَــا بَكْــرٍ دَعَوتُــكَ لَـوْ أَجَبتَــا إِلَـى مَـا فِيـهِ حَظُّـكَ لَـو عَقَلْتَا
إِلَــى عِلْــمٍ تَــكُونُ بِــهِ إِمَــامًا مُّطَاعًــا إِن نَّهَيْــتَ وَإِنْ أَمَــرْتَا

إلى أن قال:

وَإِنْ أُعْطِيــتَ فِيــهِ طَوِيــلَ بَــاعٍ وَّقَــالَ النَّــاسُ إِنَّــكَ قَــدْ عَلِمْتَــا
فَـــلَا تَـــأْمَنْ سُـــؤَالَ اللهِ عَنْـــهُ بِتَـــوْبِيخٍ عَلِمْـــتَ فَهَـــلْ عَمِلْتَـــا
فَــرَأْسُ العِلْــمِ تَقَــوَى اللهِ حَقًّــا وَلَــيسَ بِــأَن يُّقَــالُ لَقَــد رَأَسْــتَا
إِذَا مَــا لَــمْ يُفِــدْكَ العِلْــمُ خَيــرًا فَخَيــرٌ مِنــهُ أَن لَّــو قَــد جَهِلْتَــا
وَإِن أَلْقَــاكَ فَهْمُــكَ فِـي مَهَــاوٍ فَلَيتَــكَ ثُــمَّ لَيتَــكَ مَــا فَهِمْتَــا

يقول فيها:

وَنَــادِ إِذَا سَـجَدتَ لَـهُ اعتِــرَافًا بِمَـا نَـادَاهُ ذُو النُّونِ ابـنُ مَتَّـى
وَلَازِمْ بَابَـــهُ قَرْعًـــا عَسَـــاهُ سَــيَفْتَحُ بَابَــهُ لَــكَ إِن قَرَعْتَــا

يقول فيها:

وَقُلْ يَـا نَاصِحِي بَلْ أَنتَ أَوْلَى بِنُصْـحِكَ لَـوْ لِفِعْلِـكَ قَـد نَظَرْتَـا
تُقَطِّعُنِــي عَلَــى التَّفْرِيــطِ لَومًــا وَّبِــالتَّفْرِيطِ دَهْــرَكَ قَــد قَطَعْتَــا

وهذا فيه: أن العالم حقًّا لا يرى نفسه أفضل من غيره، وقريب من هذا ما قاله الشيخ ابن سعدي: [الطويل]

وَلَكِنَّنَــا مِــن جَهْلِنَــا قَــلَّ ذِكْرُنَــا كَمَــا قَــلَّ مِنَّــا لِلإِلَــهِ التَّعَبُّــدُ

ما قال: ولكنكم من جهلكم قلَّ ذكركم، بل قال ولكننا.

ويقول الإلبيري في قصيدته هذه:

وَلَـوْ بَكَـتِ الـدِّمَا عَينَـاكَ خَوفًـا ... لِّذَنبِـكَ لَـمْ أَقُـل لَّـكَ قَـدْ أَمِنـتَا

وَلَوْ قَد جِئْتَ يَومَ الحَشْرِ فَرْدًا ... وَّأَبصَـرْتَ المَنَـازِلَ فِيـهِ شَتَّـى

لَأَعْظَمْـتَ النَّدَامَـةَ فِيـهِ لَهْـفًا ... عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

ومن شعره: قصيدته التي قالها لما اتُّخِذ وزيرٌ كافر آذى المسلمين يقول فيها: [المتقارب]

أَلَا قُـل لِّصَنْهَاجَـةٍ أَجْمَعِيـن ... بُـدُورِ النَّـدِيِّ وَأُسْـدِ العَرِيـنْ

لَقَـد زَلَّ سَـيِّدُكُمْ زَلَّـةً ... تَقَـرُّ بِـهَا أَعْيُـنُ الشَّامِتِيـنْ

تَخَيَّـرَ كَاتِبَـهُ كَافِـرًا ... وَّلَو شَاءَ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينْ

فَعَـزَّ اليَهُـودُ بِـهِ وَانتَخَـوا ... وَتَاهُـوا وَكَانُـوا مِـنَ الأَرْذَلِيـنْ

وَرَخَّـمَ قِـرْدُهُمْ دَارَهُ ... وَأَجْـرَى إِلَيهَـا نَمِيـرَ العُيُـونْ

فَصَـارَتْ حَوَائِجُنَـا عِنـدَهُ ... وَنَحْـنُ عَلَـى بَابِـهِ قَائِمُـونْ

وَيَضْحَـكُ مِنَّـا وَمِـن دِينِـنَا ... فَإِنَّـا إِلَـى رَبِّنَـا راجِعُـونْ

فكان من أثرها أن عُزِل ذلك الوزير.

قال صاحب المُغرب في حلى المَغرب: وله ديوان ملآن من أشعار زهدية ولأهل الأندلس غرام بحفظها.

- ومن أولئك: أبو الفتح البُسْتِي له نثرٌ رائع بديع، منه قوله:

  - عادات السادات، سادات العادات.
  - أحصن الجُنَّة لُزوم السُّنَّة.
  - الإنصاف أحسن الأوصاف.
  - المَنِيَّة تضحك من الأُمْنِيَّة.

ومن شعره قوله –وهو من شواهد الجِنَاس عند البلاغيين–: [البسيط]

وَإِنْ أَقَــــرَّ عَلَـــى رَقٍّ أَنَامِلَـــهُ أَقَــرَّ بِــالرِّقِّ كُتَّــابُ الأَنَــامِ لَــهُ

يقول: (وإن أقر) أي أثبت، (على رَقٍّ) أي على ورقٍ، (أنامله) أي أطراف أصابعه، (أقرّ بالرِّقِّ) أي اعترف بالمملوكية، (كتاب الأنام له) أي كُتَّاب الناس.

ومن شعره قوله –وهو من شواهد أهل البديع أيضًا–:

إِلَـى حَتْفِـي سَعَـى قَدَمِـي أَرَى قَـــدَمِي أَرَاقَ دَمِـــي

(أرى قدمي) من الرؤية، و(أراق دمي) سفك دمي.

ومن شعره قوله: [المتقارب]

خُــذِ العَفْــوَ وَأْمُـرْ بِعُـرْفٍ كَمَـا أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الجَاهِلِيـنْ

وَلِـنْ فِـي الكَـلَامِ لِكُـلِّ الأَنَـامِ فَمُسْتَحْسَنٌ مِن ذَوِي الجَاهِ لِينْ

الأولى: (أعرض عن الجاهلين) جمع جاهل، والثانية: (من ذوي الجاه) أي المكانة (لين).

وله قصيدته عُنْوَان الحِكم التي عُرِفَ بها، وهي من غُرَرِ القصائد وأعذبها لفظًا وأحسنها سَبْكًا، تفيض بالنصح والتذكير وهي في ثلاثةٍ وستين بيتًا، يقول فيها: [البسيط]

زِيَـادَةُ المَـرْءِ فِـي دُنيَـاهُ نُـقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيرَ مَحْضِ الخَيرِ خُسْرَانُ

وَكُـلُّ وِجْـدَانِ حَـظٍّ لَّا ثَبَـاتَ لَـهُ فَـإِنَّ مَعْنَـاهُ فِـي التَّحْقِيـقِ فِقْـدَانُ

يَا عَـامِرًا لِّخَـرَابِ الـدَّارِ مُجْتَهِـدًا بِـاللهِ هَـلْ لِخَـرَابِ العُمْـرِ عُمْـرَانُ

وَيَا حَرِيصًا عَلَى الأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا أُنْسِيتَ أَنَّ سُـرُورَ المَـالِ أَحْـزَانُ

زَعِ الفُــؤَادَ عَــنِ الدُّنيَــا وَزِينَتِهَــا فَصَفْوُهَـا كَـدَرٌ وَّالوَصْـلُ هِجْـرَانُ

وَأَرْعِ سَمْعَـكَ أَمثَــالًا أُفَصِّلُــهَا كَمَـا يُفَصَّـلُ يَـاقُوتٌ وَّمَرْجَـانُ

ويقول فيها:

يَا خَادِمَ الـجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ   أَتَطْلُـبُ الـرِّبْحَ فِيمَـا فِيـهِ خُسْـرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاستَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَأَنتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالـجِسْمِ إِنسَانُ

وفيها قوله:

وَكُـلُّ كَسْـرٍ فَـإِنَّ الدِّيـنَ يَجْبُـرُهُ   وَمَـا لِكَسْـرِ قَنَـاةِ الدِّيـنِ جُبْـرَانُ

– ومن أولئك: ابن الوَرْدِي، له البَهْجَة الوَرْدِيَّة نَظَمَ فيها الحاوي في فقه الشافعية في أكثر من خمسة آلاف بيت، وشعره رقيق يدل على ذوق رفيع، قال الحافظ ابن حجر: وأقسم بالله لم ينظم أحد بعده الفقه إلا قصر دونه، ووصف ابن السبكي شعره بأنه أحلى من السكر المكرر، وأعلى قيمة من الجوهر.

قال رحمه الله في قصيدته اللَّامية المسماة نصيحة الإخوان ومُرشِدة الخُلّان: [الرمل]

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الأَغَانِي وَالغَزَلْ   وَقُلِ الفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ
وَدَعِ الـذِّكْرَى لِأَيَّـامِ الصِّبَا   فَلِأَيَّـامِ الصِّـبَا نَجْـمٌ أَفَـلْ

وقال فيها:

اطْلُبِ العِلْـمَ وَلَا تَكْسَـلْ فَمَـا   أَبْعَدَ الـخَيـرَ عَلَى أَهْـلِ الكَسَـلْ
وَاحتَفِـلْ لِلفِقْـهِ فِـي الـدِّينِ وَلَا   تَشْـتَغِلْ عَنـهُ بِمَـالٍ وَّخَـوَلْ
وَاهْجُـرِ النَّـومَ وَحَصِّـلْهُ فَمَـن   يَّعْرِفِ المَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

وقال فيها:

جَـمِّلِ المَنطِـقَ بِالنَّحْـوِ فَمَـن   يُّحْرَمِ الإِعْرَابَ فِي النُّطْقِ اخْتَبَلْ
انظِـمِ الشِّـعْرَ وَلَازِمْ مَذْهَبِـي   فِـي اطِّـرَاحِ الرِّفْـدِ فَالـدُّنْيَا أَقَـلْ

فَهْوَ عُنوانٌ عَلَى الفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ

وكان قد تولى القضاء ثم تركه وعزل نفسه واشتغل بالتعليم والتأليف، وله – رحمه الله– أبيات في ذم القضاء والحكم بين الناس في لاميته وفي غيرها، من ذلك قوله فيها:

إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِّمَن وَّلِيَ الأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلْ

وقولُهُ وقد ألطف فيه ما شاء:

إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاستِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ القَاضِي لَوَعْظًا وَّمَثَلْ

يريد أن القاضي عند النحاة من الأسماء المنقوصة ولا تظهر عليه الضمة والكسرة للثقل.

وله حائية مليحة في مدح شهاب الدين بن فضل الله مطلعها: [الوافر]

أَأُقْتَلُ بَيْنَ جِدِّكَ والمِزَاحِ بِنَبْلِ جُفُونِكَ المَرْضَى الصِّحَاحِ

وفيها قوله:

وَمَا أَنَا شَاعِرٌ حَاشَا عُلُومِي ولَسْتُ أَرَى التَّكَسُّبَ بِامْتِدَاحِي

فَلِي مِن نِّعْمَةِ الرَّحْمنِ مَالٌ يَصُونُ عَنِ احْتِيَاجٍ واجْتِيَاحِ

ولَمْ أَقْصِدْ بِمَدْحِكَ غَيْرَ وُدٍّ أَرُوضُ بِهِ الزَّمَانَ عَنِ الجِمَاحِ

لِأَعْلَمَ أنَّ فِي الدُّنيَا وَفِيًّا فَأَسْلُوَ عَنْ نُوَاحِي فِي النَّوَاحِي

وَلَولَا الشِّعْرُ بالعُلَمَاءِ يُزْرِي لَأَتْعَبْتُ القَرَائِحَ بِاقْتِرَاحِي

أَرَى فِي العِلْمِ عَنْهُ أَلْفَ لاحٍ يُنَادِينِي بِحَيَّ عَلَى الفَلَاحِ

وكُنْتُ أَطَا عَلَى الشِّعْرَى بشِعْرِي وَأُطْفِي الشُّهْبَ مِنْ شَرَرِ اقْتِدَاحِي

وَهَا أَنَا ذَا اطَّرَحْتُ غُبُونَ دَهْرِي فَدَهْرِي لِلْأَفَاضِلِ ذُو اطِّرَاحِ

حَثَوْتُ بِأَوْجُهِ الآدَابِ تِبْرًا وَلَمْ أَشْرَعْ لِشَارِعِهَا جَنَاحِي

وخِفْتُ عَلَى بَنَاتِ الفِكْرِ يُتْمًا فَإِنَّ الشَّيْبَ يُنْذِرُ بِالرَّوَاحِ

وعِفْتُ شَرَابَ أَمْدَاحِي فَلَمَّا وَجَدتُّكَ أَهْلَهَا حَسُنَ امْتِدَاحِي

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وَكُنتُ قِدْماً   أَكَــادُ أَغَـــصُّ بِالمـــاءِ القُـــرَاحِ

- ومن أولئك: أبو حَيَّان النحوي الكبير المفسر صاحب البحر المحيط، له أبيات يقول فيها: [الوافر]

يَظُنُّ الغُمْرُ أَنَّ الكُتْبَ تَهْدِى   أَخَـــا فَهْـــمٍ لِّإِدْرَاكِ العُلُـــومِ

وَمَا يَـدْرِي الجَهُـولِ بِـأَنَّ فِيهَـا   غَوَامِـضَ حَيَّـرَتْ عَقْـلَ الفَهِـيمِ

إِذَا رُمْــتَ العُلُــومَ بِغَيْــرِ شَيْــخٍ   ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ

وَتَلْتَبِـسُ الأُمُـورُ عَلَيْـكَ حَتَّـى   تَصِيرَ أَضَلَّ مِن تُومَا الحَكِيمِ

وتوما الحكيم رجل كان يداوي الناس ولا علم له بالطب فقرأ حديث "الحبة السوداء شفاء من كل داء"، قرأه الحية السوداء فذهب وأتى بحياتٍ سُود وطحنها وجعلها في الأدوية وقتل من خلق الله من قتل، حتى قال بعضهم فيه: [مخلَّع البسيط]

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا   لَوْ أَنصَفُونِي لَكُنتُ أَرْكَبْ

لِأَنَّنِـــي جَاهِـــلٌ بَسِيـــطٌ   وَصَاحِبِـي جَاهِـلٌ مُّرَكَّـبْ

وفي هذا المعنى قول الإمام الحافظ ابن عساكر: [الوافر]

وَإِنَّـكَ لَـن تَـرَى لِلعِلْـمِ شَـيْئًا   يُحَقِّقُـــهُ كَأَفْـــوَاهِ الرِّجَـــالِ

فَكُـن يَّـا صَاحِ ذَا حِرْصٍ عَلَيـهِ   وَخُـذْهُ عَـنِ الرِّجَـالِ بِـلَا مَـلَالِ

وَلَا تَأْخُـذْهُ مِـن صُحُفٍ فَتُرْمَـى   مِـنَ التَّصْحِيفِ بِالـدَّاءِ العُضَـالِ

وفي هذا المعنى قول الآخر: [البسيط]

مَن يَّأْخُذِ العِلْمَ مِن شَيخٍ مُشَافَهَةً   يَّكُن مِّنَ الزَّيغِ وَالتَّصْحِيفِ فِي حَرَمِ

وَمَن يَّكُنْ آخِـذًا لِّلعِلْـمِ مِن كُتُـبٍ   فَعِلْمُـهُ عِنـدَ أَهْـلِ العِلْـمِ كَالعَـدَمِ

ومن الشائع في كلام العلماء: من دخل في العلم وحده خرج منه وحده.

وأبو حيان له أبيات في مدح شيخ الإسلام ابن تيمية قالها لما اجتمع به، ويقال: إنه لم يقل أبياتًا خيرًا منها ولا أفحل، يقول: [البسيط]

لَـمَّا أَتَانَـا تَقِـيُّ الدِّيـنِ لَاحَ لَـنَا ... دَاعٍ إِلَـى اللهِ فَـرْدٌ مَّـا لَـهُ وَزَرُ
عَلَى مُحَيَّاهُ مِن سِيمَا الأُولَى صَحِبُوا ... خَيـرَ البَرِيَّـةِ نُـورٌ دُونَـهُ القَمَـرُ
حَبْـرٌ تَسَرْبَـلَ مِنـهُ دَهْـرُهُ حِبَـرًا ... بَحْـرٌ تَقَـاذَفُ مِـنْ أَمْوَاجِـهِ الـدُّرَرُ
قَـامَ ابـنُ تَيْمِيَّـةٍ فِـي نَصْـرِ شِرْعَتِـنَا ... مَقَـامَ سَيِّدِ تَـيمٍ إِذْ عَصَـتْ مُضَـرُ
فَأَظْهَـرَ الحَـقَّ إِذْ آثَـارُهُ دَرَسَـتْ ... وَأَخْمَـدَ الشَّرَّ إِذْ طَـارَتْ لَـهُ شَـرَرُ
كُنَّـا نُحَـدَّثُ عَـنْ حَبْـرٍ يَجِـيءُ فَهَـا ... أَنـتَ الإِمَـامُ الَّـذِي قَـد كَـانَ يُنتَظَـرُ

ثم إنه ذَكَر لشيخ الإسلام كلامًا لسيبويه، فقال شيخ الإسلام: ما كان سيبويه نبي النحو ولا كان معصومًا، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعًا ما تفهمها أنت ولا سيبويه، فتغير عليه وعاد ذامًّا له بعد ذلك.

– وشيخ الإسلام له شعر رائق، من أجمله ما بعث به قبل موته إلى ابن القيم، قال ابن القيم في مدارج السالكين: وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه، يقول فيها:[البسيط]

أَنَـا الفَقِيـرُ إِلَـى رَبِّ البَرِيَّـاتِ ... أَنَا المُسَيكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَـا الظَّلُـومُ لِنَفْسِـي وَهْـيَ ظَالِمَتِـي ... وَالخَيـرُ إِن يَّاتِـنَا مِـن عِنـدِهِ يَاتِـي
لَا أَسْـتَطِيعُ لِنَفْسِـي جَلْـبَ مَنفَعَـةٍ ... وَّلَا عَـنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الـمَضَرَّاتِ
وَلَيـسَ لِـي دُونَـهُ مَولًـى يُدَبِّرُنِـي ... وَلَا شَفِيـعٌ إِذَا حَاطَـتْ خَطِيَّاتِـي
إِلَّا بِـإِذْنٍ مِـنَ الرَّحْمَـنِ خَالِقِـنَا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَد جَا فِي الَايَاتِ
وَلَسْـتُ أَمْلِـكُ شَـيْئًا دُونَـهُ أَبَـدًا ... وَّلَا شَـرِيكٌ أَنَـا فِـي بَعْـضِ ذَرَّاتِـي
وَلَا ظَهِيـرٌ لَـهُ كَـيْ يَسْتَعِيـنَ بِـهِ ... كَمَـا يَكُـونُ لِأَرْبَـابِ الـوِلَايَاتِ
وَالفَقْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَـدًا ... كَمَـا الغِنَـى أَبَـدًا وَّصْـفٌ لَـهُ ذَاتِـي
وَهَـذِهِ الـحَالُ حَـالُ الـخَلْقِ أَجْـمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُـمْ عِنـدَهُ عَـبْدٌ لَّـهُ آتِـي
فَمَـن بَغَـى مَطْلَـبًا مِّـنْ غَيـرِ خَالِقِـهِ ... فَهْوَ الجَهُولُ الظَّلُومُ المُشْرِكُ العَاتِي
وَالـحَمْـدُ للهِ مِـلْءَ الكَـونِ أَجْـمَعِهِ ... مَا كَانَ مِنهُ وَمَا مِن بَعْدُ قَدْ يَاتِي

ومن شعره اللامية المشهورة المنسوبة إليه، وظاهر كلام كثير من أهل العلم تصحيح نسبتها إليه؛ كابن الأَلُوسِي في جِلَاءِ العَينَين، والشيخ سليمان بن سَحْمَان، والشيخ عبدالعزيز بن ناصر الرشيد في شرح الواسطية، وكذلك شارحها أحمد بن عبدالله المَرْدَاوي، والاحتياط أن يقال: اللامية المنسوبة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية. ومطلعها: [الكامل]

يَا سَائِلِي عَن مَّذْهَبِي وَعَقِيدَتِي ... رُزِقَ الهُدَى مَن لِّلهِدَايَةِ يَسْأَلُ
اسْمَعْ كَلَامَ مُحَقِّقٍ فِي قَولِهِ ... لَا يَنْثَنِي عَنْهُ وَلَا يَتَبَدَّلُ

ومن شعره قصيدته التائية، التي أجاب فيها عن سؤال الذِّمِّيِّ في القَدَر، يقول الذمي:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

في ثمانية أبيات، فأجابه شيخ الإسلام ابن تيمية بخمسة وعشرين ومئة بيت -على اختلاف بين النسخ في عدد الأبيات- يقول فيها: [الطويل]

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ ... مُّخَاصِمِ رَبِّ العَرْشِ بَارِي البَرِيَّةِ

وفيها قوله:

وَأَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ
فَإِنَّهُمُ لَمْ يُدْرِكُوا حِكْمَةً لَّهُ ... فَصَارُوا عَلَى نَوعٍ مِّنَ الجَاهِلِيَّةِ
فَإِنَّ جَمِيعَ الكَونِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ ... مَشِيئَةُ رَبِّ الخَلْقِ بَارِي البَرِيَّةِ

- ومن أولئك: تلميذه الإمام ابن القيم، له النونية التي كادت أن تصل إلى ستة آلاف بيت في العقيدة، يقول فيها: [الكامل]

وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ... ذَةِ عَيشِهَا أَوْ لِلحُطَامِ الفَانِي
لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَّادَ لِلـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ
أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَن ذَا الشَّانِ

وَاللهِ لَــــوْ أَنَّ القُلُــــوبَ سَــــلِيمَةٌ لَّتَقَطَّعَــتْ أَسَــفًا مِــنَ الحِــرْمَانِ
لَكِنَّـهَا سَكْـرَى بِحُـبِّ حَيَاتِـهَا الـدْ دُنيَـا وَسَـوفَ تَفِيـقُ بَعْـدَ زَمَـانِ

ويقول:

وَأَعَفُّهُـمْ فِـي هَـذِهِ الدُّنيَـا هُـوَ الـ أَقْـوَى هُنَـاكَ لِزُهْـدِهِ فِـي الفَانِـي
فَاجْمَـعْ قُـوَاكَ لِمَـا هُنَـاكَ وَغَمِّـضِ الـ عَينِيــنَ وَاصبِــرْ سَــاعَةً لِّزَمَــانِ
مَــا هَهُنَــا وَاللهِ مَــا يَسْــوَى قُــلَا مَــةَ ظُفْـرٍ وَاحِـدَةٍ تُـرَى بِجِـنَانِ
لَا تُـؤْثِرِ الأَدْنَـى عَلَـى الأَعْلَـى فَـإِن تَفْعَــلْ رَجَعْــتَ بِذِلَّــةٍ وَّهَــوَانِ

ويقول:

وَلَسَـوفَ تَعْلَـمُ حِيـنَ يَنكَـشِفُ الغِطَـا مَــاذَا صَـنَعْتَ وَكُنـتَ ذَا إِمْكَــانِ

وذكر في النونية أنه لم يكن على منهج أهل السنة، حتى هداه الله بشيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا ما لم يصرح به في غير النونية من كتبه، يقول:

يَــا قَــومِ وَاللهِ العَظِــيمِ نَصِــيحَةٌ مِّــن مُّشْــفِقٍ وَأَخٍ لَّكُــمْ مِعْــوَانِ
جَرَّبْــتُ هَــذَا كُلَّــهُ وَوَقَعْــتُ فِــي تِلْــكَ الشِّــبَاكِ وَكُنــتُ ذَا طَيَــرَانِ
حَتَّــى أَتَــاحَ لِــيَ الإِلَــهُ بِفَضْلِــهِ مَــن لَّـيسَ تَجْزِيـهِ يَـدِي وَلِسَانِـي
حَبْــرٌ أَتَــى مِــنْ أَرْضِ حَــرَّانٍ فَيَــا أَهْـلًا بِمَـن قَـدْ جَـاءَ مِـنْ حَـرَّانِ
فَــاللهُ يَجْزِيــهِ الَّــذِي هُــوَ أَهْلُــهُ مِـن جَنَّـةِ المَـأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ
أَخَـذَتْ يَـدَاهُ يَـدِي وَسَـارَ فَلَـمْ نَـرِمْ حَتَّــى أَرَانِــي مَطْلَــعَ الإِيــمَانِ

وله فيها كلام قرر فيه التفصيل في الحقيقة والمجاز، وأن الأصل الحقيقة ما لم تكن ضرورة إلى صرفها إلى المجاز خلافًا لما في الصواعق المرسلة، فإنه أطال النَّفَسَ هناك في رد المجاز وإبطاله.

قال في النونية في تحميل أهل الإثبات للمُعَطِّلِين شهادة تُؤَدَّى عند رب العالمين قال:

وَاشْـهَدْ عَلَيهِمْ أَنَّـهُمْ حَـمَلُوا النُّصُـو صَ عَلَى الحَقِيقَةِ لَا المَجَازِ الثَّانِي
إِلَّا إِذَا مَـا اضْـطَرَّهُمْ لِمَجَازِهَـا الـ ـمُضْطَرُّ مِـن حِـسٍّ وَّمِـن بُرْهَـانِ
فَهُنَـاكَ عِصْـمَتُهَا إِبَاحَتُـهُ بِغَيـ ـرِ تَجَانُـفٍ لِّلإِثْـمِ وَالعُـدْوَانِ

أي عصمة النصوص في إباحة المجاز في الحالة المذكورة، من غير بغي ولا عدوان كما في أكل الميتة للمضطر.

وأثبت المجاز أيضًا في تهذيب سنن أبي داوود وفصَّل فيه.

ومن شعره ما أورده في إغاثة اللهفان ولم ينسبه إلى نفسه وهو بهذه الألفاظ له، يقول: [المتقارب]

بَرِئْنَـا إِلَـى اللهِ مِـن مَّعْشَـرٍ بِهِـمْ مَـرَضٌ مِّـن سَمَـاعِ الغِنَـا
وَكَـمْ قُلْـتُ يَـا قَـومِ أَنـتُمْ عَلَـى شَـفَا جُـرُفٍ مَّـا بِـهِ مِـن بِنَـا
شَـفَا جُـرُفٍ تَحْتَـهُ هُـوَّةٌ إِلَـى دَرَكٍ كَـمْ بِـهِ مِـنْ عَنَـا
وَتَكْـرَارُ ذَا النُّصْـحِ مِـنَّا لَهُـمْ لِنُعْـذَرَ فِيهِـمْ إِلَـى رَبِّنَـا
فَلَمَّـا اسْـتَهَانُوا بِتَنبِيهِنَـا رَجَعْنَـا إِلَـى اللهِ فِـي أَمْرِنَـا
فَعِشْـنَا عَلَـى سُـنَّةِ المُصْطَفَـى وَمَـاتُوا عَلَـى تِنْتِنَـا تِنْتِنَـا

ومنه ما في إغاثة اللهفان أيضًا، في رده على معتقد النصارى وفيها من الحجج ما لا يستطيع أحد من النصارى أن يرد عليها إلى يوم القيامة، ومنها قوله: [الوافر]

أَعُبَّـادَ الـمَسِيحِ لَنَـا سُـؤَالٌ نُّرِيـدُ جَوَابَـهُ مِـمَّن وَّعَـاهُ
إِذَا مَـاتَ الإِلَـهُ بِصُـنْعِ قَـومٍ أَمَـاتُوهُ فَمَـا هَـذَا الإِلَـهُ
وَيَـا عَجَبًـا لِّقَبْـرٍ ضَـمَّ رَبًّـا وَّأَعْجَـبُ مِنـهُ بَطْـنٌ قَـدْ حَـوَاهُ
أَقَـامَ هُنَـاكَ تِسْـعًا مِـن شُـهُورٍ لَّـدَى الظُّلُمَـاتِ مِنْ حَيضٍ غِذَاهُ
وَشَـقَّ الفَـرْجَ مَولُـودًا صَغِيـرًا ضَـعِيفًا فَاتِـحًا لِّلثَّـدْيِ فَـاهُ
وَيَأْكُـلُ ثُـمَّ يَشْـرَبُ ثُـمَّ يَأْتِـي بِـلَازِمِ ذَاكَ هَـلْ هَـذَا إِلَـهُ

تَعَالَــى اللهُ عَــنْ إِفْــكِ النَّصَــارَى سَيُسْــأَلُ كُلُّهُــمْ عَمَّــا افْتَــرَاهُ
أَعُبَّـــادَ الصَّـــلِيبِ لِأَيِّ مَعْـــنًى يُعَظَّـــمُ أَوْ يُقَــبَّحُ مَــن رَمَــاهُ
وَهَــلْ تَقْضِــي العُقُــولُ بِغَيْــرِ كَسْــرٍ وَإِحْـــرَاقٍ لَّـــهُ وَلِمَـــن بَغَــاهُ
إِذَا رَكِـــبَ الإِلَـــهُ عَلَيْـــهِ كُرْهًـــا وَقَـــد شُـــدَّتْ لِتَسْمِيـــرٍ يَـــدَاهُ
فَــذَاكَ الــمَرْكَبُ الــمَلْعُونُ حَقًّــا فَدُسْـــهُ وَلَا تَبُسْـــهُ إِذْ تَــرَاهُ
يُهَـــانُ عَلَيْـــهِ رَبُّ الــخَلْقِ طُــرًّا وَتَعْبُـــدُهُ فَإِنَّـــكَ مِـــنْ عِـــدَاهُ
فَيَــا عَبْــدَ الــمَسِيحِ أَفِــقْ فَهَــذَا بِدَايَتُـــــهُ وَهَـــــذَا مُنتَهَـــــاهُ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المجلس العاشر

<u>في هذا المجلس:</u>

- **من شعر العلماء**

* الجُرْجَاني.

* أبو القاسم السُّهَيلِي.

* ابن حَجَر وخبره مع العَيني.

* أحمد بن فَرْح الإشْبِيلي.

* ابن القَصَّار.

* الصَّنْعَاني.

* المَقَّرِي.

* علَّال الفاسي

– أبعد بلوغي خمس عشرة ألعبُ!

* شاعر الحمراء

* ابن دقيق العيد.

* توظيف المسائل العلمية في الشعر بأسلوب لطيف.

أبعد هذا يقال: إن شعر الفقهاء رديء أو إن اشتغالهم بالفقه يحول بينهم وبين أن يكونوا شعراء مبدعين!

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فمن أولئك الفقهاء العلماء الأدباء: القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجُرْجَاني، وهو فقيه كبير من فقهاء الشافعية، له قصيدة هي من غرر الشعر، سارت في الآفاق وتناشدها العلماء وحفظوها، وكان بعضهم يُلَقِّنُها طلابه، وفيها قوله: [الطويل]

يَقُولُونَ لِي فِيْكَ انقِبَاضٌ وَّإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَن مَّوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِندَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَّاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَن لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِن كُنتُ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هذا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَن لَّاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَّأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَن فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَو أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهَمْ ... وَلَو عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

يقول ابن السُّبكي: وهكذا فليكن وإلا فلا؛ أدبُ كلِّ فقيه.

- ومن أولئك: أبو القاسم السُّهيلي، صاحب الرَّوضِ الأُنُف، ونتائج الفِكْر في النحو، من شعره تلك المناجاة التي يقول فيها: [الكامل]

يَا مَن يَّرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَن يُّرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيهِ المُشْتَكَى وَالمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ مُلْكِهِ فِي قَولِ كُن ... امنُنْ فَإِنَّ الخَيرَ عِندَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالافتِقَارِ إِلَيكَ فَقْرِي أَدْفَعُ

مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَمَنِ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسمِهِ ... إن كَانَ فَضْلُكَ عَن فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَن تُقَنِّطَ عَاصِيا ... الفَضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

– ومن أولئك: الحافظ ابن حجر وقد أبدع في النظم وأجاد، وقال الشعر الكثير المليح، وله قصة مع العَينِي، فإنه حصل أن مَالَتْ مِئْذَنَة جامع المُؤَيَّد في مصر، وكادت أن تسقط واشتد خوف الناس وتحولوا من حواليها، فأمر السلطان بنَقْضِها فنُقِضَتْ برفق، وأمن الناس شرها، فقال الحافظ ابن حجر في ذلك: [الطويل]

لِجَامِعِ مَولَانَا المُؤَيَّدِ رَونَقٌ ... مَّنَارَتُهُ بِالحُسْنِ تَزْهُو وَبِالزَّينِ
تَقُولُ وَقَد مَالَتْ عَنِ القَصْدِ أَمْهِلُوا ... فَلَيسَ عَلَى جِسْمِي أَضَرُّ مِنَ العَينِ

فظنَّ العَينِيُّ أنه أراده فاستعان بمن نظم له بيتين وهما: [البسيط]

مَنَارَةٌ كَعَرُوسِ الحُسْنِ إِذْ جُلِيَتْ ... وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللهِ وَالقَدَرِ
قَالُوا أُصِيبَتْ بِعَينٍ قُلْتُ ذَا غَلَطٌ ... مَّا أَوْجَبَ الهَدْمَ إِلَّا خِسَّةُ الحَجَرِ

– ومن أولئك: أحمد بن فَرْح الإشْبِيلِي، له قصيدته المشهورة بـ(غَرَامِي صَحِيح) سَبَكَها سَبْكًا عجيبًا لو أُلقِيَت على عربيٍّ فصيح خالي الذهن من الألقاب الحديثيّة ما فهم منها إلا النسيب!

يقول فيها: [البسيط]

غَرَامِي صَحِيحٌ وَّالرَّجَا فِيكَ مُعْضَلُ ... وَحُزْنِي وَدَمْعِي مُرْسَلٌ وَّمُسَلْسَلُ
وَصَبْرِيَ عَنْكُمْ يَشْهَدُ العَقْلُ أَنَّهُ ... ضَعِيفٌ وَّمَتْرُوكٌ وَّذُلِّيَ أَجْمَلُ
وَلَا حَسَنٌ إِلَّا سَمَاعُ حَدِيثِكُمْ ... مُشَافَهَةً يُّمْلَى عَلَيَّ فَأَنْقُلُ

وَأَمْرِيَ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ لِي عَلَــى أَحَــدٍ إِلَّا عَلَيْــكَ المُعَــوَّلُ
وَلَوْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْكَ لَكُنْتَ لِي عَلَــى رَغْــمِ عُذَّالِــي تَــرِقُّ وَتَعْــدِلُ
وَعَــذْلُ عَذُولِــي مُنْكَــرٌ لَّا أُسِيغُــهُ وَزُورٌ وَّتَــــدْلِيسٌ يُّــــرَدُّ وَيُهْمَــــلُ

إلى آخر ما قال.

- ومن أولئك: ابن القَصَّار، شيخ الأعصار والأمصار، وقد كان يصلح من ألفية العراقي ما يحتاج إلى إصلاح قال الشيخ محنض بابه: [الرجز]

وَكَــانَ شَــيخُ فَــاسٍ القَصَّــارُ مَــن مِّثْلُــهُ شَــحَّتْ بِــهِ الأَعْصَارُ
يُصْــلِحُ مِــنْ أَلْفِيَّــةِ العِرَاقِــي مَــا لَـيسَ حَـوْكُ نَظْمِـهِ بِرَاقِـي
فَــالنَّظْمُ إِن لَّــم تَكْمُــلِ الإِجَـادَهْ فِــي حَوْكِــهِ قَلَّــتْ بِــهِ الإِفَــادَهْ

لابن القصار أبيات جميلة في الحَضِّ على زيارة الوالدين، وبرهما بعد موتهما يقول فيها: [الكامل]

زُرْ وَالِـدَيكَ وَقِـفْ عَلَـى قَبْـرَيهِمَا فَكَأَنَّنِـي بِـكَ قَـد نُقِلْـتَ إِلَيهِمَـا
لَوْ كُنتَ حَيـثُ هُـمَا وَكَانَـا بِالبَقَـا زَارَاكَ حَبْــوًا لَّا عَلَــى قَــدَمَيهِمَا
أَنَسِيتَ عَهْدَهُـمَا عَشِيَّـةَ أُسْكِـنَا دَارَ البِـلَا وَسَـكَنتَ فِـي دَارَيهِمَـا
مَـا كَـانَ ذَنبُهُمَـا إِلَـيكَ وَإِنَّـمَا مَنَحَاكَ مَحْضُ الوُدِّ مِن نَّفْسَيهِمَا
كَانَـا إِذَا مَـا أَبصَـرَا بِـكَ عِلَّـةً جَزِعَـا لِمَـا تَشْـكُو وَشَـقَّ عَلَيهِمَـا
كَانَـا إِذَا سَمِعَـا أَنِينَـكَ أَسْبَـلَا دَمْعَيهِمَـا أَسَـفًا عَلَـى خَـدَّيهِمَا
وَتَمَنَّـيَا لَـو صَادَفَـا لَـكَ رَاحَـةً بِجَمِيعِ مَـا يَحْوِيهِ مِلْكُ يَدَيهِمَا
فَلَتَلْحَقَنَّهُمَــا غَــدًا أَوْ بَعْــدَهُ حَتْـمًا كَمَـا لَحِـقَا هُـمَا أَبَـوَيهِمَا
وَلَتَنـدَمَنَّ عَلَـى فِعَالِـكَ مِثْـلَ مَـا نَـدِمَا هُـمَا أَيضًـا عَلَـى فِعْلَيهِمَـا
بُشْـرَاكَ إِن قَدَّمْـتَ فِعْـلًا صَالِـحًا وَّقَضَيْتَ بَعْضَ الحَقِّ مِن حَقَّيهِمَا
وَقَـرَأْتَ مِنْ آيِ الكِتَـابِ بِقَـدْرِ مَـا تَسْــطِيعُهُ وَبَعَثْــتَ ذَاكَ إِلَيهِمَــا
فَـاحفَظْ بُنَـيَّ وَصِيَّتِـي وَاعْمَلْ بِـها فَعَسَـى تَنَـالَ الفَـوزَ مِـن بِرَّيهِمَـا

- ومن أولئك: الإمام الصنعاني، صاحب سبل السلام، قال بعض أهل الكلام يصف حيرته: [الطويل]

لَعَمْرِي لَقَد طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّها ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَينَ تِلْكَ المَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

فردَّ عليه الصَّنْعَانِي بقوله: [الطويل]

لَعَلَّكَ أَهْمَلْتَ الطَّوافَ بِمَعْهَدِ الرْ ... رَسُولِ وَمَن لَّاقَاهُ مِن كُلِّ عَالِمِ
فَمَا حَارَ مَن يُّهْدَى بِهَدْيِ مُحَمَّدٍ ... وَلَسْتَ تَرَاهُ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وله شعر رقيق كثير وقد جمع ابنه ديوان شعره ورتبه على الحروف وهو أكثر من أربع مئة صفحة في مختلِف الأغراض.

- ومن أولئك: المَقَّرِي، صاحب عنوان الشرف الوافي، له تائية جميلة يقول فيها: [الطويل]

إِلَى كَمْ تَمَادَى فِي غُرُورٍ وَّغَفْلَةٍ ... وَكَمْ هَكَذَا نَومٌ مَّتَى يَومُ يَقْظَةِ
لَقَد ضَاعَ عُمْرٌ سَاعَةٌ مِّنهُ تُشْتَرَى ... بِمِلْءِ السَّمَا وَالأَرْضِ أَيَّةَ ضَيْعَةِ
أَتُنفِقُ هَذَا فِي هَوى هَذِهِ الَّتِي ... أَبَى اللهُ أَن تَسْوَى جَنَاحَ بَعُوضَةِ
وَتَرْضَى مِنَ العَيشِ السَّعِيدِ تَعِيشُهُ ... مَعَ المَلَإِ الأَعْلَى بِعَيشِ البَهِيمَةِ
فَيَا دُرَّةً بَينَ المَزَابِلِ أُلْقِيَتْ ... وَجَوْهَرَةً بِيعَتْ بِأَبْخَسِ قِيمَةِ
أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةً ... وَّسُخْطًا بِرِضْوَانٍ وَّنَارًا بِجَنَّةِ
أَأَنتَ صَدِيقٌ أَمْ عَدُوٌّ لِّنَفْسِهِ ... فَإِنَّكَ تَرْمِيهَا بِكُلِّ مُصِيبَةِ
وَلَوْ فَعَلَ الأَعْدَا بِنَفْسِكَ بَعْضَ مَا ... فَعَلْتَ لَمَسَّتْهُمْ لَهَا بَعْضُ رَحْمَةِ
لَقَدْ بِعْتَهَا خِزْيِي عَلَيكَ رَخِيصَةً ... وَّكَانَتْ بِهَذَا مِنكَ غَيرَ حَقِيقَةِ

إلى أن قال:

تُصَلِّـي بِـلَا قَلْـبٍ صَـلَاةً بِمِثْلِهَـا يَكُـونُ الفَتَـى مُسْـتَوجِبًا لِّلعُقُوبَـةِ
فَوَيحَـكَ تَـدْرِي مَـن تُنَاجِيـهِ مُعْرِضًـا وَّبَينَ يَدِي مَن تَنْحَنِي غَيرَ مُخْبِتِ
تُخَاطِبُـــهُ إِيَّـــاكَ نَعْبُـــدُ مُقْبِـــلًا عَلَـى غَيـرِهِ فِيهَـا لِغَيـرِ ضَـرُورَةِ
وَلَـوْ رَدَّ مَـن نَّاجَـاكَ لِلغَيـرِ طَرْفَـهُ تَمَـيَّزْتَ مِـنْ غَـيظٍ عَلَيـهِ وَغَيـرَةِ
أَمَا تَسْتَحِي مِن مَّالِكِ المُلْكِ أَن يَّرَى صُـدُودَكَ عَنْـهُ يَـا قَلِيـلَ الـمُرُوَّةِ
صَـلَاةٌ أُقِيمَـتْ يَعْلَـمُ اللهُ أَنَّـهَا بِفِعْلِـكَ هَـذَا طَاعَـةٌ كَالخَطِيئَـةِ
ذُنُوبُـكَ فِـي الطَّاعَـاتِ وَهْـيَ كَثِيـرَةٌ إِذَا عُـدِّدَتْ تُغْنِيـكَ عَـن كُـلِّ زَلَّـةِ
سَـبِيلُكَ أَن تَسْـتَغْفِرَ اللهَ بَعْـدَهَا وَأَن تَتَلَافَـى الذَّنـبَ مِنـهَا بِتَوبَـةِ

إلى أن قال:

فَيَـا عَامِـلًا لِّلنَّـارِ جِسْمُـكَ لَيِّـنٌ فَجَـرِّبهُ تَمْرِينًـا بِحَـرِّ الظَّهِيـرَةِ
وَجَرِّبـهُ فِـي لَسْـعِ الزَنَابِيـرِ تَجْتَـرِي عَلَى نَـهْشِ حَيَّاتٍ هُنَاكَ عَظِيمَـةِ
فَإِن كُنتَ لَا تَقْوَى فَوَيحَكَ مَا الَّذِي دَعَـاكَ إِلَـى إِسْـخَاطِ رَبِّ البَرِيَّـةِ
تُعَامِلُـــهُ بِالمُنكَـــرَاتِ عَشِـــيَّةً وَتُصْبِحُ فِـي أَثْـوَابِ نُـسْكٍ وَّعِفَّـةِ

– ومن أولئك: عَلَّال الفَاسِي، صاحب كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، من بديع شعره قوله: [الطويل]

أَبَعْدَ بُلُـوغِي خَمْـسَ عَشْـرَةَ أَلْعَـبُ وَأَلْهُـو بِلَـذَّاتِ الحَيَـاةِ وَأَطْـرَبُ
وَلِـي نَظَـرٌ عَـالٍ وَّنَفْـسٌ أَبِيَّـةٌ مَّقَامًا عَلَى هَامِ المَجَرَّةِ تَطْلُـبُ
وَعِنـدِيَ آمَـالٌ أُرِيـدُ بُلُوغَهَـا تَضِيعُ إِذَا لَاعَبْتُ دَهْرِي وَتَذْهَبُ
وَلِـي أُمَّـةٌ مَّنكُودَةُ الحَظِّ لَـمْ تَـجِدْ سَبِيلًا إِلَى العَيشِ الَّذِي تَتَطَلَّبُ
عَلَى أَمْرِهَـا أَنفَقْـتُ دَهْـرِي تَحَسُّـرًا فَمَا طَابَ لِي طَعْمٌ وَّلَا لَذَّ مَشْرَبُ
وَلَا رَاقَ لِـي نَـومٌ وَإِن نِّـمْتُ سَاعـةً فَإِنِّـي عَلَى جَـمْرِ الغَضَـا أَتَقَلَّـبُ

– ومن الشعراء: شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المَرَّاكُشِي المغربي، كان من سلالة فقهية عالمة وقرأ من القراءات وحفظ مختصر الخليل ثم اشتغل بغيرها، وندم على ذلك في آخر حياته –وحق له أن يندم– وقال في ذلك أبياتًا وُجدت بعد موته قال: [الطويل]

بِرَبِّكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَسْخَفَ مِنْ عَقْلِي   وَهَلْ فَوقَ وَجْهِ الأَرْضِ مِنْ أَحْمَقٍ مِّثْلِي
وَكَمْ أَدَّعِي عِلْمًا وّحُسْنَ ثَقَافَةٍ   وَّمَا جَاهِلٌ إِلَّا وَمِن فَوقِهِ جَهْلِي

إلى أن قال في آخرها:

فَلَا عِيشَةٌ تُرْضَى وَلَا كَسْبُ طَاعَةٍ   فَلَا أَكْثَرَ الرَّحْمَنُ فِي خَلقِهِ مِثْلِي

– ومن لطيف الشعر الذي كان يتداوله الفقهاء في بعض بوادي المغرب، يُذكر – على ما فيه من بعض مخالفة للعَروض– لما فيه من الحكمة: [الرجز]

وَكُلُّ مَن لَّمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَا   وَلَمْ يُفَارِقْ أَهْلَهُ أَحْوَالَا
وَلَمْ تُقَطِّعْ رِجْلُهُ النِّعَالَا   يَطْلُبُ عِلْمًا أَوْ يُصِيبُ مَالَا
فَأَعْطِهِ المِرْوَدَ وَالمُكْحُلَهْ   وَزِدْ لَهُ الأَقْرَاطَ وَالحُلَى لَهْ
وَدَعْهُ أَن يُّجَالِسَ العِيَالَا   فَذَاكَ لَا يُشَابِهُ الرِّجَالَا

ولبعضهم في هذا المعنى: [الرجز]

فَإِن تَقُلْ قَد ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ   وَفَنِيَتْ بَينَ الوَرَى طُلَّابُهُ
وَغَاضَ مَاءُ عِلْمِ ذَا الزَّمَانِ   (فَذِكْرُ ذَا وَحَذْفُهُ سِيَّانِ)
فَاقعُدْ فَدَيتُكَ مَعَ العِيَالِ   وَلْتَخْضِبِ البَنَانَ غَيرَ آلِ
وَدُونَكَ الكُحْلَ والادِّهَانَا   (وَالمَرْءُ يُرْدِي نَفْسَهُ أَحْيَانَا)
وَلَا تُسَافِرْ سَفْرَةً إِلَّا الَّتِي   مَعْ مَحْرَمٍ أَوْ رُفْقَةٍ مَّأْمُونَةِ
هَيهَاتَ هَيهَاتَ أَيُدْرِكُ العُلَا   مَن قَطَّعَ الأَوْقَاتَ نَومًا كَسَلَا
مَا أَجْدَرَ الآدَابَ وَالمَعَالِيَا   (بِأَن تَقُولَ مَا لَهُ وَمَا لِيَا)

- ومن أولئك الشيخ محمد الخضر حسين ومن مستجاد شعره قصيدته في فضل اللغة العربية:

شَـبِيهَانِ الهِـلَالُ إِذَا تَهَـادَى ... وَفِكْـرٌ بَـاتَ يَرْتَـادُ السَّـدَادَا
بَنَـاتُ الْفِكْـرِ آبِـدَةٌ وَلَـوْلَا ... عِنَانُ الْقَـوْلِ لَمْ تُسْلِسْ قِيَادَا
رَعَـى اللهُ الأَدِيـبَ يَـرُومُ مَعْـنًى ... فَيُسْـعِدُهُ الْبَيَـانُ بِمَـا أَرَادَا
أُبَجِّلُـهُ وَلَـوْ لَمْ يَـأْوِ ظِـلًّا ... بَـنَى الْعَـيْشُ الأَنِيـقُ بِـهِ وَشَـادَا
فَهَـاتِ السَّـيْفَ يَخْطُرُ فِي مَضَـاءٍ ... وَخَـلِّ الْغِمْـدَ عِنْـدَكَ والنِّجَـادَا
وَيَنْـزِعُ بِي إِلَى الآدَابِ وَجْـدٌ ... إِذَا قُلْـتُ اشْـتَفَى بالوَصْـلِ زَادَا
فَأَنْسَـى مَعْبَـدًا وَغُرَيْـبَ دَهْـرًا ... وَلَا أَنْسَـى الْبَـدِيعَ وَلَا العِمَـادَا
وأَسْـلُو الـرَّوْضَ والوَرْقَـاءُ تَشْـدُو ... بِـهِ وَالْغَيْـثُ حَـاكَ لَـهُ بِجَـادَا
ولا أَسْـلُو الطُّـرُوسَ تَـدُورُ فِيهَـا ... رَحَـى الْبَحْـثِ ابْتِكَـارًا وَانْتِقَـادَا
وَلَمْ أَنْـضُ الْقَرِيحَـةَ فِي نَسِـيبٍ ... وَلَا عَـذَلًا شَـكَوْتُ وَلَا بِعَـادَا
فَمَـا أَهْـوَى سِـوَى لُغَـةٍ سَـقَاهَا ... قُـرَيْشٌ مِـنْ بَـرَاعَتِهِمْ شِـهَادَا
أَدَارُوا مِـنْ سَلاسَـتِهَا رَحِيقًـا ... وَهَـزُّوا مِـنْ جَزَالَتِهَـا صِـعَادَا
وَطَوَّقَهَـا كِتَـابُ اللهِ مَجْـدًا ... وَزَادَ سَـنَا بَلاغَتِهَـا اتِّقَـادَا
تَصِـيدُ بِسِـحْرِ مَنْطِقِهَـا قُلُوبًـا ... تُحَـاذِرُ كالجَـآذِرِ أَنْ تُصَـادَا
قَنَـتْ حِكَماً رَوائِـعَ لَـوْ أَعَـارَتْ ... سَـنَاهَا النَّـارَ لَمْ تَلِـدِ الرَّمَـادَا
سَرَتْ كالمُـزْنِ يُحْيِي كُلَّ أَرْضٍ ... ويُبْهِجُهَـا وِهَـادًا أَوْ نِجَـادَا
وَمَـا لِلَّهْجَـةِ الْفُصْـحَى فَخَـارٌ ... إِذَا لَمْ تَمْـلَإِ الـدُّنْيَا رَشَـادَا

- ومن أولئك: -وحقه أن يقدم إلا أنه أُخِّرَ ليكون مِسْكَ الختام- الإمام ابن دَقِيق العِيد، له شعر كثير رائق، ومن ذلك قوله: [الطويل]

تَـمَنَّيتُ أَنَّ الشَّـيبَ عَاجَـلَ لِمَّتِي ... وَقَـرَّبَ مِنِّـي فِـي صِبَايَ مَـزَارَهُ

لِآخُذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ وَآخُذَ مِنْ عَصْرِ المَشِيبِ وَقَارَهُ

وله براعة في توظيف المسائل الفقهية والأصولية في الشعر، ومن هذا قوله: [السريع]

قَالُوا فُلَانٌ عَالِمٌ فَاضِلٌ فَأَكْرِمُوهُ مِثْلَمَا يَرْتَضِي
فَقُلْتُ لَمَّا لَمْ يَكُن ذَا تُقًى تَعَارَضَ المَانِعُ وَالمُقْتَضِي

وهذا كثير في شعر العلماء، يوظفون هذه المسائل بأسلوب لطيف في الشعر، ومن ذلك قول الحافظ ابن حجر: [البسيط]

سَأَلْتُ قَلْبِيَ عَن صَبْرِي فَأَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ مِنذُ بِنتُمْ عَنِّيَ انصَرَفَا
يَا أَيُّهَا البَدْرُ إِنِّي بَعْدَ بُعْدِكَ لَا أَزَالُ فِي جَامِعِ الأَحْزَانِ مُعْتَكِفَا

ومن ذلك قول أبي فتح البُسْتِي: [الكامل]

زُفَّتْ إِلَيكَ لَنَا عَرَائِسُ أَرْبَعٌ فَفَضَضْتَهَا بِالسَّمْعِ وَهْيَ قَصَائِدُ
فَابعَثْ إِلَيَّ مُهُورَهُنَّ بِأَسْرِهَا إِنَّ النِّكَاحَ بِغَيرِ مَهْرٍ فَاسِدُ

ومنه قول ابن نُبَاتَة: [مجزوء الرجز]

مَسْأَلَةُ الدَّورِ جَرَتْ بَينِي وَبَينَ مَنْ أُحِبْ
لَولَا مَشِيبِي مَا جَفَا لَولَا جَفَاهُ لَمْ أَشِبْ

ويزيد على كل ما سبق جمالًا قول ابن دقيق العيد: [السريع]

كَمْ لَيلَةٍ فِيكَ وَصَلْنَا السُّرَى لَا نَعْرِفُ الغَمْضَ وَلَا نَسْتَرِيحْ
وَاختَلَفَ الأَصْحَابُ مَا ذَا الَّذِي يُزِيلُ مِن شَكْوَاهُمُ أَوْ يُرِيحْ
فَقِيلَ تَعْرِيسُهُمُ سَاعَةً وَقِيلَ بَلْ ذِكْرَاكَ وَهُوَ الصَّحِيحْ

بينما هو يصف أحوالهم في السُّرى ومشقتهم في التعب إذ كأنه في حلْقة الدرس وقد شرع يشرح مسألة علمية "واختلف الأصحاب"، ويحكي الخلاف: فقيل كذا وقيل كذا وهو الصحيح. حتى قال الصَّفَدي في هذه

الأبيات: ما رأيت أحسن من هذا! ثم قال: إنه يحرم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين. [المتقارب]

فَلَـــمْ تَـــكُ تَصْـــلُحُ إِلَّا لَـــهُ وَلَـــمْ يَـــكُ يَصْـــلُحُ إِلَّا لَـــهَا

قال: وما أحقه لو أنشد قول الأرَّجاني: [الكامل]

أَنَـــا أَشْـــعَرُ الفُقَهَـــاءِ غَيْـــرَ مُـــدَافَعٍ فِـــي العَصْـــرِ لَا بَـــلْ أَفْقَـــهُ الشُّـــعَرَاءِ

أبعد هذا يقال: إن شعر الفقهاء رديء أو إن اشتغالهم بالفقه يحول بينهم وبين البراعة في الشعر وأن يكونوا شعراء مبدعين!

وبهذا ولله الحمد، تم القسم الأول والثاني من هذه المدارسة، القسم الأول: لماذا الدعوة إلى الأدب. والقسم الثاني: في أدب الفقهاء وأشعار العلماء. وبقي القسم الثالث الأخير وهو في عصور الأدب.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مجالس في أدب العرب

القسم الثالث

عصور الأدب

وفيه ستة مجالس

المجلس الحادي عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

١/ العصر الجاهلي.

* المُعَلَّقات العشر وأصحابها.

* من شعر زُهَير بن أبي سُلْمَى:

- قصيدة على نغمة التَّيس، وأبيات فيها حكاية صوت التَّيس نفسه.

* خبر حرب دَاحِس والغَبْراء

* خبر حرب البَسُوس

* أبيات من قصيدة الحارِث بن عُبَاد التي قيل: إنه كرّر فيها قوله:

(قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَة مِنِّي) في نحو خمسين بيتًا.

*من شعر دُرَيد بن الصِّمَّة.

* تقصير الثوب ورفعه عن الكعبين كانت العرب تتمدح به في الجاهلية، وشواهد ذلك من الشعر، ثم جاء الله بالإسلام فَسَنَّهُ النبي -صلى الله عليه وسلم-.

* القصيدة التي قال عنها ابن كَثِير في البداية والنهاية: هذه قصيدة عظيمة فَصِيحَة بَلِيغَة جدًّا، لا يستطيع أن يقولها إلا من نُسِبَت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبْلَغ في تأدية المعنى منها جميعًا.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فهذا القسم الثالث الأخير من هذه المجالس، والكلام فيه عن عصور الأدب.

والحديث عن عصور الأدب صعب لأنه الأدب كله في الحقيقة! لكن سنأخذ إن شاء الله من كل عصر بعض أعلامه وشيئا من أشعارهم وأخبارهم.

ولا بد للدرس الأدبي من تقسيم، لذا جرت عادة من يتكلمون في تاريخ الأدب أن يقسموا الأدب إلى عصور، فيذكرون:

العصر الجاهلي

ثم عصر صدر الإسلام

ثم العصر الأموي

ثم العصر العباسي

ثم عصر الدول والطوائف

ثم يذكرون العصر الحديث من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا.

العصر الجاهلي:

أقدم ما وصلنا من مطولات الشعر التي صحت روايتها تمتد إلى نحو مئة وخمسين سنة قبل الإسلام، وقد قيل : إن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع هو مهلهل بن ربيعة التغلبي أخو كليب وتبعه ابن أخته امرؤ القيس وعلقمة وعَبيد ولم يكن للأوائل من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته.

وأشهر شعر العصر الجاهلي المُعَلَّقَات، وسبب تسميتها بهذا -فيما قيل- أنهم علَّقوها على الكعبة التي هي موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم -عليه السلام-، علَّقوها تعظيمًا لها واحتفاء بها وإلى هذا أشار في الشمقمقية بقوله: [الرجز]

لَوْ لَـمْ يَكُـن للشِّعْرِ عِنـدَ مَـن مَّضَـى فَضْـلٌ عَلَـى الكَعْبَـةِ لَـمْ يُعَلَّـقِ

وهذا يُعْوِزُهُ النقل الصحيح، وإن كان مستفيضًا؛ ذكره ابن عبدربِّه وابن خَلدون وغيرهما.

وقيل: إنهم سمَّوها بذلك لأنها تَعْلَق بالأذهان لجودتها.

وأُولى المعلقات: معلقة امرِئ القَيس التي مطلعها: [الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ وَّمَنزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَينَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

والثانية: معلقة طَرَفَةَ بنِ العَبْد التي مطلعها: [الطويل]

لِـــخَوْلَةَ أَطْـــلَالٌ بِبُرْقَـــةِ ثَهْـــمَدِ   تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

والثالثة: معلقة زُهَير بن أبي سُلْمى التي مطلعها: [الطويل]

أَمِـنْ أُمِّ أَوْفَـى دِمْنَـةٌ لَّـمْ تَكَلَّـمِ   بِحَوْمَانَـــةِ الـــدَّرَّاجِ فَالمُتَثَـــلَّمِ

والرابعة: معلقة لَبِيد ﷺ التي مطلعها: [الكامل]

عَفَـتِ الـدِّيَارُ مَـحَلُّهَا فَمُقَامُهَـا   بِـمِنًى تَأَبَّـدَ غَوْلُـهَا فَرِجَامُهَـا

والخامسة: معلقة عَمْرو بن كُلْثُوم التي مطلعها: [الوافر]

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا   وَلَا تُبْقِـي خُـمُورَ الأَنـدَرِينَا

والسادسة: معلقة عَنتَرة بن شَدَّاد التي مطلعها: [الكامل]

هَـلْ غَـادَرَ الشُّعَرَاءُ مِن مُّتَـرَدَّمِ   أَمْ هَـلْ عَرَفْـتَ الـدَّارَ بَعْدَ تَـوَهُّمِ

والسابعة: معلقة الحَارِث بن حِلِّزَة التي مطلعها: [الخفيف]

آذَنَتْنَـــا بِبَيْنِهَـــا أَسْـــمَاءُ   رُبَّ ثَـاوٍ يُـمَلُّ مِنـهُ الثَّـوَاءُ

هذه المعلقات السبع، ولها تَتِمَّة العشر.

فالثامنة: معلقة الأَعْشَى التي مطلعها: [البسيط]

وَدِّعْ هُرَيـرَةَ إِنَّ الرَّكْـبَ مُرْتَـحِلُ   وَهَـلْ تُطِيـقُ وَدَاعًـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ

وقد قال المفضل الضبي: من زعم أن أحدًا أَشْعَرُ من الأعشى فليس يعرف الشعر!

والتاسعة: معلقة النَّابِغَة الذُّبْيَاني التي مطلعها: [البسيط]

يَـا دَارَ مَيَّـةَ بِالعَلْيَـاءِ فَالسَّـنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيهَا سَالِفُ الأَبَدِ

والعاشرة: معلقة عَبِيد بن الأَبْرَص التي مطلعها: [مخلع البسيط]

أَقْفَـرَ مِـنْ أَهْلِـهِ مَلْحُـوبُ فَالقُطَبِيَّـاتُ فَالـذَّنُوبُ

وقد عيب على عبيد بن الأبرص كثرة التَّزْحِيف في معلقته حتى قال أبو العلاء المعري: [الطويل]

وَقَـدْ يُـخْطِئُ الـرَّأْيَ امْـرُؤٌ وَّهْـوَ حَـازِمُ كَمَا اختَلَّ فِي وَزْنِ القَرِيضِ عَبِيدُ

– من أعلام هذا العصر: زُهَير بن أبي سُلْمى وله أشعار رائقة فائقة، ومن ذلك قوله يمدح هَرِم بن سِنَان: [البسيط]

إِنَّ البَخِيـلَ مَلُـومٌ حَيـثُ كَـانَ وَلَـ ـكِنَّ الجَـوَادَ عَلَـى عِلَّاتِـهِ هَـرِمُ
هُـوَ الجَـوادُ الَّـذِي يُعْطِيـكَ نَائِلَـه عَفْـوًا وَيُظْلَـمُ أَحْيَانًـا فَيَظَّلِـمُ
وَإِنْ أَتَـاهُ خَلِيـلٌ يَّـومَ مَسْأَلَـةٍ يَّقُـولُ لَا غَائِـبٌ مَّالِي وَلَا حَرِمُ

ومن ذلك قوله: [البسيط]

قَـد جَعَـلَ الـمُبْتَغُونَ الخَيـرَ فِـي هَـرِمٍ وَّالسَّـائِلُونَ عَلَـى أَبْوَابِـهِ طُرُقَـا
إِن تَلْـقَ يَومًـا عَلَـى عِلَّاتِـهِ هَرِمًـا تَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
لَـوْ نَـالَ حَـيٌّ مِـنَ الدُّنْيَـا بِمَنزِلَـةٍ أُفْقَ السَّـمَاءِ لَنَالَـتْ كَفُّـهُ الأُفُقَـا

وقوله: "وَالسَّائِلُونَ عَلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا" قريب منه خبر ذلك الرجل الذي كان لا يملك غير نَعْلَيه، وثوبِهِ الذي عليه، فذهب إلى رجل من العلماء العاملين الـمُمَدّحين يقال له: الشيخ سِيدِيّا. فكأنه سمع صوت تيس فأنشأ قصيدة على نغمة صوت التيس، يمدح فيها الشيخ سيديّا يقول فيها: [البسيط]

مَـا لِلمَشِـيبِ وَفِعْـلَ الفِتْيَـةِ الشَّـبَبَهْ وَلِلَّبِيبِ يُوَاصِي فِي الصِّبَا خَبَبَهْ
آنَـتْ لِـذِي شَـمَطِ الفَـوْدَينِ رَجْعَتُـهُ إِنَّ القَتِيرَ لَيَحْمِي ذَا النُّهَى طَرَبَهْ

وقال فيها يصف الوفود التي على باب الشيخ:

مِـنْ مُعْتِـفٍ وَأَخِـي فَتْـوَى وَمُلْـتَمِسٍ فَصْلَ القَضَا وَمُرِيدٍ كَشْفَ مَا حُجِبَهْ
أَوْ كَشْـفَ مَسْـأَلَةٍ وَالكُـلَّ قَـدْ وَسِعَتْ جِفَانُــهُ وَلِكُــلٍّ مِّنــهُ مَــا طَلَبَــهْ
إِنْ تَسْـتَبِقْ حَلَبَـاتِ الـمَجْدِ رَاكِضَـةً خَيـلُ المَعَالِـي تَـرَاهُ سَـابِقَ الـحَلَبَهْ

ويقول في وصف تهلل وجهه إذا جاءه السائلون:

تَهَلُّلَ الأُمِّ تَأْتِي بِنتَهَا الخَطَبَهْ

وهذا على نغمة صوت التيس، لكن الشيخ المختار بن حامدن -رحمه الله تعالى- جاء بصوت العنز نفسه! فقال:

مَا زِلْتُ أَحْسِبُ زَيدًا صَادِقًا نَّبَؤُهْ حَتَّـى سَـمِعْتُ صُـرَاخَ العَنـزِ إِنْبَـأَؤُهْ

وينبغي أن تُقرَأ (إنبأؤه) بتسهيل همزاتها لأن العَنْز لا تحقِّق الهَمْز!

ومنه قول ذي الرُّمة غيلان:

لَا يُنعِشُ الطَّرْفَ إِلَّا مَا تَـخَوَّنَهُ دَاعٍ يُّنَادِيـهِ بِاسـمِ الـمَاءِ مَبْغُـومُ

بإمالة ألف (الماء) على صوت التيس.

وقريب من هذا: أن بعضهم تغرَّب عن أهله في طلب العلم، فسمع صوت عنز فتذكر دياره وعنز أهلِه فاشتاق إليهم وقال في ذلك:

قَدْ هَدَّ قَلْبِي رَسِيسُ الشَّوقِ يَلْتَاعُ لَمَّـا سَـمِعْتُ صِـياحَ العَنـزِ إِنبَـاعُ

نرجع إلى زهير!

من أحسن شعره ما قال في معلقته التي يمدح فيها هَرِمَ بنَ سِنَان والحارث بن عَوف، ويذكر سعيهما في صلح عَبْس وذُبْيَان في حرب دَاحِس والغَبْراء ويذكر تحملهما الحمالات يقول: [الطويل]

يَمِيــنًا لَنِعْــمَ السَّيِّــدَانِ وُجِدتُــمَا عَلَى كُـلِّ حَـالٍ مِّن سَحِيـلٍ وَّمُبـرَمِ

تَدَارَكْتُمَـا عَبْـسًا وَذُبْيَـانَ بَعْـدَمَا تَفَـانَوا وَدَقُّـوا بَيـنَهُمْ عِطْـرَ مَنشِـمِ
وَقَـد قُلْتُمَـا إِن نُـدْرِكِ السِّـلْمَ وَاسِعًا بِمَـالٍ وَّمَعْـروفٍ مِّنَ القَـولِ نَسْلَمِ
فَأَصْـبَحْتُمَا مِنهَـا عَلَى خَـيرِ مَـوْطِنٍ بَعِيـدَينِ فِيهَـا مِـنْ عُقُـوقٍ وَّمَـأْثَمِ
عَظِيمَيـنِ فِـي عُلْيَـا مَعَـدٍّ هُدِيتُـمَا وَمَن يَّسْتَبِحْ كَنْزًا مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ
فَأَصْـبَحَ يَجْـرِي فِـيهِمُ مِـن تِلَادِكُـمْ مَّغَانِـمُ شَتَّـى مِـنْ إِفَـالِ المُزَنَّـمِ
تُعَـفَّى الكُلُـومُ بِالمِئِيـنَ فَأَصْـبَحَتْ يُنَجِّمُهَـا مَـن لَّـيسَ فِيهَـا بِمُجْـرِمِ
يُنَجِّمُهَـــا قَـــومٌ لِّقَـــومٍ غَرَامَـــةً وَّلَـمْ يُهَرِيقُـوا بَينَهُـمْ مِـلْءَ مِـحْجَمِ

وفيها شيء من التوحيد يقول:

فَـلَا تَكْـتُمُنَّ اللهَ مَـا فِـي نُفُوسِـكُمْ لِيَخْفَـى وَمَهْمَـا يُكْـتَمِ اللهُ يَعْلَـمِ
يُـؤَخَّرْ فَيُوضَـعْ فِـي كِتَـابٍ فَيُـدَّخَرْ لِيَـومِ حِسَـابٍ أَوْ يُعَجَّـلْ فَيُـنقَمِ

ويقول في غيرها:

أَلَا لَيتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسَ مَا أَرَى مِنَ الأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَا لِيَا
بَـــدَا لِـــيَ أَنَّ اللهَ حَـــقٌّ فَزَادَنِـــي إِلَى الحَقِّ تَقْوَى اللهِ مَا قَدْ بَدَا لِيَا

وسبب حرب داحس والغبراء التي قامت بين عبس وذبيان ودامت أربعين سنة: أن قيس بن زهير العبسي وحُذَيفَة بن بدر الفَزَارِي تراهنا -بأن تسابقا في الخيل- وكان لقيس فرسان داحس والغبراء ولحذيفة فرسان الخَطَّار والحَنفَاء، واتّفقا على الغاية، فأَرْصَدت بنو ذبيان على الطريق من يزجر الغبراء أثناء المضمار فزجروها فسُبِقَت، فكان ذلك سببًا في وقوع الشر بينهم.

ونَشِبَت الحرب التي استمرت أربعين سنة، وهي التي تحَمَّل فيها هرم بن سنان والحارث بن عوف الحَمَالات.

وإذا ذكرت حرب داحس والغبراء فيحسن ذكر حرب البَسُوس.

حاصل خبر حرب البسوس: أن كُلَيب بن ربيعة من بني تَغْلب كان قد عز وساد في ربيعة وهو الذي قاد مَعَدًّا كلها يوم خزازى وفضّ جموع اليمن، فاجتمعت إليه مَعَدٌّ وتوجته وأطاعته، فداخله عُجْب كبير فبغى على قومه.

وكان من أمره أنه حمى أرضًا لا ترعى فيها إلا إبله وإبل جَسَّاس للمصاهرة التي بينهما؛ لأنه كانت تحته أخت جساس، ثم إن خالة الجساس واسمها البسوس كانت لجارٍ لها ناقةٌ يقال لها سَرَاب، هذه الناقة وردت حمى كليب فرآها كليب في نوقه فغضب ورماها بسهم أنفذ ضرعها فرجعت الناقة وضرعها يشخب دمًا ولبنًا حتى بركت بفناء صاحبها فصاح: واذلَّاه. فلما سمعت البسوس -وكانت قد أجارته- نادت هي الأخرى واذلَّاه، فغضب جساس وقال: والله لَيُقْتَلَنَّ غدًا جمل عظيم أعظم عقرًا من ناقة جارك —يريد بذلك كليبًا- فبلغ ذلك كليبًا فظن أنه أراد قتل عُلَيَّان وهو فحل كريم له، فقال: هيهات دُونَ عُلَيَّان خَرْطُ القَتَاد.

ثم إن كليبًا مَرَّ ببني بكر على ماء يقال له: شُبَيث فمنعهم منه وهم عطاش، ثم مروا على ماء آخر يقال له: الأَحَصّ فمنعهم منه، ثم مر على ماء ثالث يقال له: الذَّنَائِب فمنعهم منه، فتبعه جساس وقال له: طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! قال: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. قال: فما حملك على ما فعلت بالناقة؟ وطعنه بالرمح فلمَّا وجد كليب طعم الموت قال: يا جساس اسقني ماء. قال: هيهات! تجاوزت شُبيثا والأحص ولم تشرب ومنعتنا منه. وكان مع جساس رجل من عشيرته يقال له: عمرو بن الحارث، فقال له كليب: يا عمرو أغثني بشربة ماء! فنزل عمرو عن فرسه واحتز رأسه، فقيل:

الـمُسْتَجِيـرُ بِعَمْـرٍو عِنـدَ كُرْبَتِـهِ　　　كَالـمُسْتَجِيرِ مِـنَ الرَّمْضَـاءِ بِالنَّـارِ

ثم إن قوم كليب اجتمعوا وانطلق رهط من أشرافهم إلى مُرَّةَ بنِ ذهل والدِ جساس، وقالوا: إنكم قد أتيتم أمرًا عظيمًا بقتلكم كليبًا بناقة، وقطعتم رحمكم! وإنا نعرض عليكم خلالًا أربعًا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع: إما أن تحيوا لنا كليبًا، وإما أن تدفعوا إلينا جسَّاسًا

فنقتله به، وإما أن تدفعوا إلينا همَّامًا فنقتله به فإنه له كفء -وَهَمَّام أخو جساس وهو من أشرافهم-، وإما أن تُقِيدَنا من نفسك فإن فيك وفاءً لدمه.

فقال مُرَّةُ بن ذهل: أما إحياء كليب فلا قدرة لأحد به، وأما جساس فغلام غِرٌّ طعن طعنة انخلع لها قلبه فلا أدري أين ذهب، وأما همام فأبو العشرة وأخو العشرة وعم العشرة ويوشك إن دفعته إليكم أن تصيح بنوه في وجهي فتقول دفعت أبانا للقتل بجَرِيرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت ولكنْ لكم عندي خَصلتان أما إحداهما فهؤلاء أبنائي خذوا أيا منهم بِنِسعة في رقبته واقتلوه بكليب، وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمْر الوبر.

فغضبوا وقالوا: إنا لم نأتك لترذل لنا بنيك -أي لتعطينا رُذال بنيك ورذال كل شيء رديئه- ولا لتسومنا اللبن!

فتفرقوا وثارت الحرب التي دامت أربعين سنة وقتَلَ منهم مهلهلٌ -أخو كليب- جمًّا غفيرًا، وكان الحَارثُ بن عُبَاد سيِّدَ بكر وفارسَها، وكان قد اعتزل الحرب وقال: لا ناقة لي بها ولا جمل فأرسلها مثلًا فقيل له: إن مهلهلًا قد كاد يُفني قومَك فأرسِل إليه، فأرسَلَ إليه ابنًا له يقال له بُجَير، وقال له: قل لمهلهل: أبي يقرئك السلام ويقول لك: قد علمتَ أني اعتزلت الحرب وخليتك مع قومي تفعل بهم ما تشاء، وقد أدركتَ وِتْرَك، وقتلت قومك، أنشدك البقية فيهم. فأتى بجير حتى وقف على مهلهل وهو في نادي قومه فبلَّغه الرسالة. فصمد إليه مهلهل بالرمح ورماه به وقال: بُؤْ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيب! فقال الغلام: إن رَضِيَتْ بذلك بنو بكر رَضِيْتُ، فلما بلغ الحارثَ بن عباد مقتلُ بجير قال: نِعْم القتيل قتيلًا أصلح الله به بين بكر وتغلب وباء بدم كليب. فقالوا: إن مهلهلًا قال: بؤ بشسع نعل كليب. فلم يصدق وأرسل إلى مهلهل يقول: إن كنت قتلت ابني بكليب فقد رضيت، فقال مهلهل: إنما قتلته بشسع نعل كليب! فغضب وأنشأ يقول: [الخفيف]

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ... لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ... إِنَّ بَيعَ الكِرَامِ بِالشِّسْعِ غَالِي
قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ... لِبُكَاءِ الشُّيُوخِ وَالأَطْفَالِ

قَرِّبَــا مَــرْبِطَ النَّعَامَـــةِ مِنِّـــي   لِـــحَنِينِ النِّسَـــاءِ وَالإِعْـــوَالِ
قَرِّبَــا مَــرْبِطَ النَّعَامَـــةِ مِنِّـــي   شَـابَ رَأْسِـي وَأَنكَرَتْنِـي رِجَالِـي
لَـمْ أَكُـن مِّـن جُنَاتِـهَا عَلِـمَ اللـ   ـهُ وَإِنِّـي بِحَرِّهَـا اليَـومَ صَالِـي
لَا بُجَيــرٌ أَغْنَــى قَتِـيلًا وَّلَا رَهْــ   ـطُ كُلَيـبٍ تَزَاجَـرُوا عَـن ضَـلَالِ

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة تبلغ أبياتها نحو المئة كرَّر: "قرّبا مربط النعامة مني" في نحو خمسين بيتًا كما في نهاية الأرب في فنون الأدب، والذي في الأصمعيات من القصيدة ثلاثة أبيات: البيت الأول والبيتان الأخيران والنعامة اسم فرسه.

ثم شَمَّر لحرب تغلب، حتى كاد يُبيدهم ولم تقم بعده لتغلب راية، وقد أشار إلى هذا في عمود النسب بقوله: [الرجز]

وَابْنَــاهُ تَغْلِــبُ وَبَكْــرٌ قَامَــا   عَلَــى الشِّــقَاقِ أَرْبَعِــينَ عَامَــا
أَنْ غَالَ جَسَّاسٌ كُلَيبَ التَّغْلِبِي   لِقَتْلِــــهِ نَاقَـــةَ خَالَـــةِ الأَبِي
وَوَضَـــحٌ يَسْتُـــرُهُ بِرُكْبَتِـــهْ   أَبْـــرَزَهُ نَـــجَاؤُهُ مِـــن فَتْكَتِـــهْ
وَغُلِبَــتْ تَغْلِــبُ حَــتَّى كَلَّمُــوا   فِـي الأَرْضِ حَارِثًـا عَسَـاهُ يَـرْحَمُ

يشير إلى أن الحارث بن عُباد حلف أن لا يترك قتالهم حتى يكلموه من تحت الأرض، فلما كثرت وقائعه في تغلب ورأت تغلب أنها لا تقوم له حفروا سَرَبًا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلًا وقالوا له: إذا مَرَّ بك الحارث فأنشده هذا البيت: [الطويل]

أَبَـا مُنـذِرٍ أَفْنَيـتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَـنَا   حَنَانَيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِن بَعْضِ

فلما مرَّ الحارث اندفع الرجل وأنشد هذا البيت، فقيل للحارث: قد بَرَّ بقسمك فأبقِ بقية قومك، فأمسك، واصطلحت بكر وتغلب.

– ومن أعلام هذا العصر: دُرَيد بن الصِّمَّة وقد عُمِّر حتى أدرك الإسلام وشهد معركة حنين، لكنه كان في الجانب الآخر في صف المشركين، وقد قُتِل فيها مع أنه كان شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه لأنه شارك برأيه.

قال دريد يرثي أخاه ويمدحه: [الطويل]

قَلِيلُ التَّشَكِّي(١) لِلمُصِيبَاتِ حَافِظٌ ... مَعَ اليَومِ أَعْقَابَ الأَحَادِيثِ فِي غَدِ
كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... صَبُورٌ عَلَى الضَّرَّاءِ طَلَّاعُ أَنجُدِ
صَبَا مَا صَبَا حَتَّى إِذَا شَابَ رَأْسُهُ ... وَأَحْدَثَ حِلْمًا قَالَ لِلبَاطِلِ ابعَدِ

وقوله: "كميش الإزار": يدل على أن العرب كانت تمدح تقصيرَ الثوب ورَفْعَهُ عن الكعبين في الجاهلية، ذكر هذا ابن عبدالبر في التمهيد، فقال: تكميش الإزار إلى نصف الساق كانت العرب تمدح فاعله ثم جاء الله بالإسلام فسَنَّهُ النبي –صلى الله عليه وسلم– وأورد هذه الأبيات، وأورد فيما أورد قول مُتمِّم بن نُويرَة –وسيأتينا خبره إن شاء الله في عصر صدر الإسلام– يرثي أخاه: [الطويل]

تَرَاهُ كَنَصْلِ السَّيفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى ... وَلَيسَ عَلَى الكَعْبَينِ مِن ثَوبِهِ فَضْلُ

وقال أبو عبيد العُجَير السلولي: [الطويل]

وَكُنتُ إِذَا دَاعٍ دَعَا لِمَعُونَةٍ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يُنصِفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

ومنه قول أبي طالب يمدح النبي –صلى الله عليه وسلم– في قصيدته البحرية: [الطويل]

طَوِيلُ النِّجَادِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الغَمَامُ وَيُسْعِدُ

ولأبي طالب قصيدة لاميّة قال عنها ابن كثير قولًا حملته عليه عاطفته الدينية الصادقة التي يؤجر عليها صاحبها –إن شاء الله– وإن كانت لا تتفق مع معيار الشعر عند النقاد الذين لا ينظرون إلى نبل المعاني وإنما ينظرون إلى جودة الشعر ألفاظًا وتراكيب ولكل أهل فن معيارهم قال رحمه الله تعالى: هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جدًّا، لا يستطيع أن يقولها إلا من نُسِبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعًا.

---

(١) أي لا يتشكَّى، وهذا كثير في اللغة أعني إطلاق القليل وإرادة العدم ومنه قول الطرماح يمدح يزيد بن المهلب:

أشم كثير يُدِيِّ النوال ... قليل المثالب والقادحهْ

أي: لا مثلبة فيه ولا قادحة. وقد حمل عليه قوله تعالى: (لاتبعتم الشيطن إلا قليلا) قال قتادة: لاتبعتم الشيطان كلُّكم.

وهي لاميّته التي قالها في الشِّعب فيما يُذكر، يقول فيها: [الطويل]

وَلَمَّــا رَأَيــتُ القَــومَ لَا وُدَّ فِــيهِمُ ... وَقَـد قَطَّعُـوا كُـلَّ العُـرَى وَالوَسَـائِلِ
وَقَــد صَــارَحُونَا بِالعَــدَاوَةِ وَالأَذَى ... وَقَـد طَـاوَعُوا أَمْـرَ العَـدُوِّ الـمُزَايِلِ
وَقَــدْ حَــالَفُوا قَومًــا عَلَينَــا أَظِنَّــةً ... يَّعَضُّــونَ غَيظًــا خَلْفَنَــا بِالأَنَامِــلِ
صَبَرْتُ لَـهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ ... وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِّن تُرَاثِ الـمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِندَ البَيتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَـكْتُ مِـنْ أَثْوَابِـهِ بِالوَصَـائِلِ
قِيَامًــا مَّعًــا مُّسْــتَقْبِلِينَ رِتَاجَــه ... لَدَى حَيثُ يَقْضِي حِلْفَهُ كُلُّ نَافِلِ

إلى أن قال:

أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّـاسِ مِـن كُـلِّ طَاعِنٍ ... عَلَينَــا بِسُــوءٍ أَوْ مُلِــحٍّ بِبَاطِــلِ
وَمِــن كَاشِــحٍ يَّسْـعَى لَنَـا بِـمَعِيبَةٍ ... وَّمِن مُّلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلِ

إلى أن قال:

كَـذَبتُمْ وَبَيــتِ اللهِ نَتْـرُكُ مَكَّــةً ... وَنَظْعَــنُ إِلَّا أَمْــرُكُمْ فِي بَلَابِــلِ
كَذَبتُمْ وَبَيتِ اللهِ نُبْزَى مُـحَمَّدًا ... وَّلَمَّــا نُطَــاعِنْ دُونَــهُ وَنُنَاضِــلِ
وَنُسْــلِمُهُ حَــتَّى نُصَــرَّعَ حَوْلَــهُ ... وَنُــذْهَلَ عَــنْ أَبْنَائِنَـا وَالـحَلَائِلِ

هذا البيت تمثل به عُبيدة بن الحارث بن المطلب في قصة، وذلك أنه كان أحد المبارزين يوم بدر، وكان أسنّ جيش المسلمين، كان عمره ثلاثًا وستين سنة، فاختلف هو وقِرْنه -قيل: عتبة بن ربيعة وقيل: الوليد بن عتبة- بينهما ضربتين، وأثبت كل واحد منهما صاحبه -أي جرحه جراحة لا يقوم معها- وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على قرنه فذفّفا عليه -أي أجهزا عليه وأسرعا قتله- واحتملا عبيدةَ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال عبيدة وهو في السياق وقد وُضِع رأسه على قدم النبي -صلى الله عليه وسلم-: والله وددت لو أن أبا طالب حيٌّ؛ حتى يعلم أني أحق منه بقوله:

وَنُسْــلِمُهُ حَــتَّى نُصَــرَّعَ حَوْلَــهُ ... وَنُــذْهَلَ عَــنْ أَبْنَائِنَـا وَالـحَلَائِلِ

قال أبو طالب بعد ذلك:

وَمَا تَـرْكُ قَـومٍ لَّا أَبَـا لَـكَ سَيِّدًا ... يَـحُوطُ الـذِّمَارَ غَـيرَ ذَرْبٍ مُّوَاكِلِ
وَأَبْيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ... ثِـمَالَ اليَتَـامَى عِصْـمَةً لِلْأَرَامِـلِ
يَلُـوذُ بِـهِ الـهُلَّاكِ مِـنْ آلِ هَاشِـمٍ ... فَهُـمْ عِنـدَهُ فِـي رَحْـمَةٍ وَّفَوَاضِـلِ

إلى أن قال:

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبدَ شَمْسٍ وَّنَوفَلًا ... عُقُوبَـةَ شَـرٍّ عَـاجِلًا غَـيرَ آجِـلِ
بِـمِيزَانِ قِسْـطٍ لَّا يَخِـسُّ شَعِيـرَةً ... لَّـهُ شَـاهِدٌ مِّـن نَفْسِـهِ غَـيرُ عَائِلِ

إلى أن قال:

لَعَمْرِي لَقَد كُلِّفْتُ وَجْدًا بِأَحْـمَدٍ ... وَإِخْوَتِـهِ دَأْبَ الـمُحِبِّ الـمُوَاصِلِ
فَلَا زَالَ فِي الدُّنيَا جَـمَالًا لِّأَهْلِهَا ... وَزَينًـا لِّمَـن وَّالَاهُ ذَبَّ الـمَشَاكِلِ
فَمَن مِّثْلُهُ فِـي النَّاسِ أَيُّ مُـمَلَّكٍ ... إِذَا قَاسَـهُ الـحُكَّامُ يَـومَ التَّفَاضِـلُ
حَكِـيمٌ رَشِـيدٌ عَاقِـلٌ غَـيرُ طَـائِشٍ ... يُّوَالِـي إِلَـهًا لَّـيسَ عَنـهُ بِغَافِـلِ
فَـوَاللهِ لَـوْلَا أَنْ أَجِـيءَ بِسُـبَّةٍ ... تُـجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الـمَحَافِلِ
لَكُنَّـا اتَّبَعْنَـاهُ عَلَـى كُـلِّ حَالَـةٍ ... مِّنَ القَولِ جِدًّا غَيرَ قَولِ التَّهَازُلِ
لَقَـد عَلِمُـوا أَنَّ ابنَنَـا لَا مُكَـذَّبٌ ... لَّـدَينَا وَلَا يُعْـنَى بِقَـولِ الأَبَاطِـلِ
فَأَصْـبَحَ فِينَـا أَحْـمَدٌ فِـي أَرُومَـةٍ ... تَقْصِّـرُ عَنـهُ سَـورَةُ الـمُتَطَاوِلِ
حَـدَبتُ بِنَفْسِـي دُونَـهُ وَحَـمَيتَهُ ... وَدَافَعْـتُ عَنهُ بِالـذُّرَى وَالكَلَاكِلِ
فَأَيَّـدَهُ رَبُّ العِبَـادِ بِنَصْـرِهِ ... وَأَظْهَـرَ دِينًـا حَقُّـهُ غَـيرُ نَاصِـلِ
رِجَـالٌ كِـرَامٌ غَـيرُ مِيـلٍ نَّـمَاهُمُ ... إِلَـى الخَيـرِ آبَاءٌ كِرَامُ الـمَخَاصِلِ

ومن شعره قوله: [الكامل]

وَاللهِ لَـن يَّصِـلُوا إِلَيـكَ بِـجَمْعِهِمْ ... حَتَّـى أُوَسَّـدَ فِـي التُّـرَابِ دَفِينَـا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيكَ غَضَاضَةٌ ... وَّابشَـرْ وَقَـرَّ بِـذَاكَ مِنـكَ عُيُونَـا
وَدَعَـوْتَنِي وَزَعَمْـتَ أَنَّـكَ نَاصِـحِي ... وَلَقَـدْ صَـدَقْتَ وَكُنـتَ ثَـمَّ أَمِينَـا

وَعَرَضْــتَ دِينًــا لَّا مَــحَالَةَ إِنَّــهُ مِــنْ خَــيرِ أَدْيَــانِ البَرِيَّــةِ دِينَــا
لَــوْلَا الــمَلَامَةُ أَوْ حِــذَارِي سُــبَّةً لَوَجَدتَّنِــي سَــمْحًا بِــذَاكَ مُبِينَــا

ومن شعره قصيدته البحرية التي مدح بها الذين سعوا في نقض الصحيفة يقول: [الطويل]

أَلَا هَــلْ أَتَــى بَــحْرِيَّنَا صُــنْعُ رَبِّنَــا عَلَــى نَــأْيِهِمْ وَاللهُ بِالنَّــاسِ أَرْوَدُ
فَيُخْبِــرَهُمْ أَنَّ الصَّــحِيفَةَ مُزِّقَــتْ وَأَنْ كُلُّ مَا لَـمْ يَرْضَـهُ اللهُ مُفْسَدُ

وفيها يقول:

وَيَظْعَنُ أَهْلَ الـمَكَّتَينِ[1] فَيَهْرُبُوا فَرَائِصُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الشَّرِ تُرْعَدُ

وفيها يقول يمدح النبي -صلى الله عليه وسلم- بالبيت السابق:

طَوَيلُ النِّجَادِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الغَمَامُ وَيُسْعِدُ

هذا آخره والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) المكتين: يقصد جانبي مكة أو الظواهر والبطاح، وعليه حمل قوله تعالى: (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين) ثم قال: (ودخل جنته) فيكون المقصود بالجنتين جانبي الجنة. وهذا كثير في الشعر.

المجلس الثاني عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

٢/ عصر صدر الإسلام:

* من شعر أبي بكر الصديق.

* أشعر الناس عند عمر بن الخطاب.

* بيتان قيل إن عليَّ بنَ أبي طالب لم يقل شيئًا من الشعر غيرهما.

* قصة إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى، وقصيدته بانت سعاد.

* الخنساء ورثاؤها لأخويها.

* حسان بن ثابت وشيء من أشعاره في المدح والرثاء والهجاء والاعتذار والفخر والدفاع عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- قصيدة ابن بهيج الأندلسي على لسان عائشة الصِّدِّيقة.

* بيت كعب بن مالك الذي أسلمت قبيلة دوس فرَقًا منه.

* شعر خبيب بن عدي الذي قاله حين بلغه أن قريشًا قد اجتمعوا لصلبه.

* متمم بن نويرة ورثاؤه لأخيه.

- قصيدة المختار بن حامدن التي قالها لما بلغ مئة سنة وتشبيهه نفسه بالذي قتل مئة نفس.

- خبر مالك بن الرَّيب وقصيدته التي رثى بها نفسه.

* خبر كتاب عبدالملك بن مروان للحجاج: أنت عندي كسالم والسلام.

* منشأ الوهم في تسمية الجلدة بين العين والأنف بسالم.

* قول ابن سيدة في الجمار: هي التي ترمى بعرفة. واعتذار الحافظ ابن حجر عنه.

* من رجز السيرة. وأبيات تتابع الناس على نقلها غير موزونة.

* خبر هجاء الحطيئة للزبرقان وإرادة عمر قطع لسانه.

* الحطيئة يهجو نفسه.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فما زال الكلام في عصور الأدب، وقد فرغنا من الكلام على العصر الجاهلي، وهذا **عصر صدر الإسلام.**

- ومن أعلامه: أبو بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنه- قال في سرية عبدالله بن جحش -رضي الله عنه- التي نزل في شأنها {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} ونزل في عبدالله بن جحش وأصحابه {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ} الآية. لمّا قالت قريش: إن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه قد أحلوا الشهر الحرام وقاتلوا فيه قال أبو بكر يرد عليهم: [الطويل]

تَعُـدُّونَ قَتْـلًا فِـي الحَـرَامِ عَظِيمَـةً ... وَأَعْظَمُ مِنهَا لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ

صُدُودُكُـمُ عَمَّـا يَقُـولُ مُحَمَّـدٌ ... وَكُفْـرٌ بِـهِ وَاللهُ رَاءٍ وَشَاهِـدُ

وهذا مطابق للآية {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ}.

ولما قدم أبو بكر المدينة وأصابته الحُمَّى ولقي من شدة الوَعْكِ ما لقي كان ينشد ويتمثل: [الرجز]

كُـلُّ امْـرِئٍ مُصَبَّحٌ فِـي أَهْلِـهِ ... وَالمَوتُ أَدْنَى مِن شِرَاكِ نَعْلِهِ

وقال للأنصار يشكر لهم إيثارهم المهاجرين على أنفسهم: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرًا! فوالله ما مَثَلُنا ومَثَلُكم إلا كما قال الغَنَوي: [الطويل]

جَـزَى اللهُ عَنَّـا جَعْفَـرًا حِيـنَ أُزْلِقَـتْ ... بِنَـا نَعْلُنَـا فِـي الوَاطِئِيـنَ فَزَلَّـتِ

هُـمُ خَلَطُونَـا بِـالنُّفُوسِ وَأَلْـجَأُوا ... إِلَـى حُجُـرَاتٍ أَدْفَـأَتْ وَأَظَلَّـتِ

أَبَـوا أَن يَمَلُّونَـا وَلَـوْ أَنَّ أُمَّنَـا ... تُـلَاقِي الَّـذِي لَاقَـوهُ مِنَّـا لَمَلَّـتِ

- وعمر بن الخطاب ﷺ روي أنه قال في انصرافه من حجته التي لم يحج بعدها:

الحمد لله ولا إله إلا الله، يعطي من يشاء ما يشاء، لقد كنت بهذا الوادي -يعني ضَجنان- أرعى إبلًا للخطاب، وكان فظًّا غليظًا يُتعبني إذا قصّرت، وقد أصبحت وأمسيت، وليس بيني وبين الله أحد أخشاه، ثم تمثل بأبيات تُنسب لورقة بن نوفل: [البسيط]

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ   يَبْقَى الإِلَهُ وَيَفْنَى المَالُ وَالوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ   وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سُلَيمَانُ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ   وَالجِنُّ وَالإِنسُ فِيمَا بَينَهَا تَرِدُ
أَيْنَ المُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ لِعِزَّتِهَا   مِن كُلِّ أَوْبٍ إِلَيهَا وَافِدٌ يَفِدُ
حَوضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ   لَا بُدَّ مِن وِرْدِهِ يَومًا كَمَا وَرَدُوا

وفيها أبيات تُنسب لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت.

وكان عمر ﵁ يستعذب الشعر الفحل، ويستشهد به ويوصي به.

قال -رضي الله عنه-: رَوُّوا أولادكم الشعر؛ تَتَهذَّبْ طباعهم وتَرِقَّ ألسنتهم.
وكان له نظر في الشعراء، قال يومًا لبعض جلسائه: من أشعر الناس؟ فأجاب كلٌّ بما عنده، فقال: أشعرهم مَن يقول: ومَن ومَن.
يعني زهير بن أبي سلمى، لأنه أكثر منها في آخر معلقته: [الطويل]

وَمَن يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ   عَلَى قَومِهِ يُسْتَغْنَ عَنهُ وَيُذْمَمِ
وَمَن يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ   وَمَن لَا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لَا يُكَرَّمِ
وَمَن لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ   يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ

وينسب لعثمان ﵁ أنه قال: [الطويل]

غِنَى النَّفْسِ يُغْنِي النَّفْسَ حَتَّى يَكُفَّهَا   وَإِنْ عَضَّهَا حَتَّى يَضُرَّ بِهَا الفَقْرُ
وَمَا عُسْرَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا إِن لَقِيتَهَا   بِكَائِنَةٍ إِلَّا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ

يُروى أن المتوكل قال يومًا لجلسائه: إن أبا بكر لما تَسَنَّم المنبر هبط من مقام النبي –صلى الله عليه وسلم– بمرقاة –أي بدرجة– ثم قام عمر دون أبي بكر، وصعد عثمان ذروة المنبر!

فقال بعض مَن حضر: ما أحدٌ أعظمَ مِنَّةً عليك من عثمان يا أمير المؤمنين!

قال له: وكيف ذلك؟ قال: لو أنه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان لكنت الآن تخطُبنا من بئر! فضحك المتوكل وضحك من حوله.

– ومن أولئك: علي ﷺ له قصة يذكرها شُرَّاح مختصر خليل عند قوله: (وهي المنبرية لقول علي صار ثَمنُها تُسعًا)، وهي أن عليًّا –رضي الله عنه–كان يخطب يقول: "الحمد لله الذي يحكم بالحق قَطْعا، ويجزي كلَّ نفس بما تسعى، وإليه المعاد والرُّجْعى" فسئل وهو على المنبر عن زوجة وأبَوَين وابنتين، فقال: "صار ثُمُنُها تُسْعا" –على السجع–!

ومن شعره قوله: [البسيط]

تِلْكُـمْ قُـرَيشٌ تَمَنَّانِـي لِتَقْتُلَنِـي فَـلَا وَرَبِّـكَ مَـا بَـرُّوا وَلَا ظَفِـرُوا
فَـإِنْ هَلَكْـتُ فَـرَهْنٌ ذِمَّتِـي لَـهُمُ بِـذَاتِ وَدْقَيـنِ لَا يَعْفُـو لَـها أَثَـرُ

العجيب أن صاحب القاموس في مادة (وَدَقَ) قال: قال المازني: لم يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين وَصَوَّبه الزمخشري.

ثم إن صاحب القاموس في كلامه على مُخَيِّس قال: سِجْن بناه علي –رضي الله عنه– وكان أولًا جعله من قَصَب وسماه نافعًا فنقبه اللصوص فقال: [مشطور الرجز]

أَمَـا تَرَانِـي كَيِّسًـا مُكَيِّسَـا
بَنَيْـتُ بَعْـدَ نَافِـعٍ مُخَيِّسَا
بَابًـا حَصِـينًا وَّأَمِينًـا كَيِّسَـا

وقد وُفِّق بينهما بأن الرجز ليس بشعر، وليس كذلك فالرجز من الشعر والمُثْبِت مُقدَّم على النافي، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

والشعر المنقول عنه كثير -من الرجز وغيره- وفي صحيح مسلم أنه لما برز لمرحب في فتح خيبر، قال: [مشطور الرجز]

أَنَـا الَّـذِي سَمَّتْـنِ أُمِّـي حَيْـدَرهْ
كَلَيـثِ غَابَـاتٍ كَـرِيهِ المَـنظَرَهْ
أُوفِـيهُمُ بِالصَّـاعِ كَـيلَ السَّـندَرَهْ

وكان الفتح على يديه ﵁.

ويُنسب إليه -وهو في ديوانه-: [الطويل]

وَفِي قَبْضِ كَفِّ الطِّفْلِ عِندَ وِلَادِهِ دَلِيلٌ عَلَى الحِرْصِ المُرَكَّبِ فِي الحَيِّ
وَفِي بَسْطِهَا عِندَ المَمْاتِ مَوَاعِظٌ أَلَا فَانظُرُونِـي قَـدْ خَرَجْـتُ بِـلَا شَـيِّ

- ومن أولئك: كعب بن زهير، والده زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة.

ساق الله كعبًا للإسلام، وكان من خبر إسلامه أن أخًا له يقال له: بُجَير أسلم قبله، فأغضب ذلك كعبًا وكتب إليه: [الطويل]

أَلَا أَبْلِغَـا عَنِّـي بُجَيـرًا رِسَالَـةً فَهَل لَّكَ فِيمَا قُلْتَ وَيْحَكَ هَل لَّكَا
فَبَيِّـن لَّنَـا إِن كُنـتَ لَسْـتَ بِفَاعِـلٍ عَلَـى أَيِّ شَـيْءٍ غَيـرَ ذَلِـكَ دَلَّكَـا
عَلَى خُلُـقٍ لَّـمْ تُلْـفِ أُمًّـا وَّلَا أَبًـا عَلَيـهِ وَلَـمْ تُـدْرِكْ عَلَيـهِ أَخًـا لَّكَـا
فَإِن كُنتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِآسِفٍ وَّلَا قَائِـلٍ إِمَّـا عَثَـرْتَ لَعًـا لَّكَـا
سَـقَاكَ بِـهَا المَأْمُـونُ كَأْسًـا رَوِيَّـةً فَأَنْـهَلَكَ المَـأْمُونُ مِنهَـا وَعَلَّكَـا

فأجابه بجير بأبيات قال فيها: [الطويل]

فَمَن مُّبْلِغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُـومُ عَلَيهَـا بَـاطِلًا وَّهْـيَ أَحْـزَمُ
إِلَى اللهِ لَا العُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنجُـو إِذَا كَـانَ النَّجَـاءُ وَتَسْـلَمُ
لَـدَى يَومَ لَا يَنجُو وَلَيسَ بِـمُفْلِتٍ مِّـنَ النَّـاسِ إِلَّا طَـاهِرُ القَلْـبِ مُسْـلِمُ
فَـدِينُ زُهَيـرٍ وَّهْـوَ لَا شَـيْءَ دِينُـهُ وَدِيـنُ أَبِـي سُـلْمَى عَلَـيَّ مُحَـرَّمُ

وكتب إليه: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قتل رجالًا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي مِن شعراء قريش قد هربوا في كل وجه، فإن كان لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبا.

فلما وصل الكتاب إلى كعب أتى قبيلته مُزَينة لتُجِيره من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأبوا ذلك عليه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت وأشفق على نفسه، وأَرْجَف الوشاة به وقالوا: إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول. كما ذكره في قصيدته بانت سعاد، فخرج يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة فنزل على رجل من جُهَينة كانت بينَهُ وبينَهُ معرفة، فغدا به إلى المسجد وأشار له إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذهب إليه كعب ووضع يده في يده وكان رسول -صلى الله عليه وسلم- لا يعرفه فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاءك ليستأمِنَك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: نعم. قال: أنا كعب بن زهير. فوثب رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أضرِب عنقه. فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه.

فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار ووجد في نفسه، وأنشد قصيدته بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-: [الطويل]

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

إلى أن قال:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَّتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

إلى أن قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُّسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِّن سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِي عُصْبَةٍ مِّن قُرَيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَّلَا كُشُفٌ   عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ

ويقال: إن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال له بعد أن فرغ من إنشاده قصيدته: لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل، فقال كعب:

[الكامل]

مَن سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ   فِي مِقْنَبٍ مِّن صَالِحِي الأَنصَارِ
وَرِثُوا المَكَارِمَ كَابِرًا عَن كَابِرٍ   إِنَّ الخِيَارَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ

في قصيدة يمدح فيها الأنصار ويذكر بلاءهم مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وموضعهم من اليمن.

وفي هذا يقول صاحب الشمقمقية:

وَقَدْ حَبَا كَعْبًا غَدَاةَ مَدْحِهِ   بِبُرْدَةٍ وَّمِئَةٍ مِّنْ أَينُقِ

يقول: إن النبي –صلى الله عليه وسلم– أعطاه على هذا الشعر بُرْدَتَه ومئة ناقة.

يقال: إن معاوية بذل في هذه البردة لكعب عشرة آلاف درهم فامتنع وقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أحدًا، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألف درهم فأعطوه البردة.

– ومن أولئك: الخنساء –رضي الله عنها–، وكان لها أخوَان: معاوية وصخر، وكان معاوية أخاها لأبيها وأمها ومات قبل صخر فبكته في أشعار كثيرة، منها قولها: [الوافر]

أَرِيقِي مِن دُمُوعِكِ وَاسْتَفِيقِي   وَصَبْرًا إِنْ أَطَقْتِ وَلَن تُطِيقِي
وَقُولِي إِنَّ خَيرَ بَنِي سُلَيمٍ   وَّفَارِسَهُمْ بِصَحْرَاءِ العَقِيقِ

ثم مات بعد ذلك صخر فأنستها مصيبتُها به مصيبتَها بمعاوية، وقالت فيه أشعارًا كثيرة، منها قولها: [البسيط]

قَذًى بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوَّارُ   أَمْ ذَرَّفَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

إلى أن قالت:

وَإِنَّ صَــخْرًا لَوالِينَــا وَسَــيِّدُنَا وَإِنَّ صَــخْرًا إِذَا نَشْــتُو لَنَحَّــارُ
وَإِنَّ صَــخْرًا لَّتَأْتَــمُّ الــهُدَاةُ بِــهِ كَأَنَّــهُ عَلَــمٌ فِــي رَأسِــهِ نــارُ

وقالت فيه أيضًا: [المتقارب]

أَعَيْنَــيَّ جُــودَا وَلَا تَــجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَــانِ لِصَــخْرِ النَّــدَى
أَلَا تَبْكِيَـانِ الـجَـرِيْءَ الـجَمِيلَ أَلَا تَبْكِيَــانِ الفَتَــى السَــيِّدا
طَوِيــلُ النِجَــادِ رَفِيــعُ العِمَــادِ سَــــادَ عَشِيْرَتَــــهُ أَمْــــرَدَا
إِذَا القَــومُ مَــدُّوا بِأَيــدِيهِمُ إِلَــى الــمَجْدِ مَــدَّ إِلَيــهِ يَــدا
فَنَــالَ الَّــذِي فَــوقَ أَيْــدِيهِمُ مِـنَ الـمَجْدِ ثُـمَّ غَـدَا مُصْـعِدا
يُكَلِّفُــهُ القَــومُ مَــا عَالَــهُمْ وَإِن كَــانَ أَصْــغَرَهُمْ مَولِــدَا
وَإِن ذُكِــرَ الــمَجْدُ أَلفَيتَــهُ تَــأَزَّرَ بِالــمَجْدِ ثُــمَّ ارْتَــدَى

قال ابن الونان في الشمقمقية:

وَابْـكِ عَلَـى ذَنـبٍ وَقَلْـبٍ قَـدْ قَسَـا كَالصَّــخْرِ مِــنْ هَــوَاهُ لَمْ يَسْــتَفِقِ
بِمُقْلَــــةٍ كَمُقْلَــــةِ الخَنْسَــــاءِ إِذْ تَبْكِــي عَلَــى صَــخْرٍ بِــلَا تَرَفُّــقِ

- ومن أولئك: حسان -رضي الله عنه- شاعر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، من شعره قوله في ابن عباس -رضي الله عنهما-: [الطويل]

إِذَا مَـا ابـنُ عَبَّـاسٍ بَـدَا لَـكَ وَجْهُـهُ رَأَيْـتَ لَـهُ فِـي كُـلِّ أَحْوالِـهِ فَضْـلَا
إِذَا قَـالَ لَــمْ يَتْــرُكْ مَقَــالًا لِّقَائِــلٍ بِمُنتَـظِمَاتٍ لَّا تَـرَى بَيْنَهَـا فَصْـلَا
كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يَدَعْ لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَولِ جِدًّا وَّلَا هَزْلَا

ومن ذلك قولُه يبكي المُطْعِم بن عَدِي حين مات ويذكر قيامه في نقض الصحيفة وإجارته للنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: [الطويل]

أَيَا عَيْـنُ فَابْكِي سَيِّدَ القَوْمِ وَاسْفَحِي بِـدَمْعٍ وَإِنْ أَنْزَفْتِـهِ فَاسْكُبِـي الـدَّمَا
وَبَكِّــي عَظِـيمَ المَشْعَرَيْــنِ كِلَيْهِمَــا عَلَـى النَّـاسِ مَعْرُوفًـا لَّـهُ مَـا تَكَلَّمَـا
فَلَـوْ أَنَّ مَـجْدًا أَخْلَـدَ الـدَّهْرَ وَاحِـدًا مِّنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمَا

أَجَـرْتَ رَسُـولَ اللهِ مِـنْهُمْ فَأَصْـبَحُوا   عَبِيـدَكَ مَـا لَبَّـى مُهِـلٌّ وَّأَحْرَمَـا
فَلَـوْ سُـئِلَتْ عَنْـهُ مَعَـدٌّ بِأَسْـرِهَا   وَقَـحْطَانُ أَوْ بَـاقِي بَقِيَّـةِ جُرْهُـمَا
لَقَـالُوا هُـوَ المُوفِـي بِخُفْـرَةِ جَـارِهِ   وَذِمَّتِـهِ يَوْمًـا إِذَا مَـا تَذَمَّـمَا
فَمَـا تَطْلُـعُ الشَّـمْسُ المُنِيـرَةُ فَـوْقَهُمْ   عَلَـى مِثْلِـهِ فِـيهِمْ أَعَـزَّ وَأَعْظَمَـا
وَآبَـى إِذَا يَأْبَـى وَأَلْيَـنَ شِـيمَةً   وَّأَنْـوَمَ عَـن جَـارٍ إِذَا اللَّيْـلُ أَظْلَمَـا

وقال يعتذر مِن الذي كان قال في شأن عائشة -رضي الله عنها-: [الطويل]

حَصَـانٌ رَّزَانٌ مَّـا تُـزَنُّ بِرِيبَـةٍ   وَّتُصْبِحُ غَرْثَـى مِـن لُّحُـومِ الغَوافِـلِ
عَقِيلَـةُ حَـيٍّ مِّـن لُّـؤَيِّ بـنِ غَالِـبٍ   كِـرَامِ الـمَساعِي مَـجْدُهُمْ غَيـرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَـةٌ قَـد طَيَّـبَ اللهُ خِيمَهَـا   وَطَهَّرَهَـا مِـن كُـلِّ سَـوءٍ وَّباطِـلِ
فَإِن كُنتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ   فَـلَا رَفَعَـتْ سَـوْطِي إِلَـيَّ أَنَامِلِـي
وَكَيـفَ وَوُدِّي مَـا حَيِيْـتُ وَنُصْرَتِـي   لِآلِ رَسُـولِ اللهِ زَيـنُ المَحَافِـلِ
لَـهُ رَتَـبٌ عَـالٍ عَلَـى النَّـاسِ كُلِّهِـمْ   تُقَصِّـرُ عَنـهُ سَـوْرَةُ المُتَـطَاوِلِ
فَـإِنَّ الَّـذِي قَـدْ قِيـلَ لَـيسَ بِلَائِـطٍ   وَّلَكِنَّـهُ قَـولُ امْـرِئٍ بِـيَ مَاحِـلِ

وهذه الأبيات تُذكّر بأبيات جميلة قالها ابن بَهِيج الأندلسي على لسان عائشة -رضي الله عنها- قال: [الكامل]

مَـا شَـانُ أُمِّ المُؤْمِنِيـنَ وَشَانِـي   هُـدِيَ الـمُحِبُّ لَـهَا وَضَـلَّ الشَّانِـي
إِنِّـي أَقُـولُ مُبَيِّـنًا عَـن فَضْـلِهَا   وَمُتَرْجِـمًا عَـن قَوْلِـهَا بِلِسَانِـي
يَـا مُبْـغِضِي لَا تَـأْتِ قَبْـرَ مُحَـمَّدٍ   فَالبَـيْتُ بَيْتِـي وَالمَـكَانُ مَكَانِـي
إِنِّـي خُـصِصْتُ عَـلَى نِـسَاءِ مُـحَمَّدٍ   بِصِفَـاتِ بِـرٍّ تَحْتَهُـنَّ مَعَانِـي
وَسَبَقْـتُهُنَّ إِلَـى الفَـضَائِلِ كُلِّـهَا   فَالـسَّبْقُ سَـبْقِي وَالـعِنَانُ عِنَانِـي
مَـرِضَ النَّبِـيُّ وَمَـاتَ بَيـنَ تَرَائِبِـي   فَاليَـوْمُ يَوْمِـي وَالزَّمَـانُ زَمَانِـي
زَوْجِـي رَسُـولُ اللهِ لَـمْ أَرَ غَيْـرَهُ   اللهُ زَوَّجَنِـي بِـهِ وَحَبَانِـي
وَأَتَـاهُ جِبْرِيلُ الأَمِينُ بِصُورَتِي   فَأَحَبَّنِـي المُخْـتَارُ حِيـنَ رَآنِـي

أَنَــا بِكْــرُهُ العَــذْرَاءُ عِنْــدِيَ سِــرُّهُ   وَضَجِيــعُهُ فِــي مَنْزِلِــي قَمَــرانِ
وَتَكَلَّـــمَ اللهُ العَظِيـــمُ بِحُجَّتِـــي   وَبَرَاءَتِـي فِـي مُحْكَـمِ القُـرْآنِ
وَاللهُ خَفَّرَنِـــي وَعَظَّـــمَ حُرْمَتِـــي   وَعَلَـى لِسَـانِ نَبِيِّــهِ بَرَّانِـي
وَاللهُ فِـي القُـرْآنِ قَـدْ لَـعَنَ الَّـذِي   بَعْـدَ البَـرَاءَةِ بِالقَـبِيحِ رَمَانِـي
وَاللهُ وَبَّـــخَ مَـــنْ أَرَادَ تَنَقُّصِـــي   إِفْكًـا وَسَبَّـحَ نَـفْسَهُ فِـي شَانِـي
إِنِّـــي لَمُحْصَنَـــةُ الإِزَارِ بَرِيئَـــةٌ   وَدَلِيـلُ حُسْنِ طَهَارَتِـي إِحْصَانِـي

ويقول فيها:

وَيْـــلٌ لِّعَبْــدٍ خَــانَ آلَ مُحَــمَّدٍ   بِعَــــدَاوةِ الأَزْوَاجِ وَالأَخْتَــــانِ
طُوبـى لِمَـنْ وَالـى جَـمَاعَةَ صَـحْبِهِ   وَيَكُــونُ مِــنْ أَحْبَابِــهِ الــحَسَنَانِ

ويقول فيها:

جَـمَعَ الإِلَـهُ المُسْلِمِيـنَ عَلَـى أَبِـي   وَاسْـتُبْدِلُوا مِـنْ خَـوْفِهِمْ بِأَمَـانِ
وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نُصْـــرَةَ عَبْـــدِهِ   مَـن ذَا يُطِيـقُ لَـهُ عَلَـى خِـذْلَانِ
مَـنْ حَبَّنِـي فَلْيَجْتَنِـبْ مَـن سَبَّنِـي   إِن كَـانَ صَـانَ مَحَبَّتِـي وَرَعَانِـي
وَإِذَا مُحِبِّـي قَـدْ أَلَـظَّ بِمُبْغِضِـي   فَكِلاهُـمَا فِـي البُغْـضِ مُسْتَوِيَـانِ
صِـلْ أُمَّهَـاتِ المُؤْمِنِيـنَ وَلَا تَـحِدْ   عَنَّـا فَتُسْـلَبَ حُلَّـةَ الإِيـمَانِ
إِنِّـي لَصَـادِقَةُ الـمَقَالِ كَرِيـمَةٌ   إِيْ وَالَّـذِي ذَلَّـتْ لَـهُ الـثَّقَلانِ
خُـذْهَا إِلَيـكَ فَإِنَّـمَا هِـيَ رَوْضَـةٌ   مَّحْفُوفَـةٌ بِالـرَّوْحِ والرَّيْحَـانِ

ومن شعر حسّان –رضي الله عنه– قوله يُعَيِّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر وإسلامه أخاه عمرو بن هشام أبا جهل للقتل:

[الكامل]

إِن كُنتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي   فَنَجَوتِ مَنجَى الحَارِثِ بنِ هِشَامِ
تَـرَكَ الأَحِبَّـةَ أَن يُقَاتِـلَ دُونَـهُمْ   وَنَـجَا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَّلِـجَامِ

واعتذر الحارث بن هشام عن فراره فقال: [الكامل]

اللهُ يَعْلَـمُ مَـا تَرَكْـتُ قِتَالَـهُمْ حَتَّـى عَلَـوا فَرَسِـي بِأَشْـقَرَ مُزْبِـدِ
وَعَلِمْـتُ أَنِّـي إِنْ أُقَاتِـلْ وَاحِـدًا أُقْتَلْ وَلَا يَضْرُرْ عَـدُوِّي مَشْـهَدِي
فَصَـدَدتُ عَنهُمْ وَالأَحِبَّةُ فِيهِمُ طَمَعًـا لَّـهُمْ بِعِقَـابِ يَـومٍ مُفْسِـدِ

وقد سبقت هذه الأبيات في تحسين القبيح.

ولما جاء وفد بني تميم وأنشد شاعرهم قال حسان مُجيبًا شاعر بني تميم: [البسيط]

إِنَّ الـذَوَائِبَ مِـن فِهْـرٍ وَإِخْوَتِـهِمْ قَـدْ بَيَّنُـوا سُـنَّةً لِّلنَّـاسِ تُتَّبَـعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَن كَانَتْ سَجِيَّتُهُ تَقْوَى الإِلَـهِ وَبِـالأَمْرِ الَّـذِي شَرَعُوا
قَـومٌ إِذَا حَـارَبُوا ضَـرُّوا عَـدُوَّهُمُ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَـجِيَّةٌ تِلْـكَ فِـيهِمْ غَيـرُ مُحْدَثَـةٍ إِنَّ الخَلَائِـقَ فَـاعْلَمْ شَـرُّهَا البِـدَعُ

فلما فرغ حسان قال الأَقْرَع بن حَابس: إن هذا الرجل يعني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمُؤَتَّى له؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا! ثم أسلموا وأحسن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جوائزهم.

ومن أشهر شعره –رضي الله عنه– قوله يوم فتح مكة: [الوافر]

عَفَـتْ ذَاتُ الأَصَابِـعِ فَالجِـوَاءُ إِلَـى عَـذْرَاءَ مَنزِلُهَـا خَـلَاءُ
دِيَـارٌ مِّـن بَنِـي الحَسْحَـاسِ قَفْـرٌ تُعَفِّيهَـا الـرَّوَامِسُ وَالسَّـمَاءُ

إلى أن قال:

عَدِمْنَـا خَيْلَنَـا إِن لَّـمْ تَرَوْهَـا تُثِيـرُ النَّقْـعَ مَوْعِدُهَـا كَـدَاءُ
يُبَـارِينَ الأَسِـنَّةَ مُصْـعِدَاتٍ عَلَـى أَكْتَافِهَـا الأَسَـلُ الظِّمَـاءُ
تَظَـلُّ جِيَادُنَـا مُتَمَطِّـرَاتٍ تُلَطِّمُهُـنَّ بِالخُمُـرِ النِّسَـاءُ
فَإِمَّـا تُعْرِضُـوا عَنَّـا اعْتَمَرْنَـا وَكَـانَ الفَـتْحُ وَانكَشَـفَ الغِطَـاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِـرُوا لِـجِلَادِ يَـومٍ يُعِـزُّ اللهُ فِيـهِ مَـن يَّشَـاءُ
وَجِبْرِيـلٌ رَسُـولُ اللهِ فِينَـا وَرُوحُ القُـدْسِ لَـيْسَ لَـهُ كِفَـاءُ

وَقَــالَ اللهُ قَــدْ أَرْسَــلْتُ عَبْــدًا يَّقُــولُ الحَــقَّ إِن نَفَــعَ البَـلَاءُ
شَـــهِدْتُ بِــهِ فَقُومُــوا صَــدِّقُوهُ فَقُلْــتُمْ لَا نَقُــومُ وَلَا نَشَــاءُ
وَقَــالَ اللهُ قَــدْ سَيَّــرْتُ جُنْــدًا هُــمُ الأَنصَــارُ عُرْضَـتُهَا اللِّقَــاءُ
لَنَــا فِــي كُــلِّ يَــوْمٍ مِّــن مَّعَــدٍّ سِــبَابٌ أَوْ قِتَــالٌ أَوْ هِجَــاءُ
فَنُحْكِــمُ بِالقَوَافِــي مَــنْ هَجَانَــا وَنَضْــرِبُ حِيــنَ تَخْتَلِـطُ الدِّمَـاءُ
أَلَا أَبْلِــغْ أَبَــا سُفْيَــانَ عَنِّــي مُغَلْغَلَــةً فَقَــدْ بَــرِحَ الــخَفَاءُ
بِــأَنَّ سُــيُوفَنَا تَرَكَتْــكَ عَبْــدًا وَّعَبْــدُ الــدَّارِ سَادَتُهَــا الإِمَــاءُ
هَجَــوْتَ مُحَمَّــدًا فَأَجَبْــتُ عَنْــهُ وَعِنــدَ اللهِ فِــي ذَاكَ الجَــزَاءُ
أَتَهْجُــوهُ وَلَسْــتَ لَــهُ بِكُــفْءٍ فَشَرُّكُمَــا لِخَيرِكُمَــا الفِــدَاءُ
فَــإِنَّ أَبِــي وَوَالِــدَهُ وَعِرْضِــي لِعِــرْضِ مُحَمَّــدٍ مِّنكُــمْ وِقَــاءُ
لِسَانِــي صَــارِمٌ لَّا عَيْــبَ فِيــهِ وَبَحْــرِي لَا تُكَــدِّرُهُ الــدِّلَاءُ

- ومن أولئك: كعب بن مالك -رضي الله عنه- أحد شعراء النبي -صلى الله عليه وسلم- الثلاثة: حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك -رضي الله عنهم-.

كما قال السيوطي: [الرجز]

وَشُعَرَاءُ المُصْطَفَى ذَوُو الشَّانْ ابنُ رَوَاحَةَ وَكَعْبٌ حَسَّانْ

ذكر ابن سيرين أن شعراء النبي -صلى الله عليه وسلم- هم هؤلاء الثلاثة، ثم قال: فأما كعب فكان يَذكر الحرب؛ يقول: فعلنا ونفعل ويتهَدَّدهم، وأما حسان فكان يذكر عيوبهم وأيامهم، وأما عبدالله بن رواحة فكان يُعيِّرهم بالكفر وكان قوله يومئذ أهون القول عليهم وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم، فلما أسلموا وفقهوا كان أشد القول عليهم قول عبدالله بن رواحة.

قال ابن سيرين: وقد أسلمت دَوْس فَرَقًا من بيت قاله كعب بعد حُنَين، قال: [الوافر]

قَضَـينا مِــن تِهَــامَةَ كُــلَّ رَيــبٍ وَّخَيبَــرَ ثُــمَّ أَجْمَمْـنَا السُّــيُوفَا

نُخَيِّـرُهَا وَلَـو نَطَـقَـتْ لَـقَالَـتْ قَـوَاطِعُهُـــنَّ دَوْسًـــا أَوْ ثَقِيفَـــا

يعني بالبيت قوله: (نخيرها...)

فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف.

وقال –رضي الله عنه– يرثي حمزة –رضي الله عنه–: [الكامل]

وَلَقَدْ هُدِدْتُ لِفَقْدِ حَمْزَةَ هَدَّةً ظَلَّتْ بَنَاتُ الجَوْفِ مِنْهَا تُرْعَدُ
وَلَـوَ انَّـهُ فُجِعَـتْ حِـرَاءُ بِمِثْلِـهِ لَرَأَيْـتَ رَاسِـيَ صَـخْرِهَا يَتَبَـدَّدُ
قَـرْمٌ تَمَكَّـنَ فِـي ذُؤَابَـةِ هَـاشِمٍ حَيْـثُ النُّبُـوَّةُ وَالنَّـدَى وَالسُّـؤْدَدُ
وَتَـرَاهُ يَرْفُـلُ فِـي الـحَدِيدِ كَأَنَّـهُ ذُو لِبْــدَةٍ شَـثْنُ البَــرَاثِنِ أَرْبَـدُ

وحمزة –رضي الله عنه– لما أسلم أنشد أبياتًا يقول فيها: [الوافر]

حَمِدتُّ اللهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي إِلَـى الإِسْـلَامِ وَالـدِّينِ الـحَنِيفِ
لِـدِينٍ جَـاءَ مِـن رَبٍّ عَزِيـزٍ خَبِيــرٍ بِالعِبَــادِ بِهِــمْ لَطِـيفِ
إِذَا تُلِيَـــتْ رَسَــائِلُهُ عَلَـــينَا تَـحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللُّبِّ الـحَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْـمَدُ مِن هُدَاهَا بِآيَـــاتٍ مُّبَيَّنَـــةِ الــــحُرُوفِ
وَأَحْـمَدُ مُصْـطَفًى فِينَـا مُطَـاعٌ فَــلَا تَغْشَــوهُ بِــالقَولِ العَنِيــفِ
فَـــلَا وَاللهِ نُسْـــلِمُهُ لِقَـــومٍ وَّلَــمَّا نَقْـضِ فِـيهِمْ بِالسُّـيُوفِ
ونَتْــرُكَ مِــنهُمُ قَتْلَــى بِقَــاعٍ عَلَيهَــا الطَّيــرُ كَـالوِرْدِ العَكُـوفِ
وَقَـدْ خُبِّـرْتُ مَا صَنَعتْ ثَقِيفٌ بِـهِ فَجَـزَى القَبَائِـلَ مِـن ثَقِيـفِ
إِلَــهُ النَّـاسِ شَـرَّ جَـزَاءِ قَـومٍ وَلَا أَسْـقَاهُمُ صَـوبَ الخَرِيــفِ

– ومن أولئك: خُبَيب بن عَدِي ﷺ لما أسرته قريش بعد حادثة بَعْث الرَّجِيع وبلغه أن القوم قد اجتمعوا لصَلْبِه قال: [الطويل]

لَقَـد جَـمَّعَ الأَحْـزَابُ حَولِـي وَأَلَّبُـوا قَبَـائِلَهُمْ وَاسْـتَجْمَعُوا كُـلَّ مَجْـمَعِ
وَكُلُّهُـــمُ مُبْـــدِي العَـــدَاوَةِ ضَـــاغِنٌ عَلَـيَّ لِأَنِّـي فِـي وَثَـاقٍ بِـمَضْيَعِ

وَقَـد جَمَّعُـوا أَبـنَاءَهُمْ وَنِسَـاءَهُمْ وَقُرِّبْـتُ مِـن جِـذْعٍ طَوِيـلٍ مُّمَـنَّعِ
إِلَـى اللهِ أَشْـكُو غُرْبَتِـي ثُـمَّ كُرْبَتِـي وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِي عِندَ مَصْرَعِي
فَذَا العَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَقَدْ خَيَّرُونِـي الكُفْـرَ وَالـمَوتَ دُوْنَـهُ وَقَدْ هَـمَلَتْ عَيْنَـايَ مِنْ غَيرِ مَجْزَعِ
وَمَـا بِـي حِـذَارُ الـمَوتِ إِنِّـي لَـمَيِّتٌ وَّلَكِـنْ حِـذَارِي جَحْـمُ نَـارٍ مُلَفَّـعِ
وَلَسْـتُ أُبَالِـي حِيـنَ أُقْتَـلُ مُسْـلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي
وَذَلِـكَ فِـي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِن يَّشَـأْ يُبَـارِكْ عَلَـى أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُّـمَزَّعِ

– ومن أولئك: مُتَمِّمُ بن نُوَيرَة، قال يرثي أخاه مالكًا: [الطويل]

جَمِيلُ الـمُحَيَّا ضَاحِكٌ عِندَ ضَيفِهِ أَغَـرُّ جَـمِيعُ الـرَّأْيِ مُشْتَـرَكُ الرَّحْـلِ
وَقُـورٌ إِذَا القَـومُ الكِـرَامُ تَقَـاوَلُوا فَحُلَّتْ حُبَاهُمْ وَاسْتُطِيرُوا مِنَ الجَفْلِ
وَكُنـتَ إِلَـى نَفْسِـي أَشَـدَّ حَـلَاوَةً مِّنَ الـمَاءِ بِالـمَاذِيِّ مِنْ عَسَلِ النَّحْلِ
وَكُـلُّ أَخٍ فِـي النَّـاسِ بَعْـدَ ابـنِ أُمِّـهِ كَسَـاقِطَةٍ إِحْـدَى يَدِيـهِ مِـنَ الـخَبْلِ
وَبَعْـضُ الرِّجَـالِ نَـخْلَةٌ لَّا جَنَـى لَـهَا وَلَا ظِـلَّ إِلَّا أَن تُعَـدَّ مِـنَ النَّخْـلِ

ويُحكى أن عمر –رضي الله عنه– قال له: والله لوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيدًا –وقد استشهد زيد بن الخطاب في اليمامة– بمثل ما رَثَيت به أخاك فقال له مُتمِّم: لو علمتُ أنَّ أخي صار حيث صار أخوك ما رثيتُه، فقال عمر: ما عَزَّاني أحد عن أخي بمثل ما عَزَّيتَني به.

والمراثي من أجود الشعر، قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ فقال: لأنَّنا نقولها وأكبادنا تحترق!

قال الشاعر: [الكامل]

لَـوْ كَـانَ يَـدْرِي المَيْـتُ مَـاذَا بَعْدَهُ بِالـحَـيِّ مِنـهُ بَكَـى لَـهُ فِـي قَبْـرِهِ
غُصَـصٌ تَكَـادُ تَفِـيضُ مِنهَـا نَفْسُـهُ وَيَكَـادُ يَخْـرُجُ قَلْبُـهُ مِـن صَـدْرِهِ

ويقول حِفْنِي نَاصِف في شيخه وقد زار قبره بعد أربعين يومًا من وفاته يقول: [الكامل]

لِمَ لَا تُجِيبُ وَقَد دَعَوتُ مِرَارَا   يَكْفِي سُكُوتُكَ أَرْبَعِينَ نَهَارَا

قال السقاف في العُود الهندي عن هذا البيت: لا أزال آمر بعض الحُداة بتكريره حتى نستفرغ الدمع.

وللشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله مَرْثِيَة يرثي بها نفسه يقول: [الطويل]

تُسَائِلُنِي هَلْ فِي صِحَابِكَ شَاعِرٌ   إِذَا مِتَّ قَالَ الشِّعْرَ وَهْوَ حَزِينُ
فَقُلْتُ لَهَا: لَا هَمَّ لِي بَعْدَ مَوتَتِي   سِوَى أَنْ أَرَى أُخْرَايَ كَيفَ تَكُونُ
وَمَا الشِّعْرُ بِالمُغنِي فَتِيلًا عَنِ امْرِئٍ   يُلَاقِي جَزَاءً وَّالجَزَاءُ مُهِينُ
وَإِنْ أَحْظَ بِالرُّحْمَى فَمَا لِيَ مِنْ هَوًى   سِوَاهَا وَأَهْوَاءُ النُّفُوسِ شُجُونُ
فَخَلِّي فَعُولُنْ فَاعِلَاتُنْ تُقَالُ فِي   أُنَاسٍ لَّهُمْ فَوقَ التُّرَابِ شُؤُونُ
وَإِن شِئْتِ تَأْبِينِيْ فَدَعْوَةُ سَاجِدٍ   لَّهِا بَينَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ حَنِينُ

وأشهر من رثى نفسه مالكُ بن الرَّيب التميمي وقد كان فاتكًا لصًّا يقطع الطريق ثم إن سعيد بن عثمان بن عفان لقيه وهو خارج من المدينة إلى خراسان وقد ولاه معاوية بن أبي سفيان عليها فاستصلحه وحثّه على الغزو معه بدلًا من قطع الطريق فصحبه مالك إلى خراسان وأبلى بلاءً حسنًا وعند قفولهما من خراسان أراد مالك أن يلبس خفه فإذا بأفعى في داخلها فلسعته فلما أحس بالموت أنشد قصيدته التي يرثي بها نفسه ويذكر توبته: [الطويل]

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً   بِجَنْبِ الغَضَا أُزْجِي القِلَاصَ النَّوَاجِيَا
فَلَيْتَ الغَضَا لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ   وَلَيْتَ الغَضَا مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الغَضَا لَوْ دَنَا الغَضَا   مَزَارٌ وَلَكِنَّ الغَضَا لَيْسَ دَانِيَا
أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضَّلَالَةَ بِالهُدَى   وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْ وَشْكَ رِحْلَتِي   سِفَارُكَ هَذَا تَارِكِي لَا أَبَا لِيَا
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ   سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيذٍ يَجُرُّ عِنَانَهُ   إِلَى المَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الدَّهْرُ سَاقِيَا
وَلَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَة نِسْوَةٌ   عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ العَشِيَّةَ مَا بِيَا

صَــرِيعٌ عَلَــى أَيْــدِي الرِّجَــالِ بِقَفْــرَةٍ يُسَــوُّونَ قَــبْرِي حَيْــثُ حُــمَّ قَضَــائِيَا
وَلَمَّـــا تَـــرَاءَتْ عِنْـــدَ مَـــرْوٍ مَنِيَّـــتِي وَحَــلَّ بِهَــا جِسْــمِي وَحَانَــتْ وَفَاتِيَــا
أَقُـــولُ لِأَصْـــحَابِي ارْفَعُـــونِي لِأَنَّـــنِي يَقَـــرُّ بِعَيْـــنِي أَنْ سُـــهَيْلٌ بَـــدَا لِيَـــا
فَيَـا صَـاحِبَيْ رَحْلِـي دَنَـا المَـوْتُ فَـانْزِلَا بِرَابِيَـــــةٍ إِنِّي مُقِـــــيمٌ لَيَالِيَـــــا
أَقِيمَــا عَلَــيَّ اليَــوْمَ أَوْ بَعْــضَ لَيْلَــةٍ وَلَا تُعْجِــلَانِي قَــد تَّبَــيَّنَ مَــا بِيَــا
وَقُومَــا إِذَا مَــا اسْــتُلَّ رُوحِــي فَهَيِّئَــا لِيَ القَبْــرَ وَالأَكْفَــانَ ثُمَّ ابْكِيَــا لِيَــا
وَخُطَّــا بِــأَطْرَافِ الأَسِــنَّةِ مَضْــجَعِي وَرُدَّا عَلَــى عَيْــنَيَّ فَضْــلَ رِدَائِيَــا
وَلَا تَحْسُــدَانِي بَــارَكَ اللَّــهُ فِيكُمَــا مِـنَ الأَرْضِ ذَاتِ العَـرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَـا
خُــذَانِي فَجُــرَّانِي بِبُــرْدِي إِلَيْكُمَــا فَقَـدْ كُنْـتُ قَبْـلَ اليَـوْمِ صَـعْبًا قِيَادِيَـا
يَقُولُــونَ لَا تَبْعَــدْ وَهُــمْ يَــدْفِنُونَنِي وَأَيْــنَ مَكَــانُ البُعْــدِ إِلَّا مَكَانِيَــا
غَـدَاةَ غَـدٍ يَـا لَهْـفَ نَفْسِـي عَلَـى غَـدٍ إِذَا أَدْلَجُــوا عَــنِّي وَخُلِّفْــتُ ثَاوِيَــا
وَأَصْــبَحَ مَــالِي مِــنْ طَرِيــفٍ وَتَالِــدٍ لِغَــيْرِي وَكَــانَ المَــالُ بِــالأَمْسِ مَالِيَــا
وَيَـا لَيْـتَ شِـعْرِي هَـلْ بَكَـتْ أُمُّ مَالِـكٍ كَمَـا كُنْـتُ لَـوْ عَـالَوْا نَعِيَّـكَ بَاكِيَـا
وَبِالرَّمْــلِ مِــنِّي نِسْــوَةٌ لَــوْ شَــهِدْنَنِي بَكَــيْنَ وَفَــدَّيْنَ الطَّبِيــبَ المُــدَاوِيَا
فَمِــنْهُنَّ أُمِّــي وَابْنَتَاهَــا وَخَــالَتِي وَبَاكِيَــةٌ أُخْــرَى تَهِــيجُ البَوَاكِيَــا

نرجع إلى متمم بن نويرة!

مُتَمِّمٌ هذا هو الذي أشار إليه صاحب الشمقمقيَّة بقوله:

وَكُــن مُتَمِّمًــا بُكَــا مُــتَمِّمٍ عَلَـى الـذُّنُوبِ وَارْجُ عَفْـوَ مُعْتِـقِ

وقد قال الشيخ المختار بن حامدن في رثائه الشيخ محمد عالي ولد عبدالودود: [الطويل]

وَكَـانَ أَبُـوكُمْ مَـالِكِيْ وَابْـنَ مَـالِكِيْ فَـلَا عُـذْرَ لِـي أَلَّا أَكُونَ مُتَمِّمَـا

وكان أبوكم مالكي: يعني شيخي في الفقه، وابن مالكي: يعني شيخي في النحو.

فلا عذر لي ألّا أبكيَه كما بكى متمّمٌ أخاه مالكًا.

والشيخ المختار بن حامدن هاجر إلى المدينة النبوية بعد أن عاش مئة سنة في موريتانيا يقول: إنه أشبه الذي قتل مئة نفس فهاجر إلى غير قريته يقول: [الرجز]

عُمِّـــرْتُ مَـــا يَـــدَّكِرُ المُـــدَّكِرُ فِيـهِ فَكَيـفَ كَـانَ هَـذَا العُمُـرُ
هَـــا هُـــوَ قَـــد جَـــاوَزَ مِلْيَارَاتُـــهِ ثَلَاثَـــةً إِن تُـــحْصَ ثَانِيَاتُـــهِ
خَمْسُـــونَ مِلْيُونًـــا مِّـــنَ الـــدَّقَائِقِ عَصَـيتُ فِيهَـا خَـالِقِي وَرَازِقِـي
تَلَطَّخَـــتْ فِيهَـــا ثَـــمَانُ مِئَـــةِ أَلْـفٍ مِّـنَ السَّـاعَاتِ بِالـخَطِيئَةِ
فِـــي نَـــحْوِ أَرْبَعِيـــنَ أَلْـــفَ يَـــوِمِ مَـــا بَرِئَـــتْ مِـــن رِيبَـــةٍ وَّلَـــوِمِ
أَلْـفٌ وَّخُـمْسُ الأَلْـفِ مِـن شُـهُورِ مَـا سَلِمَتْ مِنْ عَمَـلٍ مَـحْظُورِ
فَكُنـــتُ فِـــي قَـــرْنٍ مِّـــنَ الزَّمَـــانِ طَوْعَ الـهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
مَـــا كَأَبِـــي كُنـــتُ وَلَا كَـــأُمِّي وَلَا أَخِـي وَمَـن نَّـمَى وَعَمِّـي
وَلَا ذَوِيهِـــمُ عَسَـــى يَهْدِينِـــي لِلْبِـــرِّ رَبِّـــي وَصَـــلَاحِ الـــدِّينِ
كَمَا هَدَى فِي الزَّمَنِ الَّذِي خَلَا ذَاكَ الَّـذِي مِئَـةَ نَفْـسٍ قَـتَلَا
لِأَنَّنِـــي كَمَـــا مَشَـــى مَشَـــيْتُ عَـنِ القُـرْى الَّتِي بِـهَا عَصَـيتُ
مُـــجَاوِرًا بِطَيْبَـــةَ الـــمُطَهَّرَهْ أَكْـرَمَ خَلْـقِ رَبِّنَـا وَأَطْهَـرَهْ

– ومن أولئك: أبو سفيان بن الحارث، قال يبكي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: [الوافر]

أَرِقْـتُ فَبَـاتَ لَيلِـي لَا يَـزُولُ وَلَيـلُ أَخِي الـمُصِيبَةِ فِيهِ طُـولُ
وَأَسْعَدَنِـي البُكَـاءُ وَذَاكَ فِيمَـا أُصِـيبَ الـمُسْلِمُونَ بِـهِ قَلِيـلُ
لَقَـدْ عَظُمَـتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّـتْ عَشِـيَّةَ قِيـلَ قَـدْ فُقِـدَ الرَّسُـولُ
وَأَضْـحَتْ أَرْضُـنَا مِـمَّا عَرَاهَـا تَكَـادُ بِنَـا جَوَانِبُهَـا تَـمِيلُ
فَقَـدْنَا الـوَحْيَ وَالتَّنزِيـلَ فِينَـا يَـرُوحُ بِـهِ وَيَغْـدُو جَبْـرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَـقُّ مَـا سَـالَتْ عَلَيـهِ نُفُـوسُ النَّاسِ أَوْ كَرَبَـتْ تَسِيلُ
نَبِـيٌّ كَـانَ يَـجْلُو الشَّـكَّ عَنَّـا بِـمَا يُـوحَى إِلَيـهِ وَمَـا يَقُـولُ
وَيَهْـدِينَا فَـلَا نَـخْشَى ضَـلَالًا عَلَينَـا وَالرَّسُـولُ لَنَـا دَلِيـلُ

أَفَاطِمُ إِن جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ   وَإِن لَّمْ تَجْزَعِي ذَاكَ السَّبِيلُ

فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ   وَّفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ

يقال: خرج عمر ﷺ ليلة في زمن خلافته يحرس فرأى مصباحًا في بيت عجوز تَنفُش صوفًا وتقول: [السريع]

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَاةُ الأَبْرَارْ

صَلَّى عَلَيهِ الطَّيِّبُونَ الأَخْيَارْ

قَدْ كُنتَ قَوَّامًا بُكًا بِالأَسْحَارْ

يَا لَيتَ شِعْرِي وَالمَنَايَا أَطْوَارْ

هَلْ تَجْمَعَنِّي وَحَبِيبِيَ الدَّارْ

فقال عمر ﷺ: أدخليني معكما. فقالت: وَعُمَرٌ فَاغْفِرْ لَهُ يَا غَفَّارْ

- ومن أولئك: عَمْرو بن سالم الخُزاعي.

لمَّا أعانت قريشٌ بني بَكْر على خُزاعة خرج عمرو بن سالم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما وقف بين يديه قال: [مشطور الرجز]

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُّحَمَّدَا

حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

قَدْ كُنْتُمُ وُلْدًا وَّكُنَّا وَالِدَا

ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

فَانْصُرْ هَدَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيِّدَا

وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا

فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا

أَبْيَضَ مِثْلَ البَدْرِ يَسْمُو صُعُدَا

فِي فَيْلَقٍ كَالبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا

إِن سِيمَ خَسْفًا وَّجْهُهُ تَرَبَّدَا

إِنَّ قُرَيشًــا أَخْلَفُــوكَ المَــوعِدَا

وَنَقَــضُوا مِيثَاقَــكَ المُــؤَكَّدَا

وَجَعَلُــوا لِــي فِــي كَــدَاءَ رَصَــدَا

وَزَعَمُــوا أَن لَّسْــتُ أَدْعُــو أَحَــدَا

وَهُــمْ أَذَلُّ وَأَقَــلُّ عَــدَدَا

هُــمْ بَيَّتُونَــا بِالوَتِيــرِ هُجَّــدَا

وَقَتَّلُونَــا رُكَّعًــا وَسُــجَّدَا

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِم» وكان من أثر ذلك فتح مكة.

– وممن قال الشعر من الصحابة: عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما–، ومما يُنسب إليه: أنه قال في ابنه سالم –وكان شديد المحبة له وكان يُقبِّله ويقول: شيخٌ يُقَبِّل شيخًا– قال: [الطويل]

يَلُومُونَنِـي فِـي سَالِـمٍ وَّأَلُـومُهُمْ وَجِلْدَةُ بَينَ العَينِ وَالأَنفِ سَالِمُ

العجيب أن الجوهري صاحب الصحاح قال: ويقال للجلدة التي بين العين والأنف سالم!
ونبَّه على هذا الغلط في القاموس.

ومن الأخبار الطريفة: أن عبدالملك بن مروان كتب إلى الحجاج: أنت عندي كسالم، والسلام.
فحار الحجاج وكتب إلى قتيبة يسأله فأخبره بخبر عبدالله بن عمر مع ابنه.
وقريب من هذا الغَلَط الذي في الصحاح عن الجوهري ما حصل لابن سِيدَه في المُحْكَم، فإنه لما ذكر الجمار قال: وهي التي ترمى بعرفة!
قال الحافظ في لسان الميزان بعد أن نقل ما قاله ابن سيده في المحكم قال: والغالط في هذا يُعْذر لكونه لم يكن فقيهًا ولم يَحُج، ولا يلزم من ذلك أن يكون غَلِط في اللغة التي هي فَنُّه.

– ومن رجز السيرة: قول الطفيل بن عمرو السدوسي، وقد بعثه النبي –صلى الله عليه وسلم– لصنم يقال له ذو الكَفَّين ليهدمه:

يَا ذَا الكَفَينِ لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكَا

مِيلَادُنَــا أَقْــدَمُ مِــن مِّيــلَادِكَا

إِنِّــي حَشَـوتُ النَّـارَ فِـي فُؤَادِكَـا

ومن ذلك قول خالد بن الوليد وهو يهدم العُزَّى:

يَـا عُـزَّ كُفْرَانَـكِ لَا سُبْحَانَـكِ

إِنِّــي رَأَيْــتُ اللهَ قَــدْ أَهَانَــكِ

ومن ذلك قول عاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلَح في خبر بعث الرجيع قال:

مَـا عِلَّتِــي وَأَنَــا جَلْـدٌ نَّابِــلُ

وَالقَــوْسُ فِيهَــا وَتَــرٌ عُنَابِــلُ

تَــزِلُّ عَـن صَـفْحَتِهَا الـمَعَابِلُ

المَـوتُ حَـقٌّ وَّالحَـيَاةُ بَـاطِلُ

وَكُــلُّ مَــا حَــمَّ الإِلَــهُ نَــازِلُ

بِالمَــرْءِ وَالمَــرْءُ إِلَيــهِ آئِــلُ

إِن لَّــمْ أُقَـاتِلْكُمْ فَـأُمِّي هَابِـلُ

ومن ذلك ما قاله مَرْحَب لما برز في خيبر قال:

قَدْ عَلِمَـتْ خَيبـرُ أَنِّـي مَـرْحَبُ

شَاكِـي السِّـلَاحِ بَطَـلٌ مُّجَـرَّبُ

إِذَا الحُــرُوبُ أَقْــبَلَتْ تَلَهَّــبُ

فخرج إليه عَامر بن الأَكْوَع، وهو يقول:

قَـدْ عَلِمَــتْ خَيبـرُ أَنِّـي عَـامِرُ

شَــاكِي السِّــلَاحِ بَطَـلٌ مُّغـامِرُ

ثم خرج إليه علي بن أبي طالب وهو يقول:

أَنَـا الَّـذِي سَمَّتْـنِ أُمِّـي حَـيْدَرَهْ

كَلَيْـثِ غَابَـاتٍ كَرِيـهِ الـمَنظَرَهْ

أُوفِـيهِمُ بِـالصَّاعِ كَيْـلَ السَّـنْدَرَهْ

وقد سبق إنشادها عند الكلام عن شعر علي –رضي الله عنه–.

وهنا كثيرًا ما يقال: أنا الَّذي سمَّتْني، بإثبات الياء، وهذا مما تتابع الناس عليه، وهو بهذا غير موزون، يقال: أنا الَّذي سمَّتْنِ أمِّي حَيْدَرَهْ –بكسرة فقط– وله نظائر منها الأبيات المشهورة:

[الكامل]

العِلْـمُ صَـيدٌ وَّالكِتَابَـةُ قَيـدُهُ   قَـيِّدْ صُـيُودَكَ بِالـحِبَالِ الوَاثِقَـهْ
فَمِـنَ الـحَمَاقَةِ أَن تَصِيدَ غَزَالَـةً   وَّتَتْـرُكَهَا بَيـنَ الـخَلَائِقِ طَالِقَـهْ

وروي الشطر الأخير من البيتين: وَتَفُكَّهَا بَينَ الخَلَائِقِ طَالِقَة، وبهذا يستقيم الوزن.

وأيضًا قولهم: يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهْ   مَا بَعْدَ إِذَا زَائِدَهْ

وهذا ليس بشعر وإنما البيت: [الرجز]

يَـــا طَالِبًـــا خُـــذْ فَائِـــدَهْ   بَعْـــــدَ إِذَا مَـــــا زَائِـــــدَهْ

ومن أولئك: عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه– وفي أخبار السيرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين دخل مكة في عمرة القضاء دخلها وعبدالله بن رواحة آخذ بخطام ناقته يقول:

خَلُّوا بَنِـي الكُفَّـارِ عَـن سَـبِيلِهِ
اليَـومَ نَضْـرِبْكُمْ عَلَـى تَنزِيلِـهِ
ضَـرْبًا يُّزِيـلُ الـهَامَ عَـن مَقِيلِـهِ
وَيُـذْهِلُ الخَلِـيلَ عَـن خَلِيلِـهِ

وقال أيضا في مؤتة:

أَقْسَـمْتُ يَـا نَفْـسُ لَتَنزِلِنَّـهْ
لَتَنـــــزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّـــــهْ
إِنْ أَجْلَـبَ النَّـاسُ وَشَـدُّوا الرَّنَّـهْ

مَالِــي أَرَاكِ تَكْرَهِيــنَ الــجَنَّهْ

قَد طَالَ مَا قَدْ كُنتِ مُطْمَئِنَّهْ

هَـلْ أَنـتِ إِلَّا نُطْفَـةٌ فِـي شَـنَّهْ

وقال أيضا -وكان قد أصيب قبله زيد بن حارثة ثم جعفر-:

يَـا نَفْـسُ إِلَّا تُقْتَلِـي تَمُوتِـي

هَذَا حِـمَامُ الـمَوتِ قَد صَلِيتِ

وَمَـا تَـمَنَّيتِ فَقَـد أُعْطِيـتِ

إِن تَفْعَلِــي فِعْلَهُمَــا هُــدِيتِ

وقبله جعفر الذي أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قُتل وهو يقول:

يَـا حَبَّــذَا الجَنَّــةُ وَاقْتِرَابُــهَا

طَيِّبَــــةٌ وَبَــــارِدٌ شَرَابُــــهَا

وَالــرُّومُ رُومٌ قَــد دَنَـا عَذَابُــهَا

كَـــافِرَةٌ بَعِيـــدَةٌ أَنْسَابُــــهَا

عَلَــيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَــا ضِرَابُــهَا

قال في الشمقمقية:

وَإِنْ حَـمَلْتَ رَايَـةَ الأَمْـرِ فَكُـنْ كَجَعْفَــرٍ أَوْ دَعْ وَلَا تَسْـــتَبِقِ

قَـدْ قُطِعَـتْ يَـدَاهُ يَـوْمَ مُؤْتَـةٍ فَلَـمْ يَـدَعْهَا لِكَمِــيٍّ سَـوْحَقِ

لَكِنَّــهُ احْتَضَنَهَــا حُـبًّا لَّـهَا فَيَـا لَـهُ مِــن سَـيِّدٍ مُّوَفَّــقِ

ومن ذلك أبيات حِمَاس بن قيس في فتح مكة وكان في صفِّ قريش وخرج يتعرض لجيش المسلمين فقالت له زوجه: والله ما أراه يقول لهم شيء فقال لها: والله إني لأرجو أن أُخدِمَك بعضهم، ثم قال:

إِن يُقْبِلُوا اليَـوْمَ فَمَـا لِـي عِلَّـهْ

هَـــذَا سِـــلَاحٌ كَامِـــلٌ وَّأَلَّـــهْ
وَذُو غِـــرَارَيْنِ سَـــرِيعُ السَّـــلَّهْ

لكنه ما أسرع ما انهزم وفرَّ راجعًا إلى بيته وقال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي. قالت: فأين ما كنت تقول! فقال:

إِنَّـــكِ لَـــوْ شَـــهِدتِ يَـــوْمَ الـــخَندَمَهْ
إِذْ فَـــرَّ صَـــفْوَانُ وَفَـــرَّ عِكْرِمَـــهْ
وَابُـــو يَزِيـــدَ قَـــائِمٌ كَالمُوتِـــمَهْ
وَاسْـــتَقْبَلَتْنَا بِالسُّـــيُوفِ الـــمُسْلِمَهْ
يَقْطَعْـــنَ كُـــلَّ سَـــاعِدٍ وَّجُـــمْجُمَهْ
ضَـــرْبًا فَـــلَا يُسْـــمَعُ إِلَّا غَمْغَمَـــهْ
لَـــهُمْ نَـــهِيتٌ خَلْفَنَـــا وَهَـــمْهَمَهْ
لَـمْ تَنطِقِي فِـي اللَّـومِ أَدْنَـى كَلِمَـهْ!

– ومن بعدهم الحطيئة وكان كثير الهجاء حتى إنه هجا أباه وأمَّه، وخالَه وعمَّه، وعرسَه ونفسَه. التمس يومًا إنسانًا يهجوه فلم يجد، فضاق عليه ذلك، وقال: [الطويل]

أَبَـتْ شَـفَتايَ اليَـومَ إِلَّا تَكَلُّمًـا بِشَـرٍّ فَمَـا أَدْرِي لِمَـنْ أَنَـا قَائِلُـهْ

وجعل يدور هذا البيت في حلقه ولا يرى إنسانًا يهجوه فاطلع في بئر فرأى وجهه فيه فاستقبحه وقال: [الطويل]

أَرَى لِـيَ وَجْهًـا قَـبَّحَ اللهُ خَلْقَـهُ فَقُـبِّحَ مِـن وَّجْـهٍ وَّقُـبِّحَ حَامِلُـهْ

وهو الذي مدح بني أنف الناقة فارتفعوا بعد ضَعتهم، وسبق هذا في أنَّ الشعر يرفع الوضيع، وفيهم أيضًا يقول: [الطويل]

أَقِلُّـــوا عَلَـــيهِمْ لَا أَبَـــا لِأَبِـــيكُمُ مِنَ اللَّومِ أَوْ سُدُّوا المَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أُوْلَئِـكَ قَـوْمٌ إِن بَنَـوا أَحْسَـنُوا البُـنَى وَإِنْ عَاهَـدُوا أَوْفَـوا وَإِنْ عَقَـدُوا شَـدُّوا
وَإِن كَانَـتِ النُّعْمَى عَلَـيهِمْ جَـزَوا بِـهَا وَإِنْ أَنْعَمُـــوا لَا كَدَّرُوهَـــا وَلَا كَـــدُّوا

وَإِن قَـالَ مَوْلَاهُـمْ عَـلَى جُـلِّ حَـادِثٍ مِّـنَ الـدَّهْرِ رُدُّوا فَضْـلَ أَحْلَامِكُـمْ رَدُّوا
مَطَاعِينُ فِي الـهَيجَا مَكَاشِيفُ للدُّجَى بَنَـــى لَـــهُمُ آبَـــاؤُهُمْ وَبَنَـــى الـــجَدُّ

وهذه الأبيات من أجمل ما قال الحطيئة، ولما هجا الزبرقان وقال: [البسيط]

دَعِ المَكَـارِمَ لَا تَرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

شكاه الزبرقان إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقال: أَوَمَا تبلغ مروءتي إلا أني آكل وألبس! فقال عمر: عليَّ بحسان. فجيء به فسأله عمر: هل هجاه؟ فقال: ما هجاه ولكن سلح عليه. فأمر عمر بالحطيئة فجُعِل في قَعر بئر وألقي عليه شيء فجزع جزعًا شديدًا وتضرع إلى عمر وقال شعرًا يستعطفه به، حتى شفع فيه عبدالرحمن بن عوف وعمرو بن العاص فيما قيل فأخرجه عمر فلما مثَل بين يديه قال: [البسيط]

بِاسْـمِ الَّـذِي أُنـزِلَتْ مِـنْ عِنـدِهِ السُّوَرُ وَالـحَمْـدُ للهِ أَمَّـا بَعْـدُ يَـا عُمَـرُ
مَـاذَا تَقُـولُ لِأَفْـرَاخٍ بِـذِي مَـرَخٍ زُغْـبِ الحَـوَاصِلِ لَا مَـاءٌ وَّلَا شَـجَرُ
أَلْقَيـتَ كَاسِبَهُمْ فِـي قَعْـرِ مُظْلِمَـةٍ فَـاغْفِرْ عَلَيـكَ سَـلَامُ اللهِ يَـا عُمَـرُ
أَنـتَ الإِمَـامُ الَّـذِي مِـن بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَـتْ إِلَيـكَ مَقَالِيـدَ النُّهَـى البَشَـرُ
مَـا آثَـرُوكَ بِـهَا إِذْ قَدَّمُـوكَ لَـهَا لَكِـن لِأَنفُسِهِـمْ كَانَـتْ بِـكَ الإِثَـرُ

يقال: إن عمر بن الخطاب ﷺ بكى لما سمع هذه الأبيات، وفي هذا يقول عمرو بن العاص: ما أقلَّتِ الغبراءُ ولا أظلَّتِ الخضراءُ أعدل من رجل يبكي على تَرِكَةِ الحطيئة.

ثم إنَّ عمر أراد أن يُخيف الحطيئة فجعل يستشير قومه فيه ويقول -ويَرفع صوته حتى يُسمع الحطيئة-: ما أراني إلا قاطعًا لسانه، ائتُوني بسكين بل موسى فإنَّها أَحَدُّ، فقالوا: لا يعود يا أمير المؤمنين. وأشاروا عليه أن قل: لا أعود، فقال: لا أعود. فأطلق سراحه.

هذا آخره والله تعالى أعلم.

سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المجلس الثالث عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

٣/ العصر الأُموي

* خبر جرير والفرزدق والأخطل مع أعرابي في مجلس أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان.

* خبر تعرض الأخطل لجرير في مجلس بِشْر بن مروان وإفحام جرير له.

* خبر وقوف الشعراء بباب عمر بن عبدالعزيز أيامًا لا يُؤذن لهم، وإذنه بعدُ لجرير دون غيره.

* جواب لجرير يستحسنه أهل الأدب ويتعجبون منه، أجاب به الفرزدق وقد فاخره بمنى وهما حاجَّان.

* شياطين الشعر!

* خبر وقوع جرير في الفرزدق بعد موتهما.

*لماذا لم يمدح عمر بن أبي ربيعة أحدًا من الخلفاء، ولم يقل شعرًا في مدح ولا هجاء ولا فخر؟

* شعر عمر بن أبي ربيعة هو الفُستُق المُقَشَّر الذي لا يشبع منه، لكنه من المضنون به على غير أهله، وذكر شيء من رائيته.

* من شعر الخوارج.

* مجنون ليلى وما جنى على نفسه.

* كثير عزة والعجوز التي أفحمته فلم يجِر جوابًا.

* ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري.

– خبر كتاب المُجَيدِري إلى أمه الذي أَلْغَزَ فيه وكيف حلَّت اللُّغز.

* خبر الصِّمَّة القشيري وأبياته التي قال عنها بعض الأدباء: لو حلف حالف بأنه ما قيل في النسيب في الجاهلية والإسلام أحسن منها لم يحنث.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعدُ فبعدَ عصرِ صدر الإسلام عصرُ بني أمية وأبرز شعراء هذا العصر الثُّلاثي المشهور: جَرِير والفَرَزْدَق والأَخْطَل.

دخل أعرابي على عبدالملك بن مروان وعنده جرير والفرزدق والأخطل، فلم يعرفهم ولم يكن قد رآهم، فقال عبدالملك للأعرابي: هل تعرف أهجى بيت قيل في الإسلام؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين، قول جرير: [الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِن نُّمَيرٍ فَـلَا كَعْـبًا بَلَغْـتَ وَلَا كِـلَابَا

قال: أحسنت، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الاسلام؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قول جرير: [الوافر]

أَلَسْتُمْ خَيرَ مَن رَكِبَ المَطَايَا وَأَنـدَى العَالَمِيـنَ بُطُـونَ رَاحِ

قال: أصبت وأحسنت، فهل تعرف أرق بيت قيل في الاسلام؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قول جرير: [البسيط]

إِنَّ العُيُـونَ الَّتِـي فِـي طَرْفِهَـا حَـوَرٌ قَتَّلْنَنَـا ثُـمَّ لَـمْ يُحْيِيـنَ قَتْلَانَـا
يَصْـرَعْنَ ذَا اللُّـبِّ حَتَّـى لَا حَـرَاكَ وَهُـنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنسَـانَا

قال: أحسنت، فهل تعرف جريرًا؟

قال: لا والله، وإني لرؤيته لمشتاق!

قال: هذا جرير وهذا الأخطل وهذا الفرزدق. فأنشأ الأعرابي يقول: [المتقارب]

فَحَيَّـــا الإِلَـــهُ أَبَـــا حَـــزْرَةٍ وَّأَرْغَـــمَ أَنفَـــكَ يَـــا أَخْطَـــلُ
وَجَـــدُّ الفَـــرَزْدَقِ أَتْعِـــسْ بِـــهِ وَدَقَّ خَيَاشِيمَـــهُ الجَنـــدَلُ

فغضب الفرزدق وقال: [البسيط]

يَـا أَرْغَـمَ اللهُ أَنفًـا أَنـتَ حَامِلُـهُ   يَا ذَا الـخَنَا وَمَقَالِ الزُّورِ وَالـخَطَلِ
مَا أَنتَ بِالـحَكَمِ التُّرْضَى حُكُومَتُهُ   وَلَا الأَصِيلِ وَلَا ذِي الرَّأْيِ وَالـجَدَلِ

وقام الأخطل وقال: [البسيط]

يَا شَرَّ مَنْ حَمَلَتْ سَاقٌ عَلَى قَدَمٍ   مَا مِثْلُ قَوْلِكِ فِي الأَقْوَامِ يُحْتَمَلُ
إِنَّ الـحُكُومَةَ لَيسَتْ فِي أَبِيكَ وَلَا   فِي مَعْشَرٍ أَنتَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ سَفَلُ

فقام جرير وقال: [البسيط]

شَـتَمْتُمَا قَـائِلًا بِـالحَقِّ مُهْتَـدِيًا   عِنْـدَ الخَلِيفَـةِ وَالأَقْـوَالُ تَنْتَضِـلُ
أَتَشْـتُمَانِ سَـفَاهًا خَيْـرَكُمْ حَسَـبًا   فَفِيكُمَـا وَإِلهِـي الـزُّورُ وَالخَطَـلُ
شَـتَمْتُمَاهُ عَلَى رَفْعِي وَوَضْعِكُمَا   لَا زِلْتُمَـا فِي سَـفَالٍ أَيُّهَـا السَّـفَلُ

ثم وثب جرير وقبَّل رأس الأعرابي، وقال: يا أمير المؤمنين، جائزتي له. وكانت خمسة عشر ألفًا، فقال عبدالملك: وله مني مثلها. فقبض الأعرابي ذلك كله وخرج!

ودخل يومًا جرير على بِشْر بن مروان وعنده الأخطل، فقال بِشْر لجرير: أتعرف هذا؟ فقال: ومن هذا أيها أمير؟ فقال: هذا الأخطل.

فقال الأخطل لجرير: أنا الذي شتمت عِرضك، وأسهرت ليلك، وآذيت قومك.

فقال جرير: أما قولك: (شتمت عرضك) فما ضر البحر أن يشتمه مَن غرق فيه! وأما قولك: (أسهرت ليلك) فلو تركتني أنام لكان خيرًا لك! وأما قولك: (آذيت قومك) فكيف تؤذي قومًا أنت تؤدي الجزية إليهم!

وكان الأخطل من نصارى العرب المتنصِّرة، ومن شعره قوله: [الوافر]

وَلَسْـتُ بِصَـائِمٍ رَمَضَـانَ طَوعًـا   وَّلَسْـتُ بِآكِـلٍ لَّـحْمَ الأَضَـاحِي
وَلَسْــتُ بِقَائِــمٍ كَالعَيــرِ أَدْعُــو   قُبَيْلَ الصُبْحِ حَيَّ عَلَى الفَـلَاحِ
وَلَكِنِّــي سَأَشْرَبُــهَا شَــمُولًا   وَّأَسْـجُدُ عِنـدَ مُنـبَلَجِ الصَّـبَاحِ

ولما ولي الخلافة عمر بن عبدالعزيز وفد عليه الشعراء، ومكثوا ببابه أيامًا لا يأذن لهم ولا يلتفت إليهم فساءهم ذلك وهمُّوا بالرجوع فمرَّ بهم رَجَاء بن حَيْوَة، فقال له جرير:[البسيط]

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الـمُرْخِي عِمَامَتَهُ هَذَا زَمَانُكَ فَاسْتَأْذِن لَّنَا عُمَرَا

فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئًا.

فمر عَدِيُّ بن أَرْطَأَة، فقال له جرير: [البسيط]

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ المُـزْجِي مَطِيَّتَـهُ هَـذَا زَمَانُـكَ إِنِّـي قَـد مَـضَى زَمَنِـي
أَبْلِـغْ خَلِيفَتَنَـا إِن كُنـتَ لَاقِيَـهُ أَنِّي لَدَى البَابِ كَالـمَصْفُودِ فِي قَرَنِ
لَا تَـنسَ حَاجَتَنَـا لُقِّيـتَ مَغْفِـرَةً قَد طَالَ مُكْثِيَ عَنْ أَهْلِي وَعَن وَّطَنِي

فدخل وكلمه فيهم حتى قال: مَن بالباب؟ فقالوا: الأخطل.

قال: أليس القائل:

وَلَسْـتُ بِصَـائِمٍ رَمَضَـانَ طَوعًـا وَّلَسْتُ بِآكِـلٍ لَّـحْمَ الأَضَـاحِي
وَلَسْـتُ بِقَائِـمٍ كَالعَيـرِ أَدْعُـو قُبَيْلَ الصُبْحِ حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ
وَلَكِنِّـي سَأَشْرَبُـهَا شَـمُولًا وَّأَسْـجُدُ عِنـدَ مُنـبَلَجِ الصَّـبَاحِ

والله لا يدخل علي وهو كافر أبدًا!

قال: فمن بالباب سواه؟ قال: عمر بن أبي رَبِيعة.

فذكر عمر بن عبدالعزيز له شعرًا وقال: فلو كان عدو الله إذ فَجَر كتم وستر على نفسه، والله لا يدخل علي أبدًا.

قال: فمن بالباب سواه؟ قال: الفرزدق.

فذكر مثل ذلك، وقال مثل ذلك في الأَحْوَص وفي جَمِيل بن مَعْمَر، حتى ذكروا جريرًا، فقال: أما إنه الذي يقول: [الكامل]

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ القُلُوبِ وَلَيسَ ذَا وَقْتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ

فإن كان لابد فَائْذَن لجرير، فأَذِنَ له فدخل على عمر وهو يقول: [الكامل]

إِنَّ الَّـذِي بَعَـثَ النَّبِـيَّ مُـحَمَّدًا جَعَـلَ الـخِلَافَةَ لِلإِمَـامِ العَـادِلِ
وَسِـعَ الخَـلَائِقَ عَدْلُـهُ وَوَفَـاؤُهُ حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيلَ المَائِلِ
إِنِّـي لَأَرْجُـو مِنـكَ خَيـرًا عَـاجِلًا وَّالـنَّفْسُ مُولَعَـةٌ بِحُـبِّ العَاجِـلِ

ثم أنشد قصيدة طويلة يمدحه فيها.

فقال له: ويحك يا جرير! لا أرى لك فيما هاهنا حقا.

فقال جرير: إني مسكين وابن سبيل.

فقال عمر: إنا ولينا هذا الأمر وليس لنا إلا ثلاث مئة درهم، أخذت أم عبدالله مئةً وابنها مئةً وقد بقيت مئةٌ فأَمَرَ له بها.

ثم خرج جرير على الشعراء وسألوه: ما وراءك يا جرير؟

فقال : ما يسوؤكم! خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض، ثم أنشأ يقول: [الطويل]

رَأَيــتُ رُقَــى الشَّــيطَانِ لَا تَسْــتَفِزُّهُ وَقَدكَانَ شَيْطَانِي مِنَ الجِنِّ رَاقِيَا

ومن خبره مع الفرزدق أنهما التقيا مرة بمنى وهما حاجان، فقال الفرزدق لجرير: [الطويل]

فَإِنَّــكَ لَاقٍ بِالــمَنَازِلِ مِــن مِّنَــى فَخَارًا، فَخَبِّرنِي بِمَن أَنتَ فَاخِرُ؟

فقال له جرير: لبيك اللهم لبيك.

قال أبو عبيدة: فكان أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويتعجبون منه.

وخرجا مرة مُرْتَدِفَين على ناقة إلى هشام بن عبدالملك فنزل جرير وابتعد، فجعلت الناقة تتلفت والفرزدق فوقها فضربها الفرزدق وقال: [الوافر]

إِلَامَ تَلَفَّتِيــنَ وَأَنــتِ تَحْتِــي وَخَيــرُ النَّــاسِ كُلِّهِــمُ أَمَــامِي

مَتَى نَصِلِ الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنَ الأَنسَاعِ والـدَّبَرِ الـدَّوَامِي

ثم قال: الآن يجيء جرير فأُنشده هذين البيتين فيرد عليّ: [الوافر]

تَلَفَّتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابنِ قَيـنٍ إِلَـى الكِيـرَينِ وَالفَـأْسِ الكَهَـامِ

مَتَى تَصِلِ الرُّصَافَةَ تَخزَ فِيهَا كَخِزْيِكَ فِي الـمَواسِمِ كُلَّ عَامِ

فجاء جرير والفرزدق يضحك، فقال: ما يضحكك يا أبا فراس؟ فأنشده قوله:

(إلامَ تَلَفَّتِين...) فقال جرير:

تَلَقَّتُ أَنَّهَا تَـحْتَ ابنِ قَيـنٍ		إِلَـى الكِيـرَينِ وَالفَـأْسِ الكَهَـامِ
مَتَى تَصِلِ الرُّصَافَةَ تَـخْزَ فِيهَا		كَخِزْيِكَ فِـي الـمَواسِمِ كُـلَّ عَـامِ

كما قال الفرزدق.

فقال الفرزدق: والله قد قلت هذين البيتين. فقال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد!

ويقولون: إن السبب في أنه لم يغلب أحدهما الآخر أن شيطانهما واحد، فكان يعين هذا مرة ويعين الآخر مرة!

وفي القصة التي سبقت في هجاء جرير للراعي النميري وقومِهِ كان الفرزدق مع الراعي وقت إنشاد جرير، فذكر جرير شطر بيت نتركه لإقذاعه فيه فغطى الفرزدق عنفقته فقال جرير:

كَعَنفَقَةِ الفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا

فانصرف الفرزدق وهو يقول: والله لقد علمت حين بدأ البيت أنه لا يقول غير هذا ولكنني طمعت ألا يأتي به فغطيت وجهي فما أغنى ذلك شيئا.

ولما خرج جرير من عند عمر بن عبدالعزيز كما سبق قال: [الطويل]

رَأَيـتُ رُقَـى الشَّـيطَانِ لَا تَسْـتَفِزُّهُ		وَقَد كَانَ شَيطَانِي مِنَ الـجِنِّ رَاقِيَا

وقال أحد الشعراء : [الرجز]

إِنِّي وَكُلَّ شَاعِرٍ مِّنَ البَشَرْ		شَيطَانُهُ أُنثَى وَشَيطَانِي ذَكَرْ

وأخبار شياطين الشعر كثيرة، ويقرب من هذا ما قال الخُبزأرزي –ونعوذ بالله مما قال–:

[الطويل]

وَكُنتُ امْرَأً مِّن جُندِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى		بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِن جُندِي
فَلَوْ مَاتَ قَبْلِي كُنتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ		طَرَائِـقَ فِسْـقٍ لَّيـسَ يُحْسِنُهَـا بَعْـدِي

ومن عجيب أخبار جرير مع الفرزدق: أنه رأى رجلٌ جريرًا في المنام بعد موته، فقال: ما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي. قال: بمه؟ قال: بتكبيرة كبرتها لله في البادية.

قال: فما فعل أخوك الفرزدق؟ قال: هيهات أهلكه قذف المحصنات.

قال الأصمعي: لم يدعه في الحياة ولا في الممات.

وقد قال بعضهم في تفضيل جرير على الفرزدق:

فَاقَ جَرِيرٌ فِي هِجًا فَخْرٍ بَذَخْ وَغَـزَلٍ مَـدْحٍ تَهَكُّـمٍ إِلَخْ

– ومن أعلام هذا العصر عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغَزِل، ليس له شعر في المدح ولا في الهجاء ولا في الفخر وإنما قصر شعره على ذكر النساء! حتى إنه لما قال له سليمان بن عبدالملك: ما لك لا تمدحنا؟ قال: إني لا أمدح الرجال إنما أمدح النساء.

أشهر شعره رائيَّته التي يقول فيها: [الطويل]

أَمِـنْ آلِ نُعْـمٍ أَنـتَ غَـادٍ فَمُبْكِـرُ غَـدَاةَ غَـدٍ أَمْ رَائِـحٌ فَمُهَجِّـرُ

بِحَاجَةِ نَفْسٍ لَّمْ تَقُلْ فِي جَوَابِهَا فَتُبْلِـغَ عُـذْرًا وَّالمَقَالَـةُ تُعْـذِرُ

تَهِيمُ إِلَى نُعْمٍ فَلَا الشَّمْلُ جَامِعٌ وَّلَا الحَبْلُ مَوْصُولٌ وَّلَا القَلْبُ مُقْصِرُ

وَلَا قُرْبُ نُعْمٍ إِن دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ وَّلَا بُعْـدُهَا يُسْـلِي وَلَا أَنـتَ تَصْبِـرُ

إلى أن قال فيها:

وَلَيلَـةَ ذِي دَوْرَانَ جَشَّمَنِـي السُّـرَى وَقَدْ يَجْشِمُ الهَولَ المُحِبُّ المُغَرِّرُ

فَبِـتُّ رَقِيبًـا لِلرِّفَـاقِ عَلَـى شَـفًا أُحَـاذِرُ مِـنهُمْ مَـن يَّطُـوفُ وَأَنظُـرُ

إِلَـيهِمْ مَّتَـى يَسْـتَمْكِنُ النَّـومُ مِـنهُمُ وَلِـي مَجْـلِسٌ لَّـولَا اللُّبَانَـةُ أَوعَـرُ

وَبَاتَـتْ قَلُوصِـي بِالعَـرَاءِ وَرَحْلُهَـا لِطَـارِقِ لَيـلٍ أَوْ لِمَـن جَـاءَ مُعْـوِرُ

وَبِـتُّ أُنَـاجِي الـنَّفْسَ أَيـنَ خِبَاؤُهَـا وَكَيـفَ لِمَـا آتِي مِنَ الأَمْـرِ مَصْـدَرُ

فَـدَلَّ عَلَيهَـا القَلْـبَ رَيَّـا عَرَفْتُهَـا لَـهَا وَهَـوَى النَّفْسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَـرُ

فَلَمَّا فَقَدتُ الصَّوتَ مِنهُمْ وَأُطْفِئَتْ مَصَـابِيحُ شُـبَّتْ بِالعِشَـاءِ وَأَنْـوُرُ

وَغَـابَ قُمَيـرٌ كُنـتُ أَرْجُـو غُيُوبَـهُ وَرَوَّحَ رُعْيَـانٌ وَّنَـوَّمَ سُـمَّرُ

وَنَفَّضْتُ عَنِّي العَينَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ حُبَـابِ وَرُكْنِـي خَشْـيَةَ القَـوْمِ أَزْوَرُ

فَحَيَّيْـتُ إِذْ فَاجَأْتُـهَا فَتَوَلَّـهَتْ وَكَـادَتْ بِمَكْتُـومِ التَّحِيَّـةِ تَـجْهَرُ

وَقَالَـتْ وَعَضَّـتْ بِالبَنَـانِ فَضَحْتَنِـي ... وَأَنـتَ امْـرُؤٌ مَّيسُـورُ أَمْـرِكَ أَعْسَـرُ
أَرَيتَـكَ إِذْ هُنَّـا عَلَيـكَ أَلَـمْ تَـخَفْ ... رَقِيبًـا وَّحَولِـي مِـنْ عَـدَوِّكَ حُضَّـرُ
فَــوَاللهِ مَــا أَدْرِي أَتَعْجِيــلُ حَاجَــةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَن كُنتَ تَحْذَرُ
فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّوقُ وَالهَوَى ... إِلَيكِ وَمَا نَفْسٌ مِّنَ النَّاسِ تَشْعُرُ
فَقَالَـتْ وَقَـدْ لَانَـتْ وَأَفْـرَخَ رَوْعُهَـا ... كَــلَاكَ بِحِفْــظٍ رَبُّــكَ المُتَكَبِّـرُ
فَأَنـتَ أَبَـا الخَطَّـابِ غَيـرُ مُنَـازَعٍ ... عَلَــيَّ أَمِيــرٌ مَّــا مَكَثْــتَ مُؤَمَّــرُ
فَيَـا لَـكَ مِـن لَّيـلٍ تَقَاصَـرَ طُولُـهُ ... وَمَـا كَـانَ لَيلِـي قَبْـلَ ذَلِـكَ يَقْصُـرُ

إلى أن قال:

فَلَمَّــا تَقَضَّــى اللَّيــلُ إِلَّا أَقَلَّــهُ ... وَكَــادَت تَّوَالِــي نَجْــمِهِ تَتَغَــوَّرُ
أَشَارَتْ بِـأَنَّ الـحَيَّ قَـدْ حَانَ مِنهُمُ ... هُبُـوبٌ وَّلَكِـن مَّوْعِـدٌ لَّـكَ عَـزْوَرُ
فَمَــا رَاعَنِــي إِلَّا مُنَــادٍ تَرَحَّلُــوا ... وَقَـدْ لَاحَ مَفْتُـوقٌ مِّنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ
فَلَمَّــا رَأَتْ مَــن قَــدْ تَنَبَّــهَ مِــنهُمُ ... وَأَيْقَـاظَهُمْ قَالَـتْ أَشِـرْ كَيـفَ تَـأْمُرُ
فَقُلْــتُ أُبَادِيهِــمْ فَإِمَّــا أَفُوتُــهُمْ ... وَإِمَّــا يَنَـالُ السَّيــفُ ثَــأْرًا فَيَثْــأَرُ
فَقَالَـتْ أَتَحْقِيـقًا لِّمَـا قَـالَ كَاشِـحٌ ... عَلَينَـا وَتَصْدِيـقًا لِّمَـا كَـانَ يُؤْثَـرُ
فَـإِن كَـانَ مَـا لَا بُـدَّ مِنـهُ فَغَيـرُهُ ... مِـنَ الأَمْـرِ أَدْنَـى لِلخَفَـاءِ وَأَسْتَـرُ
أَقُـصُّ عَلَـى أُخْتَـيَّ بَـدْءَ حَدِيثِـنَا ... وَمَـا لِـي مِـنْ أَن تَعْلَمَـا مُتَأَخَّـرُ
لَعَلَّهُــمَا أَن تَطْلُــبَا لَــكَ مَخْــرَجًا ... وَّأَن تَرْحُبَا صَدْرًا بِمَا كُنتُ أَحْصَرُ
فَقَامَـتْ كَئِيبًـا لَّـيسَ فِـي وَجْهِهَـا دَمٌ ... مِّـنَ الحُـزْنِ تُـذْرِي عَبْـرَةً تَتَحَـدَّرُ
وَقَالَـتْ لِأُخْتَـيهَا أَعِينَـا عَلَـى فَـتًى ... أَتَــى زَائِــرًا وَّالأَمْـرُ لِلأَمْـرِ يُقْـدَرُ
فَقَامَــتْ إِلَيهَــا حُرَّتَــانِ عَلَيهِمَــا ... كِسَـاءَانَ مِـنْ خَـزٍّ دِمَقْسٌ وَأَخْضَرُ
فَأَقْبَلَــتَا فَارْتَاعَــتَا ثُــمَّ قَالَــتَا ... أَقِلِّـي عَلَيـكِ اللَّومَ فَالخَطْبُ أَيسَرُ
فَقَالَتْ لَهَا الصُّغْرَى: سَأُعْطِيهِ مُطْرَفِي ... وَدِرْعِـي وَهَـذَا البُـرْدَ إِن كَانَ يَحْذَرُ
يَقُــومُ فَيَمْشِــي بَينَنَــا مُتَنَكِّــرًا ... فَـلَا سِرُّنَـا يَفْشُـو وَلَا هُـو يُبْصَـرُ

فَكَـانَ مِجَنِّـي دُونَ مَـن كُنـتُ أَتَّقِـي ثَـلَاثُ شُخُـوصٍ: كَاعِـبَانِ وَمُعْصِـرُ

وإلى مِجَنِّهِ هذا أشار في الشمقمقية بقوله: [الرجز]

وَاتَّـخِذِ الصَّبْـرَ دِلَاصًـا سَـابِغًا وَّبِــــمِجَنِّ عُــــمَرٍ لَا تَتَّــــقِي

يقول:

فَلَمَّـا أَجَزْنَـا سَـاحَةَ الـحَيِّ قُلْـنَ لِـي أَمَـا تَتَّقِـي الأَعْـدَاءَ وَاللَّيْـلُ مُقْمِـرُ
وَقُلْـنَ أَهَـذَا دَأْبُـكَ الـدَّهْرَ سَـادِرًا أَمَـا تَسْـتَحِي أَوْ تَرْعَـوِي أَوْ تُفَكِّـرُ
إِذَا جِئْتَ فَامْنَحْ طَرْفَ عَينِكَ غَيرَنَا لِكَي يَحْسِبُوا أَنَّ الهَوَى حَيثُ تَنظُرُ
فَآخِرُ عَهْدٍ لِّي بِهَا حَيثُ أَعْرَضَتْ وَلَاحَ لَـهَا خَـدٌّ نَّقِـيٌّ وَّمَحْجِـرُ

وقد سئل حماد الراوية عن شِعْر ابن أبي ربيعة فقال: ذلك الفُستُق المُقشَّر الذي لا يُشبَع منه.

وقال الأصمعي: أنشد ابنُ أبي ربيعة عبدَالله بن عباس أو طلحةَ بن عبيدالله قصيدة، فما زال شانقًا ناقته حتى كتبت له.

وكان بعض ولد الزبير يَسأل عما لا يحفظ من شعر عمر بن أبي ربيعة، فإذا ذكر له شيء كتبه ويده ترتعد من الفرح.

ولعمر قصيدة أخرى يقول فيها: [الرمل]

لَيـتَ هِنـدًا أَنجَـزَتْنَا مَـا تَعِـدْ وَشَـفَتْ أَنفُسَـنَا مِـمَّا تَـجِدْ
وَاسْـــتَبَدَّتْ مَـــرَّةً وَّاحِـــدَةً إِنَّـمَا العَـاجِزُ مَـن لَّا يَسْـتَبِدْ
زَعَمُوهَــا سَــأَلَتْ جَارَاتِــهَا

إلى آخر ما قال.

وشعره من المضنون به على غير أهله لما فيه من الإيغال في الغزل، وقد كانت ولادة عمر بن أبي ربيعة في اليوم الذي توفي فيه عمر بن الخطاب، فكان الناس يقولون: أيُّ خيرٍ رُفِع وأيُّ شرٍّ وُضِع!

- ومن أعلام هذا العصر في الشعر: قَطَرِيُّ بن الفُجَاءَة الخارجي، الذي يقول: [الوافر]

أَقُولُ لَـهَا وَقَـد طَـارَتْ شَعَـاعًا ... مِّـنَ الأَبْطَـالِ وَيْـحَكِ لَـن تُـرَاعِي

فَإِنَّـكِ لَـوْ سَـأَلْتِ بَقَـاءِ يَـومٍ ... عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ المَوتِ صَبْرًا ... فَمَـا نَيْـلُ الخُلُـودِ بِـمُسْتَطَاعِ

إلى أن يقول:

وَمَـا لِلمَـرْءِ خَيـرٌ فِـي حَيَـاةٍ ... إِذَا مَـا عُـدَّ مِـن سَقَـطِ المَـتَاعِ

وكان الثَّوْرِي كثيرًا ما يتمثَّل بأبيات عِمْرَانَ بنِ حِطَّان الخارجي: [الطويل]

أَرَى أَشْـقِيَاءَ النَّـاسِ لَا يَسْأَمُونَـهَا ... عَلَـى أَنَّـهُمْ فِيهَـا عُـرَاةٌ وَّجُـوَّعُ

أَرَاهَـا وَإِن كَانَـتْ تُـحَبَّ فَإِنَّـهَا ... سَـحَابَةُ صَـيفٍ عَـن قَلِيـلٍ تَقَشَّـعُ

كَرَكْـبٍ قَضَـوا حَاجَاتِـهِمْ وَتَرَحَّلُـوا ... طَـرِيقُهُمُ بَـادِي العَلَامَـةِ مَهْيَـعُ

وقد ذكر المُبرّد في الكامل كثيرًا من شعر الخوارج.

- ومن أعلام هذا العصر: مجنونُ ليلى قيسُ بنُ الملوَّح له قصيدته الموسومة بالمؤنسة، قيل: إنه كان يحفظها دون باقي أشعاره وكان لا يخلو بنفسه إلا أنشدها، وهي طويلة وفي رواياتها اختلاف في الترتيب والزيادة والنقص مطلعها قوله: [الطويل]

تَـذَكَّرْتُ لَيْلَـى وَالسِّـنِينَ الخَوالِيَـا ... وَأَيَّامَ لَا نَخْشَى عَلَى اللَّهْوِ نَاهِيَا

وفيها يقول:

إِذَا طَنَّتِ الأُذْنَـانِ قُلْتُ ذَكَرْتِنِـيْ ... أَوِ اخْتَلَجَـتْ عَينِي رَجَوْتُ التَّلَاقِيَا

أُصَلِّي فَمَـا أَدْرِي إِذَا مَـا ذَكَرْتُـهَا ... أَثِنْتَيـنِ صَـلَّيتُ الضُّحَى أَمْ ثَـمَانِيَا

خَلِيلَـيَّ إِن ضَـنُّوا بِلَيْلَـى فَقَرِّبَـا ... لِيَ النَّعْشَ وَالأَكْفَـانَ وَاسْتَغْفِرَا لِيَا

خَلِيلَـيَّ إِلَّا تَبْكِيَـا لِـيَ أَسْـتَعِنْ ... خَلِيلًا إِذَا أَفْنَيـتُ دَمْعِي بَكَـى لِيَـا

فَلَوْ أَنَّنِي أَشْكُو الَّذِي قَد وَجَدتُّهُ ... إِلَـى مَيِّـتٍ فِـي قَبْـرِهِ لَبَكَـى لِيَـا

وَلَوْ أَنَّنِي أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى جَبَلٍ صَعْبِ الذُّرَى لَانْحَنَى لِيَا

وَلَوْ أَنَّنِي أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَـى مُقْعَـدٍ فِـي بَيتِـهِ لَعَـدَا لِيَـا

وَإِنِّـي لَأَسْتَغْشِـي وَمَـا بِـيَ نَعْسَـةٌ   لَّعَـلَّ خَيَـالًا مِّنـكِ يَلْقَـى خَيَالِيَـا

وهو الذي يقول: [البسيط]

يَـا رَبِّ لَا تَسْلُبَنِّـي حُبَّهَـا أَبَـدًا   وَّيَـرْحَمُ اللهُ عَبْـدًا قَـالَ آمِينَـا

ولعلهم قالوا: آمين. فابتلي!

نسأل الله العافية.

وفي مؤنستِهِ يقول:

إِذَا سِرْتُ فِي الأَرْضِ الفَضَاءِ رَأَيْتُنِي   أُدَارِيُ رَحْلِـي أَن يَّمِيـلَ حِيَـالِيَا

يَـمِينًا إِذَا كَانَـتْ يَـمِينًا وَّإِن تَكُـن   شِمَالًا يُّنَازِعْنِي الهَوَى عَن شِمَالِيَا

أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا   وَأَشْـبَهَهُ أَوْ كَـانَ مِنـهُ مُـدَانِيَا

هِـيَ السِّـحْرُ إِلَّا أَنَّ لِلسِّـحْرِ رُقْيَـةً   وَّإِنِّـيَ لَا أَلْقَـى لَـهَا الـدَّهْرَ رَاقِيَـا

وهو صاحب البيت المشهور: [الطويل]

مَحَا حُبُّهَا حُبَّ الأُلَى كُنَّ قَبْلَهَا   وَحَلَّتْ مَكَانًا لَّمْ يَكُنْ حُلَّ مِن قَبْلُ

- ومن أعلام هذا العصر: كُثَيِّرُ عَزَّة الذي يقول: [الطويل]

خَلِيلَـيَّ هَـذَا رَبْـعُ عَـزَّةَ فَـاعْقِلَا   قَلُوصَـيْكُمَا ثُـمَّ ابْكِيَـا حَيـثُ حَلَّـتِ

وَمَسَّا تُرَابًا كَانَ قَد مَسَّ جِلدَهَا   وَبِيتَـا وَظَـلَّا حَيـثُ بَاتَـتْ وَظَلَّـتِ

وَمَا كُنتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا البُكَا   وَلَا مُوجِعَـاتِ القَلْـبِ حَـتَّى تَوَلَّـتِ

وَمَا أَنصَفَتْ أَمَّا النِّسَاءَ فَبَغَّضَتْ   إِلَينَـا وَأَمَّـا بِـالنَّوَالِ فَضَـنَّتِ

وكأنَّ قصيدته هذه كانت حاضرة عند الإمام الشعبيّ فقد استشهد بها في أكثر من موضع.

قال: ما أعلم لنا وللدنيا مثلًا إلا ما قال كُثَيِّر:

أَسِـيئِي بِنَـا أَوْ أَحْسِـنِي لَا مَلُومَـةً   لَـدَينَا وَلَا مَقْلِيَّـةً إِنْ تَقَلَّـتِ

ومَرَّ يومًا بقوم فسمعهم ينتقصونه فقال:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ   لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

ودخل مرةً على ابن عم له، فخلا به في بيته، وبينهما تباعد، فجعل ابن عم الشعبي يقع فيه، ويأخذ من عرضه، فخرج الشعبي وهو يقول:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ   لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

فندم واعتذر إلى الشعبي وقال: يا أبا عمرو، اعذِرني، فوالله لا أعود إلى مثلها.

ومن شعر كثيّر قوله: [الطويل]

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِّعَزَّةَ نَاقَتِي   وَفِي البُرْدِ رَشَّاشٌ مِّنَ الدَّمْعِ يَسْفَحُ

فَيَا عَزُّ أَنتِ البَدْرُ قَدْ حَالَ دُونَهُ   رَجِيعُ التُرَابِ والصَّفِيحُ الـمُضَرَّحُ

وَقَدْ كُنتُ أَبْكِي مِن فِرَاقِكِ حَيَّةً   وَأَنتِ لَعَمْرِي اليَومَ أَنْأَى وَأَنزَحُ

اعترضته عجوز مرة فقالت له: أنت القائل: [الطويل]

فَمَا رَوْضَةٌ بِالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى   يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا

بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوهِنًا   إِذَا أُوْقِدَتْ بِالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُهَا

ويحك! كان امرؤ القيس أحسن نعتًا لصاحبته حيث يقول: [الطويل]

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا   وَّجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَّإِن لَّمْ تَطَيَّبِ

فسكت ولم يرجع بشيء.

- ومن أعلام هذا العصر: ذو الرُّمَّة غيلان، ومن أجمل شعره قوله يمدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: [الطويل]

وَلَكِنَّنِي أَقْبَلْتُ مِن جَانِبَي قَسًا   أَزُورُ فَتًى مَحْضًا نَّجِيبًا يَمَانِيَا

مِنَ آلِ أَبِي مُوسَى تَرَى النَّاسَ حَولَهُ   كَأَنَّهُمُ الكِرْوَانُ أَبْصَرْنَ بَازِيَا

مُرِمِّينَ مِن لَّيثٍ عَلَيهِ مَهَابَةٌ   تَفَادَى الأُسُودُ الغُلْبُ مِنهُ تَفَادِيَا

فَمَا يُغْرِبُونَ الضِّحْكَ إِلَّا تَبَسُّمًا   وَّلَا يَنبِسُونَ القَولَ إِلَّا تَنَاجِيَا

لَدَى مَلِكٍ يَّعْلُو الرِّجَالَ بِضَوئِهِ   كَمَا يُبهِرُ البَدْرُ النُّجُومَ السَّوَارِيَا

فَلَا الفُحْشَ مِنهُ يَرْهَبُونَ وَلَا الخَنَا عَلَيهِمْ وَلَكِنْ هَيبَةٌ هِيَ مَا هِيَا
فَتَى السِّنِّ كَهْلَ الحِلْمِ تَسْمَعُ قَولَهُ يُوَازِنُ أَدْنَاهُ الجِبَالَ الرَّوَاسِيَا

ومن شعر ذي الرمة قوله: [الطويل]

تَرَدَّيْتَ مِنْ أَلْوَانِ نَوْرٍ كَأَنَّهَا زَرَابِيُّ وَانْهَلَّتْ عَلَيْكَ الرَّوَاعِدُ

هذا البيت له قصة حصلت بعد ذلك وهي أن المُجَيدِرِي -وهو من علماء شنقيط- كان في المغرب فأراد أن يبعث إلى أمه سِلْهَامًا -وهو نوع من اللباس كالبرنس يستعمله الأندلسيون- وَزَرْبِيَّةً -وهي البساط- ولم يأتمن هذا الذي سيحمل السلهام والزربية فكتب ورقة معه فيها: (سلام بزيادة لامِ ماءٍ إلى لامِه، وإحدى خبر كأن في قول الشاعر: تَرَدَّيْتَ إلى آخر كلامِه).

فلما أعطاه الورقة لم يفهمها، فأخذ السلهام والزربية لنفسه وذهب إلى أم الشيخ وأعطاها الورقة، فقالت له: هاتِ السلهام والزربية!

كيف عَرَفَت؟

لامُ ماءٍ الهاء؛ بدليل أنه يُجمع على أَمْوَاه، فإذا زدنا لام ماء إلى لام سلام صارت سِلْهَامًا.
وإحدى خبر كأن في قوله ترديت إلى آخر كلامه: في بيت ذي الرمة، كأنها زرابي: إحدى الزَّرَابِيّ زَرْبِيَّة.

القصة ذكرها بنحوها الشيخ أحمد الأمين الشنقيطي في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

- ومن أعلام هذا العصر: الصِّمَّة القشيري وكان قد خطب بنت عمه فاشتَطَّ عليه عمه في المهر فسأل أباه أن يعينه فأبى، وسأل عشيرته فأعطوه، فأتى عمَّه بالإبل فقال له عمه: لا أقبلها إلا من مال أبيك. وعاود أباه فمنعه، فلما رأى ذلك منهما قطع عُقُل الإبل وأرسلها فعاد كل بعير إلى إلافِهِ منها، وتَحَمَّل الصِّمَّة راحلًا إلى الشام فقالت بنت عمه لما رأته راحلًا: تالله ما رأيت كاليوم فَتًى باعته عشيرته بِأَبْعِرَة!

فمضى حتى لَحِق بالشام فقال قصيدته التي قال عنها بعض الأدباء: لو حلف حالفٌ أنها أحسن أبيات قيلت في النسيب في الجاهلية والإسلام ما حنِث.

يقول فيها: [الطويل]

حَنَنـتَ إِلَـى رَيَّـا وَنَفْسُـكَ بَاعَـدَتْ مَـزَارَكَ مِـنْ رَيَّـا وَشَـعْبَاكُمَا مَعَـا

فَمَـا حَسَـنٌ أَن تَأْتِـيَ الأَمْـرَ طَائِعًـا وَّتَـجْزَعَ أَن دَاعِـي الصَّبَابَةِ أَسْـمَعَا

قِفَـا وَدِّعَـا نَـجْدًا وَّمَـنْ حَـلَّ بِالـحِمَى وَقَـلَّ لِنَجْـدٍ عِنـدَنَا أَن تُوَدَّعَـا

وَلَمَّـا رَأَيـتُ البِشْـرَ أَعْـرَضَ دُونَنَـا وَجَالَـتْ بَنَاتُ الشَّوْقِ يَـحْنِنَّ نُزَّعَا

بَكَـتْ عَينِـيَ اليُسْـرَى فَلَمَّـا زَجَرْتُـهَا عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الـحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

تَلَفَّـتُّ نَـحْوَ الـحَيِّ حَتَّـى وَجَدتُّنِـي وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتًا وَّأَخْدَعَا

وَأَذْكُـرُ أَيَّـامَ الـحِمَى ثُـمَّ أَنثَنِـي عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَن تَصَدَّعَا

وَلَيسَـتْ عَشِـيَّاتُ الـحِمَى بِرَوَاجِـعٍ إِلَيـكَ وَلَكِـنْ خَـلِّ عَينَيـكَ تَـدْمَعَا

هذا آخر ما يتعلق بالعصر الأموي، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الرابع عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

٣/ العصر العبَّاسي

* بَشَّار بن بُرْد

* بيتان لبشار وُجِدا في رقعة بعد موته يهجو فيهما آل سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس من غير قدح في دين ولا عِرض.

- أبيات في الصديق والصداقة.

- صحبة الأحمق وحكاية الدب.

* أبو نُوَاس، وتوبته قبل موته وما قال في ذلك من الشعر.

* أبو العَتَاهِيَة

* أبياته في مدح المهدي التي كادت أن تُطيره عن فراشه!

* أبو تَمَّام.

* صالح بن عبدالقدوس واتِّهامه بالزَّندقة.

* قصيدته الزينبية

* علي بن الجَهْم وقصته مع المُتوكِّل.

* البُحْتُرِي وشعره في المتوكل يذكر خروجه لصلاة عيد الفطر.

* خبر البَلَاذُرِيِّ مع المستعين.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فكنا قد ألممنا بشيء من شعر العصر الأموي ونشرع اليوم في شعر العصر العباسي.

- من أعلام هذا العصر بشار بن برد، كان بشّار شاعرًا كبيرًا مُفْلِقا، وكان المهديُّ يُدْنِيه، ويجزل له العطايا، ثم إنه رُمِي بالزندقة، فقتله المهدي، ثم ندم على قتله فأراد أن يتعلق بشيء لعله يُذهِب هذا اللَّوم الذي يجده في نفسه، فوجد رقعة في بيت بشار مكتوبًا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، إني أردتُ أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس فذكرت قرابتهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فمنعني ذلك من هجوهم ووهبتهم له!

وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عِرْضا، ولم أقدح في دِين، وهما: [البسيط]

دِينَـارُ آلِ سُـلَيمَانٍ وَّدِرْهَـمُهُمْ كَالبَابِلِيَّيْــنِ شُــدَّا بِالعَفَارِيــتِ

لَا يُوجَدَانِ وَلَا يُرْجَى لِقَاؤُهُمَا كَمَا سَمِعْتَ بِهَارُوتٍ وَّمَارُوتِ

فقال المهدي: الآن واللهِ صحَّ الندم.

ولبشار بيت يقول فيه: [الخفيف]

بَكِّـرَا صَاحِبَـيَّ قَبْـلَ الـهَجِيـرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَـاحَ فِــي التَّبْكِيــرِ

قال له مرَّةً خلفٌ الأحمر: لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح) (بكِّرا فالنجاح) كان أحسن. فقال بشار: إنما بَنَيتُها أعرابية وَحْشِيَّة، فقلت: (إن ذاك النجاح) كما يقولها الأعراب البدويون، ولو قلت: (بكِّرا فالنجاح) كان هذا من كلام المُوَلَّدين، فقام خلف فقبّل بين عينيه.

قيل مرة لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين المُتفاوت! قال: وما ذاك؟ قالوا: بينما أنت تثير النَّقْع وتخلع القلوب إذ تقول: [الطويل]

إِذَا مَــا غَضِــبْنَا غَضْــبَةً مُّضَــرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدِّمَا

نراك تقول: [مجزوء الوافر]

رَبَابَـــةُ رَبَّـــةُ البَيْـــتِ   تَصُـبُّ الـخَلَّ فِـي الزَّيْـتِ
لَـــهَا عَشْـــرُ دَجَاجَـــاتٍ   وَّدِيـــكٌ حَسَـــنُ الصَّـــوْتِ

فقال بشار: لكلٍّ وجهٌ وموضع، فربابة جاريتي، لها عشر دجاجات وديك، تجمع لي البيض وأنا لا آكل البيض من السوق، وهذا القول أحسن عندها من: [الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ وَّمَنزِلِ

من جميل شعره قوله: [الطويل]

إِذَا كُنـتَ فِـي كُـلِّ الأُمُـورِ مُعَاتِبًـا   صَدِيقَكَ لَـمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ
فَعِـشْ وَاحِـدًا أَوْ صِـلْ أَخَـاكَ فَإِنَّـهُ   مُقَـارِفُ ذَنْـبٍ مَّـرَّةً وَّمُـجَانِبُهُ
إِذَا أَنتَ لَـمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى القَذَى   ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وقريب من هذا قول النابغة الذُّبياني: [الطويل]

وَلَسْـتَ بِـمُسْتَبْقٍ أَخًـا لَّا تَلُمُّـهُ   عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

لَا يُزْهِـــدَنَّكَ فِـــي أَخٍ   لَـــكَ أَن تَـــرَاهُ زَلَّ زَلَّـــهْ
مَـا مِـنْ أَخٍ لَّـكَ لَا يُعَـا   بُ وَلَو حَرَصْتَ الحِرْصَ كُلَّهْ

وقريب منه قول الآخر: [مجزوء الرجز]

عَاتِـبْ أَخَـاكَ الجَانِـي   بِالبِـــرِّ وَالإِحْسَـــانِ
حَـافِظْ عَلَـى الصَّـدِيقِ   فِـي الوُسْـعِ وَالـمَضِيقِ
فَهُـــمْ نَسِـيمُ الـرُّوحِ   وَمَـــرْهَمُ الـــجُرُوحِ

هذه الأبيات الثلاثة من عشرة الإخوان، وفيها في التحذير في صحبة الأحمق حكايةُ الدُّبِّ يقول فيها:

رَوَى أُولُـــو الأَخْبَـــارِ   عَـــن رَجُـــلٍ سَـــيَّارِ
أَبْصَـــرَ فِـــي صَـــحْرَاءِ   فَسِـــيحَةِ الأَرْجَـــاءِ

دُبًّـــا عَظِيمًـــا مُّوثَقَـــا فِـــي سَـــرْحَةٍ مُّعَلَّقَـــا
يَعْـــوِي عُـــوَاءَ الكَلْـــبِ مِـــن شِـــدَّةٍ وَّكَـــرْبِ
فَأَدْرَكَتْـــــهُ الشَّـــــفَقَهْ عَلَيـــهِ حَتَّـــى أَطْلَقَـــهْ
وَحَلَّـــهُ مِـــن قَيـــدِهِ لِأَمْنِـــهِ مِـــن كَيـــدِهِ
وَنَـــامَ تَـــحْتَ الشَّـــجَرَهْ مَنَـــامَ مَـــن قَـــدْ أَضْـــجَرَهْ
طُـــولُ الطَّرِيـــقِ وَالسَّـــفَرْ فَنَـــامَ مِـــن فَـــرْطِ الضَّـــجَرْ
فَجَـــاءَ ذَاكَ الـــدُّبُّ عَـــن وَّجْهِـــهِ يَـــدِبُّ
وَقَـــالَ هَـــذَا الـــخِلُّ جَفَـــاهُ لَا يَـــحِلُّ
أَنقَذَنِـــي مِـــنْ أَسْـــرِي وَفَـــكَّ قَيـــدَ عُسْـــرِي
فَحَقُّـــهُ أَنْ أَرْصُـــدَهْ مِـــن كُـــلِّ سُـــوءٍ قَصَـــدَهْ
فَأَقْبَلَـــتْ ذُبَابَـــهْ تَـــرِنُّ كَالرَّبَابَـــهْ
فَوَقَعَـــتْ لِـــحَينِهِ عَلَـــى شِـــفَارِ عَينِـــهِ
فَجَـــاشَ غَـــيظُ الـــدُّبِّ وَقَـــالَ لَا وَرَبِّـــي
لَا أَدَعُ الـــذُّبَابَا يُســـيمُهُ عَـــذَابَا
فَأَسْـــرَعَ الـــدَّبِيبَا لِصَـــخْرَةً قَرِيبَـــا
فَقَلَّهَـــا وَأَقْـــبَلَا يَسْـــعَى إِلَيـــهِ عَجِـــلَا
حَتَّـــى إِذَا حَـــاذَاهُ صَـــكَّ بِـــهَا مَـــحْذَاهُ
لِيَقْتُـــلَ الذُّبَابَـــهْ قَـــتْلًا بِـــلَا إِرَابَـــهْ
فَـــرَضَّ مِنْـــهُ الرَّاسَـــا وَفَـــرَّقَ الأَضْرَاسَـــا
وَأَهْلَـــكَ الـــخَلِيلَا بِفِعْلِـــهِ الـــجَمِيلَا
فَهَـــذِهِ الرِّوَايَـــهْ تَنْهَـــى عَـــنِ الغَوَايَـــهْ
فِـــي طَلَـــبِ الصَّـــدَاقَهْ عِنـــدَ أُولِـــي الـــحَمَاقَهْ
إِذْ كَـــانَ فِعْـــلَ الـــدُّبِّ هَـــذَا لِفَـــرْطِ الـــحُبِّ
وَجَـــاءَ فِـــي الصَّـــحِيحِ نَقْـــلًا عَـــنِ الـــمَسِيحِ

عَالَـــجْتُ كُـــلَّ أَكْمَـــهْ   وَأَبْـــــــرَصٍ مُّشَـــــــوَّهْ
لَكِنَّنِــــــي لَـــــمْ أُطِـــقِ   قَـــطُّ عِــلَاجَ الأَحْـــمَقِ

ومن جميل ما قيل في الصديق قول سعدي الشِّيرازي: [الرمل]

قَــالَ لِــي المَحْبُــوبُ لَمَّــا زُرْتُــهُ   مَــن بِبَابِــي قُلْــتُ بِالبَــابِ أَنَــا
قَــالَ لِــي أَخْطَــأْتَ تَعْرِيــفَ الــهَوَى   حِينَمَـــا فَرَّقْـــتَ فِيـــهِ بَينَنَـــا
وَمَضَـــــى عَـــــامٌ فَلَّمَـــــا جِئْتُـــــهُ   أَطْـــرُقُ البَـــابَ عَلَيـــهِ مَوْهِنَـــا
قَالَ لِي مَـنْ أَنـتَ قُلْتُ انظُـرْ فَمَـا   ثَـــمَّ إِلَّا أَنـــتَ بِالبَـــابِ هُنَـــا
قَـالَ لِـي أَحْسَـنتَ تَعْرِيـفَ الـهَوَى   وَعَرَفْـتَ الـحُبَّ فَادْخُـلْ يَـا أَنَـا

وله أيضًا: [الوافر]

بَكَـتْ عَيْنِي غَدَاةَ البَيْـنِ دَمْعَا   وَأُخْرَى بِالبُكَا بَخِلَتْ عَلَينَا
فَعَاقَبْـتُ الَّتِـي بِالـدَّمْعِ ضَنَّـتْ   بِـأَنْ أَغْمَضْـتُهَا يَـومَ الْتَقَيـنَا

ومن جميل ما قيل في الصديق قول زيادٍ الأعجم: [الوافر]

أَخٌ لَّـــكَ لَا تَـــرَاهُ الـــدَّهْرَ إِلَّا   عَلَـى العِـلَّاتِ بَسَّـامًا جَـوَادَا
سَـأَلْنَاهُ الجَزِيـلَ فَمَـا تَلَكَّـا   وَأَعْطَـى فَـوقَ مُنْيَتِنَـا وَزَادَا
فَـأَعْطَى ثُـمَّ أَعْطَـى ثُـمَّ عُـدْنَا   فَـأَعْطَى ثُـمَّ عُـدْتُ لَـهُ فَعَـادَا
مِـــرَارًا لَّا أَعُـــودُ إِلَيـــهِ إِلَّا   تَبَسَّـمَ ضَاحِكًا وَثَنَى الوِسَادَا

وقال آخر: [الطويل]

وَمِــنْ عَجَــبٍ أَنِّــي أَحِــنُّ إِلَــيهِمُ   وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمُ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَينِـي وَهُـمْ فِـي سَوَادِهَا   وَيَشْتَاقُهُـمْ قَلْبِـي وَهُمْ بَينَ أَضْلُعِي

- ومن أعلام هذا العصر: أبو نُوَاس واسمه الحسن بن هانئ، وقد أوفى على الغاية في متانة الأسلوب وسلاسة النظم ولكنْ له أشعار بَشِعَة شنيعة، كما يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية: فيه مُجُون وخَلَاعة كثيرة.

وهو وصَّاف للخمر، يقول: [البسيط]

دَعْ عَنكَ لَومِي فَإِنَّ اللَّومَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

والخمر من أسمائها القهوة، يقول: [الخفيف]

قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سَقِيمَا وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثَوْبَ الصَّحِيحِ

ومن اللطيف ما حصل من تصحيف في أبيات يقول صاحبها: [مجزوء الكامل]

لَيسَ الأَدِيبُ أَخَا الرِّوَا يَةِ لِلنَّوَادِرِ وَالغَرِيبْ
وَلِشِعْرِ شَيخِ المُحْدَثِيـ ـنَ أَبِي نُوَاسٍ أَوْ حَبِيبْ
بَلْ ذُو التَّفَضُّلِ وَالمُرُو ءَةِ وَالعَفَافِ هُوَ الأَدِيبْ

قال بعضهم فيها: شيخ المُحَدِّثين أبي نواس أو حبيب!

من أخباره: أنه خرج مرة فاستقبله أعرابي ومعه غنم، فقال أبو نواس: [الطويل]

أَيَا صَاحِبَ الذَّوْدِ اللَّوَاتِي تَسُوقُهَا بِكَمْ ذَلِكَ الكَبْشُ الَّذِي قَد تَقَدَّمَا

فقال الأعرابي:

أَبِيعُكَهُ إِن كُنتَ تَبْغِي شِرَائَهُ وَلَمْ تَكُ مَزَّاحًا بِعِشْرِينَ دِرْهَمَا

فقال أبو نواس:

أَخَذْتَ هَدَاكَ اللهُ رُجْعَى جَوَابِنَا فَأَحْسِنْ إِلَينَا إِنْ أَرَدْتَ تَكَرُّمَا

فقال الأعرابي:

أَحُطُّ مِنَ العِشْرِينَ خَمْسًا لِأَنَّنِي أَرَاكَ ظَرِيفًا أَخْرِجَنْهَا مُسَلَّمَا

فقيل للأعرابي بعد ذلك: أتدري من تكلم منذ اليوم؟ هذا أبو نواس، فرجع فلحقه وحلف بصدقة غنمه إن لم يقبله.

ومما ذُكر من أخباره –والله أعلم بصحته–: أنه دخل مرة على بعض أصحابه وشكا إليهم أن صاحبًا له جفاه، فقال أحدهم مداعبًا له: هلا استعنت بشيخك؟ قال: ومن؟ قال: الذي أنت في طاعته ليلك ونهارك إبليس! إن لم يقض لك هذه الحاجة فما ينبغي لك أن

تُقرَّ عينه بمعصية!

فلما كان بعد أيام اجتمعوا، فأخبرهم أن شيخه قد قضى حاجته، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: اسمعوا: [المنسرح]

لَمَّا جَفَانِي الحَبِيبُ وَامْتَنَعَتْ عَنِّي الرِّسَالَاتُ مِنهُ وَالخَبَرُ
وَاشْتَدَّ شَوْقِي فَكَادَ يَقْتُلُنِي ذِكْرُ حَبِيبِي وَالهَمُّ وَالفِكَرُ
دَعَوتُ إِبْلِيسَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ فِي خَلْوَةٍ وَّالدُّمُوعُ تَنْحَدِرُ
أَمَا تَرَى كَيفَ قَدْ بُلِيتُ وَقَدْ أَقْرَحَ جَفْنِي البُكَاءُ وَالسَّهَرُ
إِنْ أَنتَ لَمْ تُلْقِ لِي المَوَدَّةَ فِي صَدْرِ حَبِيبِي وَأَنتَ مُقْتَدِرُ
لَا قُلْتُ شِعْرًا وَّلَا سَمِعتُ غِنًا وَّلَا جَرَى فِي مَفَاصِلِي السَّكَرُ
وَلَا أَزَالُ القُرَانَ أَدْرُسُهُ أَرُوحُ فِي دَرْسِهِ وَأَبْتَكِرُ
وَأَلْزَمُ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ وَلَا أَزَالُ دَهْرِي بِالخَيرِ آتَمِرُ
فَمَا مَضَتْ بَعْدَ ذَاكَ ثَالِثَةٌ حَتَّى أَتَانِي الحَبِيبُ يَعْتَذِرُ
وَيَطْلُبُ الوُدَّ وَالوِصَالَ عَلَى أَفْضَلِ مَا كَانَ قَبْلَ يَهْتَجِرُ
فَيَا لَهَا مِنَّةً لَّقَدْ عَظُمَتْ عِنْدِي لِإِبْلِيسَ مَا لَهَا خَطَرُ

وقد ذكروا في ترجمته أنه تاب في آخر عمره، وقال: [الكامل]

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِن كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَن يَّلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَلَئِن رَدَدْتَ يَدِي فَمَن ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

وقال أيضًا: [الطويل]

تَعَاظَمَنِي ذَنبِي فَلَمَّا قَرَنتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنبِ لَمْ تَزَلْ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَّتَكَرُّمَا

وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتُها في النرجس -ذكر في المِصْبَاح أن الكسر للنون أَقْيَس من الفتح، وكلاهما جائز- وهو قوله: [الوافر]

تَأَمَّـلْ فِـي نَبَـاتِ الأَرْضِ وَانظُـرْ   إِلَـى آثَـارِ مَـا صَنَـعَ الـمَلِيكُ
عُيُـونٌ مِّـن لُجَيـنٍ شَاخِصَـاتٌ   بِأَحْـدَاقٍ هِـيَ الـذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَـى قُضُـبِ الزَّبَرْجَـدِ شَـاهِدَاتٌ   بِـأَنَّ اللهَ لَـيسَ لَـهُ شَـرِيكُ

- ومن أعلام هذا العصر أبو العتاهية، وقد كان أبو نُوَاس يُعظِّمه، ويقول: والله ما رأيته إلا توهَّمْتُ أنه سَماويّ وأني أرضيّ!

له زهديات كثيرة منها قوله: [مجزوء الرمل]

خَانَكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ   أَيُّهَا القَلْبُ الجَمُوحُ
لِـدَوَاعِي الخَيـرِ وَالشَّـرْ   رِ دُنُـوٌّ وَّنُـزُوحُ
هَـلْ لِمَطْلُـوبٍ بِـذَنبٍ   تَوْبَـةٌ مِّنْـهُ نَصُـوحُ
كُلُّنَـا فِـي غَفْلَـةٍ وَّالـ   ـمَوتُ يَغْـدُو وَيَـرُوحُ
لِبَنِـي الـدُّنْيَا مِـنَ الدُّنْـ   ـيَا غَبُـوقٌ وَّصَـبُوحُ

ومنها قوله: [الكامل]

أَهْـلَ القُبُـورِ عَلَـيكُمُ مِنِّـي السَّـلَامْ   إِنِّـي أُكَلِّمُكُـمْ وَلَـيسَ بِكُـمْ كَـلَامْ
لَا تَـحْسِبُوا أَنَّ الأَحِبَّـةَ لَـمْ يَسُـغْ   مِن بَعْدِكُمْ لَهُمُ الشَّرَابُ وَلَا الطَّعَامْ
كَـلَّا لَقَـدْ رَفَضُـوكُمْ وَاسْـتَبْدَلُوا   بِكُـمُ وَفَـرَّقَ ذَاتَ بَيْـنِكُمُ الـحِمَامْ
وَالـخَلْقُ كُلُّهُـمُ كَـذَاكَ فَكُـلُّ مَـن   قَدْ مَـاتَ لَيسَ لَهُ عَلَى حَيٍّ ذِمَـامْ
سَـاءَلْتُ أَجْـدَاثَ الـمُلُوكِ فَأَخْبَرَتْـ   ـنِـي أَنَّـهُمْ فِـيهِنَّ أَعْضَـاءٌ وَّهَـامْ
لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ أَجْسَادِهِمْ تِلْكَ الَّتِي   غُـذِيَتْ بِـأَنْعَمِ عِيشَـةٍ إِلَّا العِظَـامْ
للهِ مَـا وَارَى التُّـرَابُ مِـنَ الأُلَـى   كَـانُوا الكِـرَامَ هُـمُ إِذَا ذُكِـرَ الكِـرَامْ
للهِ مَـا وَارَى التُّـرَابُ مِـنَ الأُلَـى   كَـانُوا وَجَـارُهُمُ مَنِيـعٌ لَا يُضَـامْ

أَفْنَاهُمُ مَن لَّمْ يَزَلْ يُفْنِي الْمُلُو ... كَ وَلِلْفَنَاءِ وَلِلْبِلَى خُلِقَ الأَنَامْ
يَا صَاحِبَيَّ نَسِيتُ دَارَ إِقَامَتِي ... وَعَمَرْتُ دَارًا لَيسَ لِي فِيهَا مُقَامْ
مَا نِلْتُ مِنهَا لَذَّةً إِلَّا وَقَدْ ... أَبَتِ الحَوَادِثُ أَن يَّكُونَ لَهَا دَوَامْ

هذه الأبيات، هي من بحر الكامل التام المُذيَّل، والتذييل في بحر الكامل زيادة حرف ساكن على متَفاعلن فتصير متَفاعلان، وهذا مخالف لما هو مقرر عند العروضيين من أن التذييل لا يكون في الكامل التام بل في مجزوئه، وقد نظم الشيخ محمد عبدالله ولد الصديق الشنقيطي رحمه الله تعالى، على طريقة أبي العتاهية في أبياته هذه التي ذَيَّل فيها الكامل التام، وعَرَضَ ذلك على طلابه فشارك كثير من طلابه وأدباء آخرون، قال الشيخ رحمه الله تعالى:

ظَعَنَ الأَحِبَّةُ عَنكَ فِي جُنْحِ الظَّلَامْ ... وَبِبَيْنِهِمْ نَعَبَ الغُدَافُ عَلَى الإِكَامْ
زَمُّوا جِمَالَهُمُ وَقَالَ عَرِيفُهُمْ ... أَزِفَ الرَّحِيلُ فَقَوِّضُوا تِلْكَ الخِيَامْ
وَتَيَمَّمُوا أَرْضًا بِهَا أَثَرُ الحَيَا ... وَمَرَابِعًا قَدْ جَادَهَا صَوبُ الغَمَامْ
وَبَقِيتَ فِي أَسَفٍ وَّشَوقٍ لَّاعِجٍ ... لَا تَسْتَطِيعُ بِهِ القُعُودَ وَلَا القِيَامْ
ولَرُبَّمَا سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِهِمْ ... فَبِقُرْبِهِمْ يُشْفَى السَّقِيمُ مِنَ السَّقَامْ
يَا لَيتَ نَأْيَهُمْ وَبُعْدَ مَزَارِهِمْ ... أَمْسَى وَأَصْبَحَ مِثْلَ أَحْلَامِ النِّيَامْ

ومن شعر أبي العتاهية قوله: [الوافر]

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ ... فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ
لِمَن نَّبْنِي وَنَحْنُ إِلَى تُرَابِ ... نَصِيرُ كَمَا خُلِقْنَا مِن تُرَابِ
أَلَا يَا مَوتُ لَمْ أَرَ مِنكَ بُدًّا ... أَبَيتَ فَمَا تَحِيفُ وَلَا تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبِي ... كَمَا هَجَمَ المَشِيبُ عَلَى شَبَابِي

إلى أن قال:

تَقَلَّدتُ العِظَامَ مِنَ الخَطَايَا ... كَأَنِّي قَدْ أَمِنتُ مِنَ العِقَابِ
سَأُسْأَلُ عَنْ أُمُورٍ كُنتُ فِيهَا ... فَمَا عُذْرِي هُنَاكَ وَمَا جَوَابِي
بِأَيَّةِ حُجَّةٍ تَحْتَجُّ نَفْسِي ... إِذَا دُعِيَتْ إِلَى طُولِ الحِسَابِ

هُـمَا أَمْـرَانِ يُوضِـحُ لِـي مَقَالِـي		هُنَالِـكَ حِيـنَ أَنظُـرُ فِـي كِتَابِـي
فَإِمَّـــا أَنْ أُخَلَّــدَ فِــي نَعِــيمٍ		وَّإِمَّـــا أَنْ أُخَلَّــدَ فِــي عَــذَابِ

ومن شعر أبي العتاهية قوله في المهدي: [المتقارب]

أَتَتْـــهُ الــــخِلَافَةُ مُنقَـــادَةً		إِلَيـــهِ تَجُـــرِّرُ أَذْيَالَـــهَا
فَلَـــمْ تَـــكُ تَصْـــلُحُ إِلَّا لَـــهُ		وَلَـــمْ يَـــكُ يَصْـــلُحُ إِلَّا لَـــهَا
وَلَـــو رَامَهَـــا أَحَـــدٌ غَيـــرُهُ		لَزُلْزِلَـــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَـــهَا

وكان بشار في القوم -وهو أعمى- فقال لجليسه: انظر ويحك! أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟ فما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غير أبي العتاهية.

- ومن أعلام هذا العصر: أبو تَمَّام، صاحب قصيدة فتح عَمُّورِيَّة التي يقول فيها: [البسيط]

السَّـيفُ أَصْـدَقُ أَنبَـاءً مِـنَ الكُتُـبِ		فِـي حَـدِّهِ الـحَدُّ بَيـنَ الـجِدِّ وَاللَّعِـبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي		مُتُونِـــهِنَّ جَـــلَاءُ الشَّـــكِّ وَالرِّيَـــبِ
وَالعِلْـمُ فِـي شُـهُبِ الأَرْمَـاحِ لَامِعَـةً		بَينَ الخَمِيسَينِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيـنَ الرِّوَايَـةُ بَـلْ أَيـنَ النُّجُـومُ وَمَـا		صَـاغُوهُ مِـن زُخْرُفٍ فِيهَـا وَمِـن كَـذِبِ
تَـــــخَرُّصًا وَّأَحَادِيثًـــــا مُلَفَّقَـــــةً		لَّيسَـــتْ بِنَبْـــعٍ إِذَا عُـــدَّتْ وَلَا غَـــرَبِ

إلى أن يقول:

لَوْ كَانَ بَينَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ		مَّوْصُـولَةٍ وَذِمَـامٍ غَيـرِ مُنْقَضِـبِ
فَبَيـنَ أَيَّامِـكَ اللَّائِـي نُصِـرْتَ بِـهَا		وَبَيـنَ أَيَّـامِ بَـدْرٍ أَقْـرَبُ النَّسَـبِ

وفيها يقول:

بَصُـرْتَ بِالرَّاحَـةِ الكُبْـرَى فَلَـمْ تَرَهَـا		تُنَـالُ إِلَّا عَلَـى جِسْـرٍ مِـنَ التَّعَـبِ

وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة وذكر بعض أبياتها عند الكلام عن تخليد الأدب المفاخر، وسبق أيضًا ذكر قوله:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ

في أن الأدب يُكسب سرعة البَدِيهة.

- ومن أعلام هذا العصر صالح بن عبدالقدوس، -والترتيب بين من يذكر من الشعراء ليس مقصودًا- ونسبت إليه أبيات فيها زندقة، فأُحضِر عند الخليفة هارون الرشيد وقيل: بل عند المهدي، فقال صالح: والله ما قلتها ولا تسفك دمي بشبهة، وأخذ يُرَقِّق قلبه حتى رَقَّ له، وأمر بتخليته ثم قال: أنشدني قصيدتك السينية، فأنشده قصيدته حتى بلغ: [السريع]

وَالشَّـــيْخُ لَا يَتْـــرُكُ أَخْلَاقَـــهُ   حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إِذَا ارْعَـوَى عَـادَ إِلَـى جَهْلِـهِ   كَذِي الضَّنَا عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

فقال الخليفة: نحن نتمثل وصيتك! فأمر به فقُتِل، وأشهر شعره الزينبيَّة وهي قصيدة حِكَمية، فيها مواعظ عظيمة، يقول فيها: [الكامل]

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَينَبُ   وَالـــدَّهْرُ فِيـــهِ تَغَيُّـــرٌ وَّتَقَلُّـــبُ
وَكَـــذَاكَ وَصْـــلُ الغَانِيَـــاتِ فَإِنَّـــهُ   آلٌ بِبَلْقَعَـــةٍ وَّبَـــرْقٌ خُلَّـــبُ
فَـدَعِ الصِّبَا فَلَقَـدْ عَـدَاكَ زَمَانُـهُ   وَازْهَـدْ فَعُمْـرُكَ مَرَّ مِنـهُ الأَطْيَـبُ
ذَهَـبَ الشَّـبَابُ فَمَـا لَـهُ مِـنْ عَـودَةٍ   وَّأَتَى المَشِيبُ فَأَينَ مِنهُ المَهْرَبُ
دَعْ عَنكَ مَا قَدْ كَانَ فِي زَمَنِ الصِّبَا   وَاذْكُـرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ
وَاذْكُــرْ مُنَاقَشَــةَ الــحِسَابِ فَإِنَّــهُ   لَا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيتَ وَيُكْتَبُ
لَـمْ يَنْسَـهُ الـمَلَكَانِ حِيـنَ نَسِيتَهُ   بَـلْ أَثْبَتَـاهُ وَأَنـتَ لَاهٍ تَلْعَـبُ
وَالـــرُّوحُ فِيـــكَ وَدِيعَـــةٌ أُودِعْتَهَـــا   سَتَـرُدُّهَا بِـالرَّغْمِ مِنـكَ وَتُسْـلَبُ
وَغُـرُورُ دُنْيَـاكَ الَّتِـي تَسْـعَى لَـهَا   دَارٌ حَقِيقَتُهَـــا مَتَـــاعٌ يَّـــذْهَبُ
وَاللَّيــلُ فَــاعْلَمْ وَالنَّهَــارُ كِلَاهُــمَا   أَنفَاسُـنَا فِيهَـا تُعَـدُّ وَتُـحْسَبُ
وَجَـــمِيعُ مَـــا حَصَّـــلْتَهُ وَجَـــمَعْتَهُ   حَقًّـا يَّقِينًـا بَعْـدَ مَوتِـكَ يَـذْهَبُ

يقول في آخرها:

فَلَقَـدْ نَصَـحْتُكَ إِن قَبِلْتَ نَصِيحَتِي   فَالنُّصْـحُ أَغْلَـى مَـا يُبَـاعُ وَيُوهَـبُ

- ومن أعلام هذا العصر، علي بن الجَهْم، شاعت عنه قصة وهي أنه كان بدويًا جافيًا قدم على المُتَوكِّل أول قدمة فأنشد قصيدة يمدحه فيها يقول: [الخفيف]

أَنتَ كَالكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلوُدْ دِ وَكَالتَّيسِ فِي قِرَاعِ الخُطُوبِ
أَنتَ كَالدَّلْوِ لَا عَدِمْتُكَ دَلْوًا مِّن كِبَارِ الدِّلَا كَثِيرَ الذَّنُوبِ

فعرف المتوكل حسن قصده وخشونة لفظه لملازمته البادية وعدم مخالطته، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، وفيها بستان يتخلله النسيم، والجسر قريب منه، وأمر له بجائزة سَنِية، فلطف طبعه وأنشد الأشعار الرقيقة ثم دخل على المتوكل بعد سنة فأنشده: [الطويل]

عُيُونُ المَهَا بَينَ الرُّصَافَةِ وَالجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

وهذه القصة مخايل الوضع عليها لائحة -وإن كانت قصيدة عيون المها له- فإن علي بن الجهم كان رجل حاضرة ولم يكن بدويًا، وكان قد مدح المعتصم والواثق قبل ذلك ثم مدح المتوكل لما بويع بالخلافة، ولم يذكر هذه القصة أحد ممن يُعتمَد قوله.

وقريب من هذا ما ذكره ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين من أن رجلًا أراد أن يمدح سيف الدولة وقد انصرف من غزو عدو له ظفر به فقال: [الطويل]

فَكَانُوا كَفَأْرٍ وَّسْوَسُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَّكُنتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

وقال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل: [الكامل]

قَالَتْ: حُبِسْتَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبْسِي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لَا يُغْمَدُ
أَوَمَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ كِبْرًا وَأَوْبَاشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
وَالبَدْرُ يُدْرِكُهُ السِّرَارُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ
وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَاظِرَيْكِ لَمَا أَضَاءَ الفَرْقَدُ
وَالزَّاعِبِيَّةُ لَا يُقِيمُ كُعُوبَهَا إِلَّا الثِّقَافُ وَجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثِرْهَا الأَزْنُدُ
وَالحَبْسُ مَا لَمْ تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعَاءَ نِعْمَ المَنْزِلُ المَتَوَرَّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيْمِ كَرَامَةً وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْمَدُ

لَــوْ لَمْ يَكُــنْ فِي الحَــبْسِ إِلَّا أَنَّــهُ لَا تَسْــتَذِلُّكَ بِالحِجَــابِ الأَعْبُــدُ
غِيَــرُ اللَّيَـــالِي بَادِئَـــاتٌ عُـــوَّدُ وَالمَـــالُ عَارِيَـــةٌ يُعَـــارُ وَيَنفَـــدُ
وَلِكُـــلِّ حِـــينٍ مُعْقِـــبٌ وَلَرُبَّمَـــا أَجْلَـى لَـكَ المَكْـرُوهُ عَمَّـا تَحْمَـدُ
لَا يُؤْيِسَـــنَّكَ مِـــنْ تَفَـــرُّجِ نَكْبَـةٍ خَطْـبٌ رَمَـاكَ بِـهِ الزَّمَـانُ الأَنْكَـدُ
كَـمْ مِـنْ عَلِيـلٍ قَـد تَخَطَّـاهُ الـرَّدَى فَنَجَـا وَمَـاتَ طَبِيبُـهُ وَالعُـوَّدُ
صَــبْرًا فَــإِنَّ اليَــوْمَ يَعْقُبُــهُ غَــدٌ وَيَــدُ الخِلَافَــةِ لَا تُطَاوِلُهَــا يَــدُ

ثم إنه بلغ المتوكلَ أن عليَّ بنَ الجهمِ هجاه، فنفاه إلى خراسان، وكتب إلى طاهر بن عبدالله بأن يُصلب إذا وردها يومًا إلى الليل، فقال وهو على خشبته وقد صُلِب مجرَّدًا: [الكامل]

لَمْ يَنْصِبُوا بِالشَّـاذِيَاخِ عَشِـيَّةَ الـ إِثْنَـيْنِ مَغْمُـورًا وَلَا مَجْهُـولا
نَصَـبُوا بِحَمْـدِ اللهِ مِـلْءَ عُيُـونِهِمْ حُسْـنًا ومِـلْءَ قُلُـوبِهِمْ تَبْجِـيلا
مَـا ضَـرَّهُ أَنْ بُـزَّ عَنْـهُ لِبَاسُـهُ فَالسَّـيْفُ أَهْـوَلُ مَـا يُـرَى مَسْـلُولا

وقد قال أبو عبدالله اليحصبي -كما في طبقات الشعراء لابن المعتز-: لما قال علي بن الجهم وهو محبوس كلمته التي يخاطب فيها المتوكل:

قَالَـتْ حُبِسْـتَ فَقُلْـتُ لَـيْسَ بِضَـائِرِي حَبْسِـي وَأَيُّ مُهَنَّـدٍ لَا يُغْمَـدُ

ثم قال حين صلب:

مَـا ضَـرَّهُ أَنْ بُـزَّ عَنْـهُ لِبَاسُـهُ فَالسَّـيْفُ أَهْـوَلُ مَـا يُـرَى مَسْـلُولا

حكموا له بأنه أشعر الناس، فأذعنَتْ له الشعراء وهابته الأمراء.

وذلك لأنه استعمل السيف مغمدًا ومسلولًا في الثناء على نفسه فأحسن.

- ومن أعلام هذا العصر: البُحْتُري، من جميل شعره قوله في المتوكل: [الكامل]

وَلَـوَ انَّ مُشْـتَاقًا تَكَلَّـفَ فَـوْقَ مَـا فِـي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيكَ المِنبَـرُ

يصف دخوله يوم العيد للمصلى، وهي قصيدة أحسن فيها كل الإحسان كما ذكر ابن خلِّكان في وَفَيَات الأعيان، وأولها قوله:

أُخْفِـي هَـوًى لَـكَ فِي الضُّـلُوعِ وَأُظْهِـرُ وَأُلَامُ مِـنْ كَمَـدٍ عَلَيْـكَ وَأُعْـذَرُ

والأبيات التي يرتبط بها البيت المقدم ذكره هي:

بِـالبِرِّ صُـمْتَ وَأَنْـتَ أَفْضَـلُ صَـائِمٍ وَبِسُـــنَّةِ اللهِ الرَّضِـــيَّةِ تُفْطِـــرُ
فَــانْعَمْ بِيَــوْمِ الفِطْــرِ عَيْنًــا إِنَّــهُ يَـوْمٌ أَغَـرُّ مِـنَ الزَّمَـانِ مُشَـهَّرُ
أَظْهَـرْتَ عِـزَّ المُـلْكِ فِيـهِ بِجَحْفَـلٍ لَجِـبٍ يُحَـاطُ الـدِّينُ فِيـهِ وَيُنْصَـرُ
خِلْنَـا الجِبَـالَ تَسِـيرُ فِيـهِ وَقَـدْ غَـدَتْ عَـدَدًا يَسِـيرُ بِـهِ العَدِيـدُ الأَكْثَـرُ
فَالخَيْــلُ تَصْــهَلُ وَالفَــوَارِسُ تَــدَّعِي وَالبِـيضُ تَلْمَـعُ وَالأَسِـنَّةُ تَزْهَـرُ
وَالأَرْضُ خَاشِــعَةٌ تَمِيــدُ بِثِقْلِهَــا وَالجَــوُّ مُعْتَكِـرُ الجَوَانِـبِ أَغْبَـرُ
وَالشَّـمْسُ طَالِعَـةٌ تَوَقَّـدُ فِي الضُّـحَى طَـوْرًا وَيُطْفِيهَـا العَجَـاجُ الأَكْـدَرُ
حَـتَّى طَلَعْـتَ بِضَـوْءِ وَجْهِـكَ فَـانْجَلَى ذَاكَ الـدُّجَى وَانْجَـابَ ذَاكَ العِثْيَـرُ
فَــافْتَنَّ فِيــكَ النَّــاظِرُونَ فَإِصْــبَعٌ يُـومَى إِلَيْـكَ بِهَـا وَعَـيْنٌ تَنْظُـرُ
يَجِــدُونَ رُؤْيَتَــكَ الَّــتِي فَــازُوا بِهَــا مِــنْ أَنْعُــمِ اللهِ الَّــتِي لَا تُكْفَــرُ
ذَكَــرُوا بِطَلْعَتِــكَ النَّـبِيَّ فَهَلَّلُــوا لَمَّـا طَلَعْـتَ مِـنَ الصُّفُوفِ وَكَبَّـرُوا
حَــتَّى انْتَهَيْــتَ إِلَى المصَــلَّى لَابِسًــا نُـورَ الهُـدَى يَبْـدُو عَلَيْـكَ وَيَظْهَـرُ
وَمَشَــيْتَ مِشْــيَةَ خَاشِــعٍ مُتَواضِــعٍ للهِ لَا يُزْهَـــــى وَلَا يَتَكَبَّــــــرُ
وَلَــوَ انَّ مُشْــتَاقًا تَكَلَّــفَ فَــوْقَ مَــا فِـي وُسْعِهِ لَسَـعَى إِلَيـكَ المِنبَـرُ
أُيِّـدتَّ مِـنْ فَصْـلِ الخِطَـابِ بِحِكْمَـةٍ تُنْـبِي عَـنِ الحَـقِّ المبِـينِ وَتُخْـبِرُ
وَوَقَفْــتَ فِي بُــرْدِ النَّــبِيِّ مُــذَكِّرًا بِـــاللهِ تُنْـــذِرُ تَـــارَةً وَتُبَشِّـــرُ

قال ابن خَلِّكان بعد أورد هذه الأبيات في وَفَيات الأعيان: وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة، والسهل الممتنع، فلله درُّه! ما أسلس قيادَه وأعذب ألفاظَه، وأحسن سبكَه وألطف مقاصدَه، وليس فيه من الحشو شيء، بل جميعه نُخَب.

وقد قال بعضهم: رأيت البلاذري المؤرخ وحاله متماسكة فسألته، فقال: كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء، فقال: لستُ أقبل إلا ممن قال مثل قول البحتري في المتوكل:

وَلَـوَ انَّ مُشْـتَاقًا تَكَلَّـفَ فَـوْقَ مَـا   فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيكَ المِنبَرُ

قال: فرجعت إلى داري فأتيته وقلت: قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري. فقال: هاته. فأنشدته: [الطويل]

وَلَـوْ أنَّ بُـرْدَ الـمُصْطَفَى إِذْ لَبِسْـتَهُ   يَظُنُّ لَظَنَّ البُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهْ

وَقَـالَ وَقَـدْ أُعْطِيتَـهُ وَلَبِسْـتَهُ   نَعَـمْ هَـذِهِ أَعْطَافُـهُ وَمَنَاكِبُـهْ

فقال المستعين: ارجع إلى منزلك وافعل ما آمرك به، فرجع فبعث إليه سبعة آلاف دينار، وقال: ادخر هذه للحوادث من بعدي، ولك عليَّ الجراية والكفاية ما دمتُ حيًّا.

وقريب من هذا قول الفرزدق في زين العابدين: [البسيط]

يَكَـادُ يُـمْسِكُهُ عِرْفَـانَ رَاحَتِـهِ   رُكْنُ الحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وقول المتنبي: [الكامل]

لَـوْ تَعْقِـلُ الشَّـجَرُ الَّتِـي قَابَلْتَهَـا   مَـدَّتْ مُـحَيِّيَةً إِلَيـكَ الأَغْصُـنَا

وقول بعضهم وكان والده قد صوّر القمرَ فقال لوالده: [الكامل]

لَـوْ يَعْقِـلُ القَمَـرُ الَّـذِي صَـوَّرْتَهُ   مَا حُزْتَهُ مِنْ حُلْوِ وَصْفٍ رَيِّقِ

حَيَّـا وَمَـدَّ الكَـفَّ مِنـهُ مُصَـوِّرًا   لِبَـدِيعِ مَنظَـرِكَ البَهِـيِّ الشَّـيِّقِ

هذا آخره والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

٤/ العصر العباسي

* المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، عنايته بمطالع قصائده، خبره مع ابن خالويه في مجلس سيف الدولة، خبره مع كافور.

– ذكر جملة ممن قتله شعره: المتنبي وخبره مع فاتك الأسدي، طَرَفة بن العبد وخبره مع عمرو بن هند، أعشى هَمْدان وقول الحجاج له: والله لا تُبَخْبِخُ بعدها أبدا.

* أجمع الحذاق على أن للمتنبي نوادرَ لم تأت في شعر غيره، بيتان للمتنبي ربما قالهما شيخ الإسلام ابن تيمية في سجوده.

*أبو العلاء المعري،عقيدته،تعصبه للمتنبي، خبره مع المرتضى وقد جمعهما مجلس تنقص المرتضى فيه المتنبي، ما روي من اعتراضه على الشرع وردّ القاضي عبدالوهاب عليه.

*الشعراء وسجع الحمام.

*الطغرائي ولامية العجم.

٥/ عصر الدول المتتابعة

*صفي الدين الحِلِّي، من مُلَحه قوله:

إِنَّـمَا الـحَيزَبُونُ وَالـدَّرْدَبِيسُ   وَالطَّخَـا وَالنُّقَـاخُ وَالعَلْطَبِيسُ
لُغَـةٌ تَنفِـرُ الـمَسَامِعُ مِنهَـا   حِينَ تُرْوَى وَتَشْمَئِزُّ النُّفُوسُ

*صلاح الدين الصفدي ولاميته في الحكمة التي سلك فيها مسلك الطغرائي في لامية العجم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فمن أعلام العصر العباسي: أبو الطيب المتنبي، أحمد بن الحسين الكِندي، الذي ملأ الدنيا وشَغل الناس، يقول ابن كثير في البداية والنهاية: هو في الشعراء المُحْدَثين كامرئ القيس في الشعراء المُتقدِّمين.

وكان يعتني بمطالع قصائده، من ذلك قوله: [البسيط]

لَا خَيلَ عِندَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ   فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِن لَّمْ تُسْعِدِ الحَالُ

يقول: فليُسعده نُطقي بالمدح والثناء عليه إن لم تُعِنِّي الحال على مُجازاته بالمال.

وقوله: [الكامل]

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا   وَبُكَاكَ إِن لَّمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

وقوله: [الطويل]

عَزِيزٌ أَسًى مَن دَاؤُهُ الحَدَقُ النُّجْلُ   عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ المُحِبُّونَ مِن قَبْلُ
فَمَن شَاءَ فَلْيَنظُرْ إِلَيَّ فَمَنظَرِي   نَذِيرٌ إِلَى مَن ظَنَّ أَنَّ الهَوَى سَهْلُ

وقوله: [الكامل]

الحُبُّ مَا مَنَعَ الكَلَامَ الأَلْسُنَا   وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَّا أَعْلَنَا

وقوله: [الطويل]

فِرَاقٌ وَّمَن فَارَقْتُ غَيرُ مُذَمَّمِ   وَأَمٌّ وَّمَن يَّمَّمْتُ خَيرُ مُيَمَّمِ

يعني بالشطر الأول سيف الدولة، وبالآخِر كافورًا.

وَمَا مَنزِلُ اللَّذَاتِ عِندِي بِمَنزِلٍ   إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِندَهُ وَأُكَرَّمِ

وقوله: [الطويل]

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوقَ وَالشَّوقُ أَغْلَبُ   وَأَعْجَبُ مِن ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلُ أَعْجَبُ

وقوله: [الطويل]

لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِّـن دَهْـرِهِ مَـا تَعَـوَّدَا وَعَادَةُ سَيفِ الدَّولَةِ الطَّعْنُ فِي العِدَى

ذكروا أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قصيدته هذه، أنشده إياها وهو قاعد على عادته في إنشاد الشعر، فقال بعض الحاضرين –يريد أن يكيد أبا الطيب–: لو أنشدها قائمًا لأَسْمَع؛ فإن أكثر الناس لا يسمعون.

فقال أبو الطيب: أما سمعتم قولي في أولها: لِكُلِّ امْرِئٍ مِّن دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا.

وهذا مِن مُستَحسَن الأجوبة.

ومن مطالع قصائده: [مشطور الرجز]

وَمَنــزِلٍ لَّيــسَ لَــنَا بِمَنــزِلِ
وَلَا لِغَيــرِ الغَادِيَــاتِ الــهُطَّلِ

ولقصيدته هذه قصة وهي أن المتنبي دخل يومًا على أبي علي الأُورَاجِي، فقال له أبو علي: وَدِدنا يا أبا الطيب لو كنت معنا، فقد ركبنا ومعنا كلب فصدنا به ظبيًا، فقال المتنبي: أنا قليل الرغبة في مثل هذا. فقال أبو علي: إنما اشتهيتُ أن تراه فتستحسنه فتقول فيه شيئًا من الشعر، فقال المتنبي: أنا أفعل أفَتُحِبُّ أن يكون الآن؟ قال أبو علي: أيكون مثل هذا؟ قال: نعم، وقد حَكَّمتُك في الوزن والقافية. قال أبو علي: لا بل الأمر فيهما إليك، فأخذ أبو الطيب درجًا وأخذ أبو علي درجًا يكتب فيه كتابًا فقطع عليه أبو الطيب الكتاب وأنشده قصيدته هذه:

وَمَنــزِلٍ لَّيــسَ لَــنَا بِمَنــزِلِ
وَلَا لِغَيــرِ الغَادِيَــاتِ الــهُطَّلِ

وفيها يقول يصف الكلب الذي صادوا به:

فِــي هَبْــوَةٍ كِلَاهُــمَا لَــمْ يَــذْهَلِ
لَا يَأْتَلِــي فِــي تَــرْكِ أَلَّا يَأْتَــلِي
مُقْتَحِـمًا عَلَـى المَكَـانِ الأَهْـوَلِ
يَخَالُ طُولَ البَحْرِ عَرْضَ الجَدْوَلِ

يعني: لا يقصر في ترك التقصير ولا الثانية زائدة، وإذا وصل إلى شاطئ البحر فهو مستعد أن يقفز إلى الناحية الأخرى؛ يخاله عرض الجدول.

ومن مطالع قصائده: [الطويل]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَينِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَينِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

وفيها يقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوتِ شَكٌّ لِّوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَّثَغْرُكَ بَاسِمُ

وحصلت له قصة مع ابن خالَوَيه النحوي في مجلس سيف الدولة، وهي أنه جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي والمتنبي ساكت، فقال له سيف الدولة: ألا تتكلم. فتكلم المتنبي بما قوّى حجة أبي الطيب وضعف قول ابن خالويه، فغضب ابن خالويه وشج المتنبي في وجهه، فنظر المتنبي إلى سيف الدولة ينتظر منه أن ينتصر له وهو في مجلسه، فلما لم ير من سيف الدولة انتصارًا له خرج مُغضبًا، وعلم أن الوشاية قد بلغت مبلغها وكان هذا أحد أسباب فراقه سيف الدولة وأنشد قبل فراقه قصيدته العجيبة التي ألّفت أشتات المشاعر فيها المشاعر المتضاربة الغضب والرضا والحب والبغض والرغبة في الإقامة والعزم على الرحيل وهي من مختار شعر المتنبي يقول فيها: [البسيط]

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّن قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسْمِي وَحَالِي عِندَهُ سَقَمُ
مَالِي أُكَتِّمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدَّعِي حُبَّ سَيفِ الدَّوْلَةِ الأُمَمُ
إِن كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِّغُرَّتِهِ فَلَيتَ أَنَّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ
قَد زُرْتُهُ وَسُيُوفُ الهِندِ مُغْمَدَةٌ وَّقَد نَظَرْتُ إِلَيهِ وَالسُّيُوفُ دَمُ
فَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمُ وَكَانَ أَحْسَنَ مَا فِي الأَحْسَنِ الشِّيَمُ

وفيها يقول:

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الخِصَامُ وَأَنتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ

أُعِيــذُهَا نَظَــرَاتٍ مِّنــكَ صَــادِقَةً   أَن تَحسِبَ الشَّحْمَ فِيمَن شَحْمُهُ وَرَمُ

وَمَــا انتِفَــاعُ أَخِــي الــدُّنيَا بِنَــاظِرِهِ   إِذَا اسْــتَوَتْ عِنــدَهُ الأَنــوَارُ وَالظُّلَــمُ

أَنَــا الَّــذِي نَظَــرَ الأَعْمَــى إِلَــى أَدَبِــي   وَأَسْــمَعَتْ كَلِمَاتِــي مَــن بِــهِ صَــمَمُ

أَنَــامُ مِــلْءَ جُفُونِــي عَــن شَــوَارِدِهَا   وَيَسْــهَرُ الــخَلْقُ جَرَّاهَــا وَيَــخْتَصِمُ

وفيها يقول:

إِذَا رَأَيــتَ نُيُــوبَ اللَّيــثِ بَــارِزَةً   فَــلَا تَظُــنَّنَّ أَنَّ اللَّيــثَ يَبْتَسِــمُ

وفيها يقول:

الــخَيلُ وَاللَّيــلُ وَالبَيْــدَاءُ تَعْرِفُنِــي   وَالـحَرْبُ وَالضَّرْبُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ

صَحِبْتُ فِي الفَلَواتِ الوَحْشَ مُنفَرِدًا   حَتَّــى تَعَجَّــبَ مِنِّــي القُــورُ وَالأَكَــمُ

يَــا مَــن يَّعِــزُّ عَلَينَــا أَن نُّفَــارِقَهُمْ   وِجْــدَانُنَا كُــلَّ شَــيْءٍ بَعْــدَكُمْ عَــدَمُ

مَــا كَــانَ أَخْلَقَنَــا مِــنكُمْ بِتَكْرِمَــةٍ   لَــوْ أَنَّ أَمْــرَكُمُ مِــنْ أَمْرِنَــا أَمَــمُ

إِن كَــانَ سَــرَّكُم مَّــا قَــالَ حَاسِــدُنَا   فَمَــا لِــجُرْحٍ إِذَا أَرْضَــاكُمُ أَلَــمُ

وفيها يقول:

لَئِن تَرَكْنَا ضُمَيرًا عَن مَّيَامِنِنَا   لَيَحْـدُثَنَّ لِمَـن وَّدَّعْـتُهُمْ نَـدَمُ

وهذا الذي حصل، ندم سيف الدولة بعد ذلك، وكتب إلى المتنبي يطلب منه أن يرجع لكنه لم يرجع، يقول فيها:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَن قَومٍ وَقَدْ قَدَرُوا   أَلَّا تُفَــارِقَهُمْ فَــالرَّاحِلُونَ هُــمُ

وفيها يقول:

بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ   تَجُوزُ عِندَكَ لَا عُرْبٌ وَّلَا عَجَمُ

هَــذَا عِتَابُــكَ إِلَّا أَنَّــهُ مِقَــةٌ   قَـد ضُـمِّنَ الـدُّرَّ إِلَّا أَنَّـهُ كَلِـمُ

وخرج المتنبي بعد ذلك وسار إلى مصر، فامتدح كافُورًا الإِخْشِيدِي بأشعار كثيرة، منها قوله:

[الطويل]

وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَهُ   وَإِن لَّمْ أَشَأْ تُمْلَى عَلَيَّ وَأَكْتُبُ

وقوله: [الطويل]

فَجَاءَتْ بِنَا إِنسَانَ عَينِ زَمَانِهِ   وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

ثم إنه هجا كافورًا، لأنَّ كافورًا كان قد وعده بولاية بعض أعماله، فلما رأى تعاليَ المتنبي في شعره وسموَّه بنفسه خافه، ولما عوتب فيه، قال كافور: يا قوم، من ادّعى النبوة بعد محمد –صلى الله عليه وسلم–، أما يدّعي المملكة مع كافور! فحسبكم.

وقد اشتُهر أن المتنبي كان قد ادعى النبوة، كما ذكر ذلك كثير ممن ترجم له كابن خَلِّكان في وَفَيات الأعيان وابن كثير في البداية والنهاية، ثم قاد ثورة تبعه فيها كثير من الجهلة ثم سجن وما أطلق حتى رجع عما قال، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: وقد اشتهر بلفظة تدل على كذبه فيما كان ادعاه من الإفك والبُهْتان، وهي لفظة (المتنبي) الدالة على كذبه ولله الحمد والمنة.

وأنكر جماعة أن يكون المتنبي ادعى النبوة؛ قالوا: إنما لُقِّب بالمتنبي لأبيات قالها توحي بتعاليه وتعاظمه كقوله: [الخفيف]

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَّخْلَةَ إِلَّا   كَمُقَامِ الـمَسِيحِ بَينَ اليَهُودِ

وقوله:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ   ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَـمُودِ

وكان آخر أمره أن عرض له فَاتِكُ الأَسَدي، فأراد المتنبي أن يفرّ، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الـخَيلُ وَاللَّيلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي   وَالـطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ

فكَرَّ راجعًا فَقُتل، وكان سبب ذلك هذا البيت الذي ذكَّره به غلامه وقيل: ابنه.

وكان المتنبي قد هجا رجلًا يقال له ضَبَّة، فقال:

ما أنصفَ القومُ ضَبَّة

في أبيات أقذع فيها القول يقول ابن العديم: ما للمتنبي شعر أسخف من هذا الشعر ولا

أوهى كلامًا! فقتله فاتك الأسدي خال ضبة، ثأرًا لابن أخته.

فالمتنبي ممن قتله شعره، وسبق معنا في المجلس السابق أن صالح بن عبدالقدوس أيضًا ممن قتله شعره، قُتل في الزندقة في أبيات ظهرت فيها زندقته ذكرها ابن المعتز في طبقات الشعراء.

- ومن أولئك الذين قتلهم شعرهم: طَرَفَة بن العبد، الشاعر الجاهلي.

وقد سئل لبيد بن ربيعة العامري -رضي الله عنه-: مَن أشعرُ الناس؟ فقال: الملك الضِّلِّيل -يعني امرأ القيس- قيل: ثم من؟ قال: الشاب القتيل -يعني طرفة-، قيل: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل -يعني نفسه-.

كان من خبر طرفة أنه هجا عمرو بن هند، وعمرو بن هند هو الملك! وابن الوردي يقول: [الرمل]

لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

وكان طرفة شابًّا طائشًا، قُتل وهو ابن ست وعشرين سنة قال: [الوافر]

فَلَيتَ لَنَا مَكَانَ المَلْكِ عَمْرٍو ... رَغُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ

يقول: يتمنى لو كان لهم مكان هذا الملك نعجة مرضع تصيح بجوار قبتهم وتُدِرُّ عليهم اللبن!

قال:

مِنَ الزَّمِرَاتِ أَسْبَلَ قَادِمَاهَا ... وَضَرَّتُهَا مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ

يُشَارِكُنَا لَنَا رَخِلَانِ فِيهَا ... وَتَعْلُوهَا الكِبَاشُ فَمَا تَنُورُ

لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بنَ هِندٍ ... لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نُوكٌ كَثِيرُ

قابوس: أخو الملكِ عمرو بن هند، وكان يرشحه للملك بعده، والنّوك بضم الكاف وتفتح: الحُمق.

فبلغت الأبيات عمرو بن هند فدعاه، ودعا خاله المُتَلَمِّس، لأنه خاف إن مكر بطرفة وحده أن يهجوه المتلمس، فدعاهما معًا، وأظهر لهما أنه يريد إكرامهما، وأعطاهما شيئًا من

الهدايا والجوائز، وكتب لكلٍّ واحد منهما كتابًا إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما إذا وصلا إليه، وأوهمهما أنه كتب لهما بصلة، فلما وصلا إلى الحيرة قال المتلمس لطرفة: كِلانا قد هجا الملك، ولو أراد أن يعطينا لأعطانا ولم يكتب لنا، فهَلُمَّ ندفع كتبنا إلى من يقرأها، فإن كان فيها خير مضينا له، وإن كان فيها شر اتقيناه، فقال طرفة بن العبد: ما كنت لأفتح كتاب الملك، فقال المتلمس: والله لأفتحن كتابي ولأعلمن ما فيه ولا أكون كمن يحمل حتفه بيده، فنظر المتلمس فإذا غلام قد خرج من الحيرة، فقال له: أتقرأ يا غلام قال: نعم، فقال: هلمّ فاقرأ هذا الكتاب، فإذا فيه: أما بعد فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا، وقيل: إن الغلام لما نظر في الكتاب قال: ثكلت المتلمسَ أمُّه، فاكتفى المتلمس منه بذلك، وقال لطرفة: تَعَلَّمْ والله أن الذي في كتابك لَمِثلُ الذي في كتابي، فقال: إن كان اجترأ عليك فلم يكن ليجترئ علي، ويوغر صدور قومي بقتلي. فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة، وأخذ نحو الشام.

قال في الشمقمقية:

وَافْعَلْ بِـمَن تَرْتَـابَ مِنـهُ مِثْـلَ فِعْـ ... لِ الـمُتَلَمِّسِ اللَّبِيـبِ الـحَذِقِ
أَلْقَـى الصَّـحِيفَةَ بِنَهْـرِ حِيـرَةٍ ... وَّقَالَ يَا ابنَ هِندٍ ارْعُدْ وَابْـرُقِ

وأخذ طرفة نحو البحرين وقُتِل.

وفي سنن أبي داوود، أن عُيَينةَ بنَ حِصْن الفَزَاري والأَقْرَعَ بنَ حابس التميمي –رضي الله عنهما– قدما على النبي –صلى الله عليه وسلم– فسألاه، فأمر لهما بما سألاه، وأمر معاوية فكتب لهما بذلك، فأما الأقرع فأخذ كتابه فلَفَّه في عمامته وانطلق، وأما عيينة فأخذ كتابه وأتى النبي –صلى الله عليه وسلم– مكانَه، وقال: يا محمد، أَتَراني حاملًا إلى قوم كتابًا لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس! فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «مَن سأل وعنده ما يُغْنيه فإنما يستكثر من النار» قالوا: يا رسول الله، وما يُغْنيه؟ قال: «قدر ما يُغَدِّيه ويُعشِّيه» صححه الشيخ الألباني.

وممن قتله شعره أيضا: أعشى هَمْدان، والأعشى لقب له وفي قبائل العرب ما يزيد على ثلاثين شاعرًا يعرفون بهذا اللقب ينسبون إلى قبائلهم، فيقال: أعشى همدان، أعشى باهلة، أعشى شيبان، تمييزًا لهم عن الأعشى الكبير، ميمونِ بن قيس صاحب المعلقة (وَدِّعْ هُرَيرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ).

كان أعشى همْدان قد قصر شعره على نصر ثورة ابن الأشعث، يمدح ابن الأشعث ويهجو الحجاج، فلما هزم ابن الأشعث أُتِيَ بأعشى همدان ووُقِف بين يدي الحجاج، فقال له الحجاج: ويحك! أولست القائل: [الكامل]

وَإِذَا سَأَلْتَ الـمَجْدُ أَينَ مَـحَلُّهُ   فَالـمَجْدُ بَينَ مُحَمَّدٍ وَّسَعِيدِ

بَيـنَ الأَشَـجِّ وَبَيـنَ قَـيْسٍ بَـاذِخٌ   بَـخْ بَـخْ لِوَالِـدِهِ وَلِلْمَولُـودِ

والله لا تُبَخْبِخُ بعدها أبدًا! وَقَتَلَه.

نرجع إلى المتنبي!

قد أجمع الحُذَّاق على أن للمتنبي نَوادرَ لم تَأتِ في شعر غيره، من ذلك قوله: [البسيط]

لَوْلَا الـمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّـهُـمُ   الـجُودُ يُفْقِـرُ وَالإِقْـدَامُ قَتَّـالُ

وكثير من الأبيات التي تدور على ألسنة الناس هي من شعر المتنبي.

منها قوله: [البسيط]

مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّـى المَـرْءُ يُدْرِكُـهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

وقوله: [الطويل]

تُرِيـدِينَ لُقْيَـانَ الـمَعَالِـي رَخِيصَـةً   وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

وقوله: [الخفيف]

مَـن يَهُـنْ يَسْـهُلِ الـهَوانُ عَلَيـهِ   مَـا لِـجُرْحٍ بِـمَيِّتٍ إِيْـلَامُ

وقوله: [الطويل]

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَّخَيرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وقوله: [الكامل]

لَا تَعْـذُلِ الـمُشْتَاقَ فِـي أَشْـوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

وقوله: [الوافر]

فَـإِن تَفُـقِ الأَنَـامُ وَأَنْـتَ مِـنهُمْ فَـإِنَّ الـمِسْكَ بَعْـضُ دَمِ الغَـزَالِ

وقوله: [البسيط]

كَـأَنَّ كُـلَّ سُـؤَالٍ فِـي مَسَـامِعِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

وقوله: [الطويل]

فَتًـى كَالسَّـحَابِ الـجُونِ يُـخْشَى وَيُرْتَـجَى يُرَجَّى الـحَيَا مِنهُ وَتُـخْشَى الصَّوَاعِقُ

يقول في ممدوحه: إنه مرجو مهيب يرجى نفعه ويهاب ضره كالسحاب الجُون -بضم الجيم- جمع جَون -بفتحها- وهو الأسود، يرجى مطرها وتخشى صواعقها.

وقد قال السَّقَّاف في العُود الهِندي: هذا البيت من مواطن السجود في الشعر!

وقوله: [الطويل]

وَمَا الـحُسْنُ فِي وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا لَّهُ إِذَا لَـمْ يَكُـن فِي فِعْلِهِ وَالـخَلَائِقِ

وقوله: [البسيط]

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ البَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَن زُحَلِ
وَقَد وَجدتَّ مَجَالَ القَولِ ذَا سَعَةٍ فَـإِن وَّجَـدتَّ لِسَـانًا قَـائِلًا فَقُـلِ
لَعَـلَّ عَتْبَـكَ مَـحْمُودٌ عَوَاقِبُـهُ وَرُبَّـمَا صَـحَّتِ الأَجْسَـامُ بِالعِلَـلِ

وقوله: [الخفيف]

وَمُرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَن نَّتَعَـادَى فِيـهِ وَأَن نَّتَفَانَـى
غَيرَ أَنَّ الفَتَى يُلَاقِي الـمَنَايَا كَالِـحَاتٍ وَّلَا يُلَاقِـي الـهَوَانَا

وَإِذَا لَـمْ يَكُن مِّنَ الـمَوتِ بُدٌّ فَمِـنَ العَـارِ أَن تَـمُوتَ جَبَانَـا

وقوله: [الوافر]

وَلَـمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيئًا كَـنَقْصِ القَـادِرِينَ عَلَـى التَّمَـامِ

وقد ذكر الأستاذ عبدالوهاب عزام –وقد اعتنى بديوان المتنبي تصحيحًا وتعليقًا– في كتابه الشوارد أنه صلى مع صاحب له مرة فاقتصر صاحبه على الفرض ولم يصل السنّة فأنشده بيت المتنبي هذا قال: فكان يقول لي من بعد: كلما هممت بترك السنّة تذكرت بيت صاحبك فصلّيتها.

وقبله قوله:

عَجِبْـتُ لِمَـن لَّـهُ قَـدٌّ وَّحَـدٌّ وَّيَنْبُـو نَبْـوَةَ القَضِـمِ الكَهَـامِ
وَمَن يَّجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى المَعَالِي فَـلَا يَـذَرُ الـمَطِيَّ بِـلَا سَـنَامِ
وَلَـمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيئًا كَـنَقْصِ القَـادِرِينَ عَلَـى التَّمَـامِ

وقوله: [الطويل]

وَأَسْـرَعُ مَفْعُـولٍ فَعَلْـتَ تَغَيُّـرًا تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

وقوله: [البسيط]

وَلَـمْ تَـزَلْ قِلَّـةُ الإِنصَـافِ قَاطِعَـةً بَينَ الرِّجَالِ وَإِن كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

وقوله: [الكامل]

وَإِذَا أَتَتْـكَ مَذَمَّتِـي مِـن نَّـاقِصٍ فَهِـيَ الشَّـهَادَةُ لِـي بِأَنِّـيَ كَامِـلُ

وقوله: [الوافر]

إِذَا غَـامَرْتَ فِـي شَـرَفٍ مَّـرُومِ فَـلَا تَقْنَـعْ بِـمَا دُونَ النُّجُـومِ
فَطَعْـمُ الـمَوتِ فِـي أَمْـرٍ حَقِيـرٍ كَطَعْـمِ الـمَوتِ فِـي أَمْـرٍ عَظِـيمِ
وَكَـمْ مِّـن عَائِـبٍ قَـوْلًا صَـحِيحًا وَآفَتُـهُ مِـنَ الفَهْـمِ السَّـقِيمِ

وقوله: [الوافر]

يُـدَفِّنُ بَعْضُـنَا بَعْضًـا وَّتَـمْشِي أَوَاخِرُنَـا عَلَـى هَـامِ الأَوَالِـي
وَكَـمْ عَيـنٍ مُقَبَّلَـةِ النَّـوَاحِي كَحِيـلٌ بِالـجَنَادِلِ وَالرِّمَـالِ
وَمُغْضٍ كَانَ لَا يُغْضِي لِخَطْبٍ وَّبَـالٍ كَـانَ يُفْكِـرُ فِـي الـهُزَالِ

وقوله: [الخفيف]

وَإِذَا مَـا خَـلَا الجَبَـانُ بِـأَرْضٍ طَلَـبَ الطَّعْـنَ وَحْـدَهُ وَالنِّـزَالَا

وقوله: [الطويل]

إِذَا أَنـتَ أَكْرَمْـتَ الكَرِيـمَ مَلَكْتَـهُ وَإِن أَنـتَ أَكْرَمْـتَ اللَّئِـيمَ تَمَـرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدَا فِي مَوْضِعِ السَّيفِ بِالعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَا

وقوله: [الرجز]

إِن تَـدْعُ يَـا سَـيفُ لِتَسْـتَعِينَهُ
يُجِـبْكَ قَبْـلَ أَن تُـتِمَّ سِيـنَهُ

وقوله: [البسيط]

يَـا مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ فِيمَـا أُؤَمِّلُـهُ وَمَـنْ أَعُـوذُ بِـهِ فِيمَـا أُحَـاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنتَ جَابِرُهُ

ذكر هذين البيتين ابن كثير في البداية والنهاية فيما يستجاد من شعره، ثم قال: وقد بلغني عن شيخنا العلامة أبي العباس أحمد ابن تيمية -رحمه الله تعالى- أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله -عز وجل-.

وذكر ابن كثير أيضًا أن ابن القيم أخبره أن شيخ الإسلام ابن تيمية ربما دعا بهذين البيتين في سجوده.

- ومن أعلام هذا العصر: أبو العلاء المعري، ذكر الذهبي في السِّيَر كثيرًا مِمَّا يدل على صحة ما كان يُرمى به من الإلحاد، وذكر أيضًا أنه قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث على

ثقات، ثم قال: ويظهر لي من حال هذا المخذول أنه متحير، لم يجزم بنِحْلَة، اللهم فاحفظ علينا إيماننا.

وقد قال القحطاني في نونيته: [الكامل]

تَعِسَ العَمِيُّ أَبُو العَلَاءِ فَإِنَّهُ ... قَدْ كَانَ مَجْمُوعًا لَّهُ العَمَيَانِ
وَلَقَدْ نَظَمْتُ قَصِيدَتَينِ بِهَجْوِهِ ... أَبْيَاتُ كُلِّ قَصِيدَةٍ مِّئَتَانِ

قال أبو العلاء المعري: [البسيط]

يَدٌ بِخَمْسِ مِئٍ مِنْ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَّا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ... وَأَن نَّعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه القاضي عبدالوهاب بن نصر البغدادي المالكي كما في تفسير ابن كثير بقوله: لما كانت أمينة كانت ثمينة فلما خانت هانت.

وأجابه القاضي عبدالوهاب أيضًا شعرًا كما في الذخيرة للقرافي وفتح الباري لابن حجر فقال: [البسيط]

صِيَانَةُ العُضْوِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ... خِيَانَةُ المَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ البَارِي

من أجمل شعر أبي العلاء ما قاله في رثاء فقيه حَنفيٍّ –وهو أشهر شعره– قال:[الخفيف]

غَيرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي ... نَوْحُ بَاكٍ وَّلَا تَرَنُّمُ شَادِي
وَشَبِيهٌ صَوتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيـ ... ـسَ بِصَوتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أَمْ غَنْـ ... ـنَتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَّادِ
صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرَّحْـ ... ـبَ فَأَينَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفِّفِ الوَطْأَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ ... أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِن قَدُمَ العَهْـ ... ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ
سِرْ إِنِ اسْطَعْتَ فِي الهَوَاءِ رُوَيدًا ... لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَد صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ... ضَاحِكٍ مِن تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ

وَدَفِيـــنٍ عَلَـــى بَقَايَـــا دَفِيـــنٍ   فِـي طَوِيـلِ الأَزْمَـانِ وَالآبَـادِ

إلى أن قال:

تَعَـبٌ كُلُّهَـا الحَيَـاةُ فَمَـا أَعْـ   ـجَبُ إِلَّا مِن رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ

وكان أبو العلاء أعجوبة في حفظه وذكائه، حصل أنه التقى بالمرتضى، وكان المرتضى يذم المتنبي ويُكثِر الوقيعة فيه، أما أبو العلاء فكان متعصبًا للمتنبي ويقول: هو أشعر المُحدَثين، ويُفضِّله على بشار وأبي نُواس وأبي تمام، حتى إنه سمى أحد شرحيه لديوان المتنبي معجز أحمد، فالتقيا في مجلس جرى فيه ذكر المتنبي فتنقَّصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه، فقال المعري: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله: [الكامل]

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي القُلُوبِ مَنَازِلُ

لكفاه فضلًا!

فغضب المرتضى وأمر به فسحب برجله وأخرج من مجلسه، وقال لجلسائه: أتدرون أي شيء أراد هذا الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها فقيل: النقيب السيد أعرف فقال: أراد قوله في هذه القصيدة:

وَإِذَا أَتَتْـكَ مَذَمَّتِي مِن نَّـاقِصٍ   فَهِيَ الشَّـهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ

وقول المعري في أبياته السابقة:

أَبَكَـتْ تِلْكُـمُ الحَمَامَـة أَمْ غَـنْ   ـنَتْ عَلَى فَـرْعِ غُصْنِهَا المَيَّادِ

يريد به أنه ليس في الحياة ما يدعو إلى لذةٍ، أو يستثير النفس إلى جزعٍ، حتى إنه لا يرى فرقًا بين البكاء والغناء، والشعراء كثيرًا ما يذكرون الحمام في شعرهم، وينزلون صوت الحمام على حالهم، فإذا سمع أحدهم صوت الحمام وكان فرحًا قال: هذا الحمام يغني، وإذا كان حزينًا قال: ينوح، كما قال الشاعر: [الوافر]

لَقَدْ عَرَضَ الحَمَامُ لَنَا بِسَجْعٍ   إِذَا أَصْـغَى لَـهُ رَكْـبٌ تَلَاحَـى
شَجَى قَلْبَ الخَلِيِّ فَقَالَ غَنَّى   وَبَـرَّحَ بِالشَّـجِيِّ فَقَـالَ نَاحَـا

وسمع أحد العُبَّاد صوت الحمام، فقال: [الطويل]

أَبِيتُ عَلَى سَهْوٍ وَّتَبْكِي الـحَمَائِمُ   وَلَيسَ لَـهَا جُرْمٌ وَّمِنِّي الـجَرَائِمُ
كَذَبتُ لَعَمْرُ اللهِ لَوْ كُنتُ صَادِقًا   لَّمَا سَبَقَتْنِي بِالبُكَاءِ الـحَمَائِمُ

وأحد الشيعة سمع صوت الحمام، فقال: [مجزوء الكامل]

شَبَّهْتُهُـــنَّ وَقَـــد بَكَيــ   ـنَ وَمَا ذَرَفْنَ دُمُوعَ عَيـنْ
بِنِـــسَاءِ آلِ مُحَمَّـــــدٍ   لَّمَّا بَكَينَ عَلَى الحُسَينْ

ومن أجمل ما قيل في الحمام -ويجوز حذف (مِن)!- قول الشاعر: [الرمل]

رُبَّ وَرْقَـاءَ هَتُـوفٍ بِالضُّـحَى   ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَـرَتْ إِلفًـا وَّدَهْـرًا مَّاضِـيًا   فَبَكَـتْ حُزْنًا فَهَاجَتْ شَجَنِي
فَبُكَائِـــي رُبَّمَـــا أَرَّقَهَـــا   وَبُكَاهَـــا رُبَّمَـــا أَرَّقَنِـــي
وَلَقَــد تَّبْكِــي فَمَــا أَفْهَمُهَــا   وَلَقَـدْ أَبْكِـي فَمَـا تَفْهَمُنِـي
غَيــرَ أَنِّــي بِالــجَوَى أَعْرِفُهَــا   وَهْـيَ أَيْضًـا بِالـجَوَى تَعْرِفُنِـي
أَتُرَاهَـــا بِالبُكَـــا مُوْلَعَـــةً   أَمْ سَـقَاهَا البَيْـنُ مَـا جَرَّعَنِـي

هذه الأبيات ذكر بعضَها ابن القيم في كتابه الكلام على مسألة السماع، وذكر أن هذه الأصوات كثيرًا ما ينزلها السامع على حاله، فتحرك هذه الأصوات منه ما يناسبه من فرح أو حزن أو غضب أو شوق أو غير ذلك.

ومن ذلك أيضًا قول أبي فِرَاس الحَمْداني -وهو من أعلام هذا العصر- وقد سمع صوت حمامة بقربه على شجرة عالية وهو في الأسر فقال: [الطويل]

أَقُولُ وَقَـدْ نَاحَـتْ بُقُرْبِي حَـمَامَةٌ   أَيَـا جَارَتَـا هَـلْ تَشْـعُرِينَ بِحَالِـي
أَيَضْـحَكُ مَأْسُـورٌ وَّتَبْكِـي طَلِيقَـةٌ   وَّيَسْـكُتُ مَـحْزُونٌ وَّيَنـدُبُ سَالِـي
لَقَدْ كُنتُ أَوْلَى مِنكِ بِالدَّمْعِ مُقْلَةً   وَّلَكِنَّ دَمْعِي فِي الـحَوَادِثِ غَالِـي

وقال وهو في الأسر: [الطويل]

أُسِرْتُ وَمَا قَوْمِي بِعُزْلٍ لَّدَى الوَغَى   وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَّلَا رَبُّهُ غُمْرُ
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ القَضَاءُ عَلَى امْرِئٍ   فَلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَّقِيهِ وَلَا بَحْرُ

ومن شعره قوله: [الطويل]

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ   وَّلَيتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيتَ الَّذِي بَينِي وَبَينَكَ عَامِرٌ   وَّبَينِي وَبَينَ العَالَمِينَ خَرَابُ

قال السَّقَّاف في العود الهندي: ولقد أوفى على الإجادة غير أنه أساء الأدب؛ إذ لا يليق هذا إلا بخطاب الباري ﷻ، ومن ثم استعملها في مناجاته جلة من العلماء.

ومنهم أبو إسماعيل الحسينُ بنُ عليٍّ المعروفُ بالطُّغْرائي نسبة إلى الطُّغْرى وهي كلمة أعجمية استعملتها العرب معناها الطُّرَّة التي تكتب عادةً في أعلى الكتاب بالخط الغليظ تتضمن نعوت الملك الذي يصدر الكتاب باسمه.

وقد قال أحمد شوقي في همزيته: [الكامل]

نُظِمَتْ أَسَامِي الرُّسْلِ فَهْيَ صَحِيفَةٌ   فِي اللَّوْحِ وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ

ومن مستجاد شعر الطغرائي لامية العجم التي نالت شهرة واسعة وشُرحت شروحًا كثيرة أشهرها شرح الصَّفدي مطلعها قوله:
[البسيط]

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الخَطَلِ   وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى العَطَلِ

يقول فيها:

حُبُّ السَّلامَةِ يَثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ   عَنِ المَعَالِي وَيُغْرِي المَرْءَ بِالكَسَلِ
فَإِنْ جَنَحْتَ إِلَيْهِ فَاتَّخِذْ نَفَقًا   فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي الجَوِّ فَاعْتَزِلِ
وَدَعْ غِمَارَ العُلَى لِلْمُقْدِمِينَ عَلَى   رُكُوبِهَا وَاقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِالبَلَلِ

يقول فيها:

إِنَّ العُلَى حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ   فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ العِزَّ فِي النُّقَلِ
لَوْ أَنَّ فِي شَرَفِ المَأْوَى بُلُوغَ مُنًى   لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الحَمَلِ

وآخرها قوله:

قَـدْ رَشَّـحُوكَ لِأَمْـرٍ إِنْ فَطِنْـتَ لَـهُ   فَارْبَأْ بِنَفْسِـكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَـلِ

ثم بعد العصر العباسي وقبل العصر الحديث **عصرُ الدُّوَل المتتابعة** ويسميه بعض الباحثين عصرَ الانحطاط الأدبي وهذا الحكم ليس على إطلاقه فقد كان فيه شعراء مجيدون وإن كانت السمةُ الغالبة في هذا العصر نزولَ مكانة الشعر عمّا كانت عليه في العصر السالف.

وقد سبق ذكر شيء من شعر هذا العصر في الكلام عن شعر العلماء.

ومن أعلام هذا العصر صَفِيُّ الدين الحِلِّيُّ ومن مُلَحِهِ قوله: [الخفيف]

إِنَّـمَا الـحَيزَبُونُ وَالـدَّرْدَبِيسُ   وَالطَّخَـا وَالنُّقَـاخُ وَالعَلْطَبِيسُ

لُغَـةٌ تَنـفِرُ الـمَسَامِعُ مِنهَـا   حِينَ تُرْوَى وَتَشْمَئِزُّ النُّفُوسُ

الحيزبون العجوز، أو التي لا خير فيها. والدردبيس العجوز الفانية والداهية. والطخا السحاب المرتفع. والنقاخ الماء البارد العذب الصافي. والعلطبيس الأملس البراق. يقول:

إِنَّـمَا الـحَيزَبُونُ وَالـدَّرْدَبِيسُ   وَالطَّخَـا وَالنُّقَـاخُ وَالعَلْطَبِيسُ

لُغَـةٌ تَنـفِرُ الـمَسَامِعُ مِنهَـا   حِينَ تُـرْوَى وَتَشْمَئِزُّ النُّفُوسُ

وَقَبِيحٌ أَن يُذْكَرَ النَّافِرُ الوَحْـ   ـشِيُّ مِنهَـا وَيُتْـرَكَ الـمَأْنُوسُ

أَيـنَ قَولِـي هَـذَا كَثِيـبٌ قَدِيـمٌ   وَمَقَالِـي عَقَنـقَلٌ قُـدْمُوسُ

خَلِّ لِلأَصْمَعِيِّ جَوْبَ الفَيَافِي   فِي نِشَافٍ تَخِفُّ فِيهِ الرُّؤُوسُ

إِنَّـمَا هَـذِهِ القُلُـوبُ حَدِيـدٌ   وَلَذِيـذُ الأَلْفَـاظِ مِغْنَـاطِيسُ

ومن مختار شعره في الحماسة والفخر قوله: [البسيط]

سَـلِ الرِّمَـاحَ العَـوَالِي عَـن مَعَالِينَـا   واسْتَشْهِدِ البِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا

لَقَـدْ سَـعَينَا فَلَـمْ تَضْـعُفْ عَزَائِمُنَـا   عَمَّـا نَـرُومُ وَلَا خَابَـتْ مَسَـاعِينَا

قَـوْمٌ إِذَا اسْتُخْصِـمُوا كَـانُوا فَرَاعِنَـةً   يَوْمًـا وَإِنْ حَكَمُـوا كَـانُوا مَوَازِينَـا

تَـدَرَّعُوا العَقْـلَ جِلْبَابًـا فَـإِنْ حَمِيَـتْ نَـارُ الـوَغَى خِلْـتَهُمْ فِيهَـا مَجَانِينَـا
إِذَا ادَّعَـوا جَـاءَتِ الـدُّنْيَا مُصَـدِّقَةً وَإِنْ دَعَـوا قَالَـتِ الأَيَّـامُ آمِينَـا
إِنَّـا لَقَـوْمٌ أَبَـتْ أَخْلَاقُنَـا شَـرَفًا أَن نَبْتَـدِي بِـالأَذَى مَـن لَّـيْسَ يُؤْذِينَـا
بِـيضٌ صَـنَائِعُنَا سُـودٌ وَقَائِعُنَـا خُضْـرٌ مَرَابِعُنَـا حُمْـرٌ مَوَاضِـينَا
لَا يَظْهَـرُ العَجْـزُ مِنَّـا دُونَ نَيْـلِ مُـنًى وَلَـوْ رَأَيْنَـا المَـنَايَا فِي أَمَانِينَـا

ومنهم صلاح الدين الصَّفَدِيُّ ومن شعره لاميته التي يقول عنها الشوكاني في البدر الطالع: إن الصفدي سلك فيها مسلك الطغرائي في لامية العجم قال: وهي قصيدة رائقة مشتملة على حِكَمٍ نافعة.

وقد سبق أنه شرح لامية العجم فلا غرو أن يتأثر بالطغرائي وينتهج منهجه.

قال فيها الصفدي: [البسيط]

الجَـدَّ فِي الجِـدِّ وَالحِرْمَـانُ فِي الكَسَـلِ فَانْصَـبْ تُصِـبْ عَـنْ قَرِيبٍ غَايَـةَ الأَمَـلِ
وَاصْبِرْ عَلَى كُـلِّ مَـا يَـأْتِي الزَّمَـانُ بِـهِ صَـبْرَ الحُسَـامِ بِكَـفِّ الـدَّارِعِ البَطَـلِ
وَلَا تَكُونَـا عَلَـى مَـا فَـاتَ ذَا حَـزَنٍ وَلَا تَظَـلَّ بِمَـا أُوتِيـتَ ذَا جَـذَلِ
وَاسْتَشْـعِرِ الحِلْـمَ فِي كُـلِّ الأُمُـورِ وَلَا تُسْـرِعْ بِبَـادِرَةٍ يَوْمًـا إِلَى رَجُـلِ
وَإِنْ بُلِيـتَ بِشَـخْصٍ لَا خَـلَاقَ لَـهُ فَكُـن كَأَنَّـكَ لَمْ تَسْـمَعْ وَلَمْ يَقُـلِ
وَلَا يَغُرَّنْـكَ مَـنْ يُبْـدِي بَشَاشَـتَهُ إِلَيْـكَ خِـدْعًا فَـإِنَّ السُّـمَّ فِي العَسَـلِ
وَإِنْ أَرَدتَّ نَجَاحًـا أَو بُلُـوغَ مُـنًى فَـاكْتُمْ أُمُـورَكَ عَـنْ حَـافٍ وَمُنْتَعِـلِ

هذا آخره، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس عشر

في هذا المجلس:

- **عصور الأدب:**

الشعر في الأندلس

* المعتمد بن عبّاد وشيء من أخباره وأشعاره.

- استعانته بيوسف بن تاشفين على النصارى.
- وقوعه أسيرًا، أولُ عيد فطر وهو في السجن، يومُ الطين.
- رؤيا والده، البلاء موكَّل بالمنطق.

لَا تَـمْزَحَنَّ بِـمَا كَرِهْـتَ فَرُبَّـمَا ضَـرَبَ المِـزَاحُ عَلَيكَ بِـالتَّحْقِيقِ

* خبر مجنون ليلى وما جره إليه لسانه، خبر المؤمَّل الشاعر، عُبيد الجرهمي في مجلس معاوية بن أبي سفيان يحكي أعجب شيء رآه في الجاهلية.

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ أَن تَقُولَ فَتُبْتَلَى إِنَّ البَـلَاءَ مُوَكَّـلٌ بِالمَنطِـقِ

* ابن زيدون.
* لسان الدين ابن الخطيب.

٦/ العصر الحديث:

* محمود سامي البارودي

وَمَـنْ تَكُـنِ العَلْيَـاءُ هِمَّـةَ نَفْسِـهِ فَكُـلُّ الـذي يَلْقَـاهُ فِيهَـا مُحَبَّـبُ

* حافظ إبراهيم

فَـإِذَا رُزِقْـتَ خَلِيقَـةً مَّحْمُـودَةً فَقَـدِ اصْـطَفَاكَ مُقَسِّـمُ الأَرْزَاقِ

* أحمد شوقي، معارضة إبراهيم طوقان لأحمد شوقي:

شَـوْقِي يَقُـولُ وَمَـا دَرَى بِمُصِيبَتِـي "قُـمْ لِلمُعَلِّـمِ وَفِّـهِ التَّبْجِـيلَا"

اقْعُدْ فَدَيتُكَ...

*محمد مصطفى حمام

عَلَّمَتْنِـــي الحَـــيَاةُ أَنَّ حَيَاتِـــي   إِنَّــمَا كَانَــتِ امْتِحَانًــا طَــوِيْلَا
قَــدْ أَرَى بُعْــدَهُ نَعِيمًــا مُّقِيمًــا   أَوْ أَرَى بُعْــدَهُ عَــذَابًا وَّبِــيلَا

*الشيخ حافظ الحكمي، ميميته في الوصايا والآداب العلمية، قصيدته التي أجاب بها من مدحه:

عَـادَتْ عَلَيكُمْ تَـحِيَّاتٌ مُّضَـاعَفَةٌ   أَمَّا الـمَدِيحُ فَمَا لِي حَاجَةٌ فِيهِ
مَا لِي وَلِلمَدْحِ...

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن دولة الإسلام في الأندلس كانت على أَوجِهَا عندما قامت دولة بني أمية في تلك البلاد، واستمرت ما شاء الله، حتى كانت بعد ذلك دول الطوائف، فتفرقوا حتى صاروا كما قال الشاعر: [الكامل]

وَتَفَرَّقُــوا شِيَــعًا فَكُــلُّ مَحِلَّــةٍ فِيهَــا أَمِيــرُ المُؤْمِنِيــنَ وَمِنبَــرُ

وقال الحسن بن رشيق: [البسيط]

مِــمَّا يُزَهِّدُنِــي فِــي أَرْضِ أَنــدَلُسٍ أَسْــمَاءُ مُعْتَضِــدٍ فِيهَــا وَمُعْتَمِــدِ
أَلْقَـابُ مَـمْلَكَةٍ فِـي غَيـرِ مَوْضِـعِهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

ثم انتهت بانتهاء آخر مَعْقِل من معاقل المسلمين وهو غرناطة في حكم عبدالله الصغير.

وخلال هذه المدة الزمنية الممتدة، شهد الأدب العربي ازدهارًا كبيرًا، واشتهر أدباء الأندلس بالرِّقَّة ووصف الطبيعة مما أعان عليه حسن بلادهم وصفاء طبيعتهم.

ولا بأس أن نأخذ علَمًا من أعلامها -شعرًا وحُكْمًا وسياسةً وشجاعةً ورأيًا- وهو المُعْتَمِد ابن عَبَّاد.

خشي المعتمد -وكان من كبار ملوك الطوائف- أن تسقط دولته إشبيلية على أيدي النصارى، فعزم على أن يكتب إلى يوسف بنِ تَاشَفِين -وهو أمير المسلمين آنذاك على بلاد المغرب- فيُعينه بجيوشه وينتصر على النصارى. فحذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد. يريدون أن ابن تاشفين إذا رأى خُضرة البلاد وحسنها استولى على الأندلس وضمَّها إلى ملكه، فقال كلمته التي سارت مثلًا: رعيُ الجمال خير من رعي الخنازير يعني أن كونه أسيرًا عند ابن تاشفين يرعى جماله في الصحراء خير من أن يكون أسيرًا عند النصارى يرعى خنازيرهم.

وقدم يوسف والتقى هو والمعتمد بن عبّاد في صف واحد في معركة الزَّلَّاقة الشهيرة التي قيل: إن الله تعالى حفظ بلاد الأندلس من السقوط أربعة قرون بسبب هذه المعركة، وكان فيها

النصر الذي يتحدث عنه التاريخ، ثم لما ألقت الحرب أوزارها رجع يوسف إلى بلاده ولكنه رجع وقد عزم على أن يعود؛ لمِا رأى فيها من افتراق الكلمة، وكَيد بعض أمراء الأندلس لبعض، واستعانتهم بالنصارى على إخوانهم.

فرجع بعد سُنيهات يسيرة، والتقى يوسف بن تاشفين والمعتمد مرة أخرى، لكنهما كانا في صفين متقابلين متقاتلين.

أحاط جيش يوسف بقصر المعتمد، ودخل إليه رجلان، فخرج إليهما ليس عليه سوى قميصه وسيفه، فحمل على أحدهما وقتله، ففزع الآخر وهرب، فأنشد المعتمد على البديهة والارتجال -وقد أحيط به-: [مجزوء الكامل]

لَمَّــا تَــمَاسَكَتِ الــدُّمُوعُ   وَتَنَهْنَــهَ القَلْــبُ الصَّــدِيعُ
قَــالُوا الــخُضُوعُ سِيَاسَــةٌ   فَلْيَبْــدُ مِنــكَ لَــهُمْ خُضُــوعُ
وَأَلَــذُّ مِــن طَعْــمِ الــخُضُو   عِ عَلَى فَمِي السُّـمُّ النَّقِيعُ

إلى أن قال:

قَــد رُمْــتُ يَــومَ قِتَالِــهِمْ   أَلَّا تُحَصِّنَنِــــي الــــدُّرُوعُ
وَبَـرَزْتُ لَـيسَ سِـوَى القَمِيـ   صِ عَنِ الحَشَا شَيْءٌ دَفُوعُ
أَجَلِـي تَـأَخَّرَ لَـمْ يَكُـنْ   بِــهَوَايَ ذُلِّــي وَالخُضُــوعُ
مَـا سِـرْتُ قَـطُّ إِلَـى القِتَـا   لِ وَكَـانَ مِـنْ أَمَلِي الرُّجُـوعُ
شِــيَمُ الأُلَــى أَنَــا مِــنْهُمُ   وَالأَصْــلُ تَتْبَعُــهُ الفُــرُوعُ

وقع المُعتمد في آخر الأمر أسيرًا في يد يوسف بن تاشفين، ووضعوه في سفينة، ورُحِل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع أحواله، ليُنفى إلى أغمات في المغرب العربي، وتَعَرَّض أبو الحسن الحُصْري الشاعر في طنجة للمُعتمد بشعر يمدحه فيه والمعتمد أسير، فوَجَّهَ إليه المعتمد بشيء من الأعطيات، ومع الأعطيات قطعة فيها شعر يعتذر من قِلَّتها، فتسامع الشعراء بذلك فقصدوه من كل ناحية، فقال رحمه الله: [الكامل]

شُعَرَاءُ طَنجَةَ كُلُّهُمْ وَالمَغْرِبِ ذَهَبُوا مِنَ الإِغْرَابِ أَبْعَدَ مَذْهَبِ
سَأَلُوا العَسِيرَ مِنَ الأَسِيرِ وَإِنَّهُ بِسُؤَالِهِمْ لَأَحَقُّ فَاعْجَبْ وَاعْجَبِ
لَوْلَا الحَيَاءُ وَعِزَّةٌ لَخْمِيَّةٌ طَيَّ الحَشَا سَاوَاهُمُ فِي المَطْلَبِ

ولما رأى الناسُ المُعتمدَ بن عباد أسيرًا تركوا كل ما عندهم – هذا أعظم ملوكهم!– ووقفوا على جانبي النهر يستعبرون ويبكون، ومعهم ابن اللُّبانة –وكان منقطعًا إلى المعتمد– فقال ابن اللبانة قصيدته المشهورة: [البسيط]

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَّائِحٍ غَادِي عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبنَاءِ عَبَّادِ
نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمُ فِي المُنشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ
وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا العِبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا مِن لُّؤْلُؤٍ طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْبَادِ
حُطَّ القِنَاعُ فَلَمْ تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ وَّمُزِّقَتْ أَوْجُهٌ تَمْزِيقَ أَبْرَادِ
حَانَ الوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ وَّصَارِخٍ مِّن مُفَدًّاةٍ وَّمِن فَادِ
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يَصْحَبُهَا كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا الحَادِي

وأول عيد فطر أدرك المعتمد وهو مأسور، جاءت فيه بناته إلى السجن يهنئنه بالعيد، فلما نظر إليهن رأى وجوهًا قد أجدبت، وأقداما حافية تطأ في الطين، فتذكر قصة حصلت له معهن، وهي أن أمهن الرُّمَيكيّة الملقبة باعتماد رأت ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن في القِرَب، وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريَّ مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيّر الجميع طينًا في القصر وجعل لها قِرَبًا وحبالًا من إبريسم وخرجت تخوض في الطين هي وبناتها وجواريها[1] ، فلما رآهن الآن يطأن في الطين حافيات، حَزِن حزنًا شديدًا أنطقه بأشهر قصيدة له وهي قوله: [البسيط]

فِيمَا مَضَى كُنتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورَا فَسَاءَكَ العِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا

[1] يقال إنها غاضبته يومًا فقالت له: والله ما رأيت منك خيرًا قط، فقال لها: ولا يوم الطين؟ تذكيرًا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله فاستحيَت وسكتت.

بَــرَزْنَ نَــحْوَكَ لِلتَّسْــلِيمِ خَاشِــعَةً   أَبْصَــارُهُنَّ حَسِيــرَاتٍ مَكَاسِيــرَا
يَطَـأْنَ فِـي الطِّيـنِ وَالأَقْـدَامُ حَافِيَـةٌ   كَأَنَّـهَا لَـمْ تَطَـأْ مِسْـكًا وَّكَـافُورَا
لَا خَـدَّ إِلَّا تَشَـكَّى الـجَدْبَ ظَـاهِرُهُ   وَلَـيسَ إِلَّا مَـعَ الأَنفَـاسِ مَـمْطُورَا
أَفْطَـرْتَ فِي العِيـدِ لَا عَـادَت إِسَـاءَتُهُ   فَكَــانَ فِطْـرُكَ لِلأَكْبَـادِ تَفْطِيــرَا
قَـدْ كَـانَ دَهْـرُكَ إِنْ تَـأْمُرْهُ مُـمْتَثِلًا   فَــرَدَّكَ الــدَّهْرُ مَنْهِيًّــا وَّمَــأْمُورَا
مَن بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُّسَرُّ بِهِ   فَإِنَّــمَا بَــاتَ بِــالأَحْلَامِ مَغْــرُورَا

كان والد المعتمد وهو عَبَّاد بن محمد بن إسماعيل رأى رؤيا، عُبِرَت له بأنَّ رجلًا يأتي من بلاد المغرب ويستولي على دولتك هذه، ويأخذ أميرها أسيرًا، فجلس العبَّاد مع بنيه وقال: يا بَنِيَّ، إني رأيت في المنام كذا وكذا، فليت شعري أيكم الذي سيكون هذا في عهده؟ فقال المعتمد هذا إذ أراد تطييب خاطر والده: جُعِلْتُ فداءك!

وشاء الله أن تدور الأيام ويكون المعتمد هو الذي تحققت فيه هذه الرؤيا.

وقد صح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: البلاء موكل بالقول، ويُروى مرفوعًا ولم يصح، لكن شواهده كثيرة.

من ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– دخل على أعرابي يَعُوده، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله» فقال الأعرابي: طهور! بل حمى تَفور، على شيخ كبير، تُزِيره القبور! فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «فنعم إذًا» أخرجه البخاري.

ومن شواهد هذا من الشعر: قول قَيس مجنون ليلى: [الطويل]

فَلَو كُنتُ أَعْمَى أَخْبِطُ الأَرْضَ بِالعَصَا   أَصَــمَّ فَنَادَتْنِــي أَجَبْــتُ المُنَادِيَــا

فابتلي نسأل الله العافية بذلك، فعَمِي وصُمّ، وقال أيضًا: [الطويل]

قَضَـاهَا لِغَيـرِي وَابْتَلَانِـي بِحُبِّـهَا   فَهَـلَّا بِشَيْءٍ غَيـرِ لَيْلَـى ابْتَلَانِيَـا

فما مات حتى بَرِص، ورأى في منامه قائلًا يقول له: هذا ما تمنَّيتَ.

ومن ذلك أيضًا قول المُؤَمَّل الشاعر: [البسيط]

شَـفَّ المُؤَمَّـلَ يَـومَ الحِيـرَةِ النَّظَـرُ   لَيتَ المُؤَمَّـلُ لَـمْ يُخْلَقْ لَـهُ بَصَـرُ

فلم يَلبث أن عمي! ورأى في منامه من يقول له: هذا ما تمنَّيت في شعرك.

وقد أشار ابن القيم في تُحفَة المَودود إلى شيء من هذا، وقال: وقد رأينا مِن هذا عِبرًا فينا وفي غيرنا، والذي رأيناه كقطرة في بحر. ثم أورد بيت المُؤمَّل هذا.

ومن شواهده أن مَلِكَ العرب المُنذِرَ بنَ المُنذِرِ نزل في كتيبة موضعًا فقال له رجل: أبيت اللَّعن! إن ذُبح رجل هاهنا إلى أيِّ موضع يبلغ دَمُه من هذه الرَّابية؟

فقال المنذر: المذبوح والله أنت، ولأنظرنَّ أين يبلغ دمك! فقال رجل ممن حضر: رُبَّ كلمة تقول لصاحبها دعني!

وقال أَكْثَم بن صَيفِي: مَقْتل الرجل بين فَكَّيه.

وقال الأَحْنَف: حَتْف الرجل مَخْبُوء تحت لسانه.   [الكامل]

لَا تَـمْزَحَنَّ بِـمَا كَرِهْـتَ فَرُبَّـمَا   ضَـرَبَ الـمِزَاحُ عَلَيـكَ بِـالتَّحْقِيقِ

وقد قال معاوية بن أبي سفيان لعُبَيد الجُرهُمي: أخبرني بأعجب شيء رأيتَه في الجاهلية. فقال: إني نزلتُ بحَيٍّ من قُضَاعة فخرجوا بجِنازة رجل مِن عُذْرَة وخرجت معهم، حتى إذا وارَوه انتبذت جانبًا عن القوم وعيناي تذرفان، ثم تمثَّلتُ بأبيات شعر كنتُ أَرويها قبل ذلك بزمان طويل، وذكر الأبيات وفي آخرها: [البسيط]

يَبْكِي الغَرِيـبُ عَلَيـهِ لَـيسَ يَعْرِفُـهُ   وَذُو قَرَابَتِـهِ فِـي الـحَيِّ مَسْـرُورُ

قال: وإلى جانبي رجل يسمع ما أقول، فقال لي: يا عبدالله هل لك علم بقائل هذه الأبيات؟ قلت: لا والله، إلا أني أرويها منذ زمان. فقال: والذي تحلف به إنَّ قائلها لَصاحبنا الذي دفنّاه الآن، وهذا الذي ترى ذو قرابته أَسَرُّ الناس بموته، وإنك لغريب وتبكي عليه كما وصفت.   [الكامل]

لَا تَنطِقًـا بِـمَقَالَةٍ فِـي مَـجْلِسٍ   تَـخْشَى عَوَاقِبَهَا وَكُن ذَا مَصْدَقِ
وَاحْفَـظْ لِسَـانَكَ أَن تَقُـولَ فَتُبْتَلَـى   إِنَّ البَـلَاءَ مُوَكَّـلٌ بِالمَنطِـقِ

ومما يُستظرف قول بعضهم وقد نقل المنطق في قولهم البلاء موكل بالمنطق مِن معنى القول إلى علم المنطق اليونانيّ، فقال: [الكامل]

نَفَذَ القَضَاءُ بِأَخْذِ كُلِّ مُرَهِّقِ مُتَفَلْسِفٍ فِي دِينِهِ مُتَزَنْدِقِ

بِالمَنطِقِ اشْتَغَلُوا فَقِيلَ حَقِيقَةً إِنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنطِقِ

ومما يتصل بهذا: أن ابن الرومي كان كثير الطِّيَرَة، ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيّرًا بسوء ما يراه ويسمعه حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأُعلم بحاله في الطيرة، فبعث إليه خادمًا اسمه إقبال ليتفاءل به فلما أخذ أهبته للركوب، قال للخادم: انصرف إلى مولاك فأنت ناقص، ومنكوس اسمك لا بقا!

– ومن أعلام الشعراء بالأندلس ابن زَيدون، وأشهر قصائده نُّونيته التي مطلعها: [البسيط]

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا عَن تَدَانِينَا وَنَابَ عَن طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

وفيها يقول:

لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلّا رَيَاحِينَا

لَا تَحْسِبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَا

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِّنكُمْ وَلَا انصَرَفَتْ عَنكُمْ أَمَانِينَا

وله تلك المقطوعة الجميلة التي قالها في الذكرى متوجعًا: [الرمل]

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ذَائِعٌ مِّن سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَن لَّم يَكُن زَادَ فِي تِلْكَ الخُطَى إِذْ شَيَّعَكْ

يَا أَخَا البَدْرِ سَنَاءً وَسَنًا حَفِظَ اللهُ زَمَانًا أَطْلَعَكْ

إِن يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيلِ مَعَكْ

– ومن أعلام شعراء الأندلس لسان الدين ابن الخطيب ذو الوزارتين، مفخرة من مفاخر الأندلس، صاحب البيان الرائق، والشعر الفائق، روى كثيرًا من أخباره وأشعاره المَقَّري في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب".

من شواهد حسن بيانه وجودة قريحته أنه بعثه السلطان محمد بن أبي الحجاج سفيرًا إلى السلطان أبي عنان مستمدًّا له على عدوّه على عادته مع سلفه. فلمّا قدم على السلطان ومثَل بين يديه، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شعر قدّمه بين يدي نجواه، فأذن له، فأنشد وهو قائم: [المنسرح]

خَلِيفَـــــةَ اللهِ سَـــــاعَدَ القَـــــدَرُ عُــلَاكَ مَــا لَاحَ فِي الـــدُّجَى قَمَــرُ
وَدَافَعَـــتْ عَنـــكَ كَـــفُّ قُدْرَتِـــهِ مَــا لَـيْسَ يَسْـطِيعُ دَفْعَـهُ البَشَــرُ
وَجْهُــكَ فِي النَّائِبَــاتِ بَــدْرُ دُجًــى لَنَــا وَفِي المَحْــلِ كَفُّــكَ المَـطَرُ
وَالنَّـــاسُ طُـــرًّا بِـــأَرْضِ أَنْـــدَلُسٍ لَـــوْلَاكَ مَـــا أَوْطَنُـــوا وَلَا عَمَـــرُوا
وَجُمْلُـــةُ الأَمْـــرِ أَنَّـــهُ وَطَـــنٌ فِي غَـــيْرِ عُلْيَـــاكَ مَـــا لَـــهُ وَطَـــرُ
وَمَـــن بِـــهِ مُـــذْ وَصَـــلْتَ حَـــبْلَهُمُ مَـــا جَحَـــدُوا نِعْمَـــةً وَلَا كَفَـــرُوا
وَقَـــــدْ أَهَمَّـــــتْهُمُ نُفُوسُـــــهُمُ فَوَجَّهُـــــونِي إِلَيْـــــكَ وَانْتَظَـــــرُوا

فاهتزَّ السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلّا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه.

قال القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سِفارته قبل أن يسلِّم على السلطان إلّا هذا.

ومن أشهر شعره مُوَشَّحته التي يقول فيها: [الرمل]

جَــــادَكَ الغَيْــــثُ إِذَا الغَيْــــثُ هَمَــــى يَــــا زَمَــــانَ الوَصْــــلِ بِالأَنْــــدَلُسِ
لَمْ يَكُــــــنْ وَصْــــــلُكَ إِلَّا حُلُمــــــا فِي الكَــــرَى أَوْ خُلْسَــــةَ المُــــخْتَلِسِ
إِذْ يَقُــــودُ الــــدَّهْرُ أَشْــــتَاتَ المُــــنَى تَنْقُــــلُ الخَطْــــوَ عَلَــــى مَــــا يَرْسُــــمُ
زُمَــــراً بَــــيْنَ فُــــرَادَى وثُــــنى مِثْــــلَ مَــــا يَــــدْعُو الوُفُــــودَ المَــــوْسِمُ
والحَيَــــا قَــــدْ جَلَّــــلَ الــــرَّوضَ سَــــنا فَثُغُــــورُ الزَّهْــــرِ فِيــــهِ تَبْسِــــمُ
وَرَوَى النُّعْمَــــانُ عَــــن مَّــــاءِ السَّــــمَا كَيْــــفَ يَــــرْوِي مَالِــــكٌ عَــــنْ أَنَــــسِ
فَكَسَــــاهُ الحُسْــــنُ ثَوْبَــــا مُّعْلَمــــا يَزْدَهِــــي مِنْــــهُ بِــــأَبْهَى مَلْــــبَسِ

فِي لَيَـــالٍ كَتَمَـــتْ سِـــرَّ الهَـــوَى   بِالـــدُّجَى لَـــوْلَا شُمُـــوسُ الغُـــرَرِ
مَـــالَ نَجْـــمُ الكَـــأْسِ فِيهَـــا وَهَـــوَى   مُسْـــتَقِيمَ السَّـــيْرِ سَـــعْدَ الأَثَـــرِ
وَطَـــرٌ مَـــا فِيـــهِ مِـــنْ عَيْـــبٍ سِـــوَى   أَنَّـــهُ مَـــرَّ كَلَمْـــحِ البَصَـــرِ
حِـــيْنَ لَـــذَّ الأُنْـــسُ شَـــيْئًا أَوْ كَمَـــا   هجَـــمَ الصُّـــبْحُ هُجُـــومَ الحَـــرَسِ
غَـــارَتِ الشُّـــهْبُ بِنَـــا أَوْ رُبَّمَـــا   أَثَّـــرَتْ فِيهَـــا عُيُـــونُ النِّـــرْجِسِ

وقوله:

وَرَوَى النُّعْمَـــانُ عَـــن مَّـــاءِ السَّـــمَا   كَيْـــفَ يَـــرْوِي مَالِـــكٌ عَـــنْ أَنَـــسِ

فيه تورية وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد به البعيد.

فكلمة النعمان معناها القريب مَلِك الحيرة، ومعناها البعيد المقصود زهر أحمر يقال: له شقائق النعمان، وماء السماء معناه القريب جد النعمان ملك الحيرة ومعناه البعيد المقصود: المطر.

والمعنى أن بين شقائق النعمان والمطر من النسبة ما بين الإمام مالك بن أنس وأبيه أنس من أن الأول فيهما ابن للثاني وناشئ عنه.

ومن شعره قوله: [المتدارك]

أَبَنِـــي الأَنصَـــارِ لَكُـــمْ شَـــرَفٌ   حُكْـــمُ القُـــرْآنِ بِـــهِ نَطَقَـــا
آوَوْا نَصَـــــرُوا أُوذُوا صَبَـــــرُوا   كَـــانُوا لِرَسُـــولِ اللهِ وِقَـــا
حَفِظُـــوهُ بِبَـــذْلِ الـــنَّفْسِ كَمَـــا   حَفِظُـــوا بِجُفُونِـــهِمُ الـــحَدَقَا

وله رَقْمُ الحُلَل في نظم الدول في التاريخ، يقول فيها في أهمية علم التاريخ:[الرجز]

وَبَعْـــــدُ فَالتَّـــــارِيخُ وَالأَخْبَـــــارُ   فِيـــهِ لِـــنَفْسِ العَاقِـــلِ اعْتِبَـــارُ
وَفِيـــــهِ لِلمُسْتَبْصِـــــرِ اسْتِبْصَـــــارُ   كَيفَ أَتَى القَومُ وَكَيفَ صَارُوا
يُجْرِي عَلَى الـحَاضِرِ حُكْـمَ الغَائِبِ   فَيُثْبِـتُ الـحَـقَّ بِسَـهْمٍ صَائِـبِ
وَيَنظُـــرُ الدُّنْـــيَا بِعَيـــنِ النُّبْـــلِ   وَيَتْـرُكُ الـجَهْلَ لِأَهْـلِ الـجَهْلِ

- **ثم بعده العصر الحديث**

ومن أعلامه محمود سامي البارودي باعث الشعر في العصر الحديث، أشعاره درر، وقصائده غرر، جزل الأسلوب، فحل الألفاظ والمعاني، من مُتَخَيَّرِ شعرِه قولُه:

سِـــوَايَ بِتَحْنَـــانِ الأَغَارِيـــدِ يَطْـــرَبُ وَغَــيْرِيَ بِاللَّـــذَّاتِ يَلْهُــو وَيُعْجَـــبُ
وَمَـــا أَنَـــا مِمَّـــنْ تَأْسِـــرُ الْخَمْـــرُ لُبَّـــهُ وَيَمْلِـــكُ سَمْعَيْـــهِ الْيَـــرَاعُ الْمُثَقَّـــبُ
وَلَكِـــنْ أَخُـــو هَـــمٍّ إِذا مـــا تَرَجَّحَـــتْ بِـــهِ سَـــوْرَةٌ نَحْـــوَ العُـــلَا رَاحَ يَـــدْأَبُ
نَفَـــى النَّـــوْمَ عَـــنْ عَيْنَيْـــهِ نَفْـــسٌ أَبِيَّـــةٌ لَهَـــا بَـــينَ أَطْـــرَافِ الأَسِـــنَّةِ مَطْلَـــبُ
إِذَا أَنَـــا لَمْ أُعْـــطِ الْمَكَـــارِمَ حَقَّهَـــا فَـــلَا عَـــزَّنِي خَـــالٌ وَلَا ضَـــمَّنِي أَبُ
وَمَـــنْ تَكُـــنِ العَلْيَـــاءُ هِمَّـــةَ نَفْسِـــهِ فَكُـــلُّ الَّـــذِي يَلْقَـــاهُ فيهـــا مُحَبَّـــبُ

ومن أعلام هذا العصر حافظ إبراهيم الذي قال على لسان العربية تنعى حَظَّها بين أهلها: [الطويل]

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَاتِي وَنَادَيتُ قَومِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
رَمَونِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي
وَلَدتُّ وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعَرَائِسِي رِجَالًا وَّأَكْفَاءً وَّأَدْتُ بَنَاتِي
وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وَّغَايَةً وَّمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ
فَكَيفَ أَضِيقُ اليَومَ عَن وَّصْفِ آلَةٍ وَّتَنسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ
أَنَا البَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَن صَدَفَاتِي

ومن جميل شعره قوله: [الكامل]

إِنِّي لَتُطْـــرِبُنِي الخِـــلَالُ كَرِيمَـــةً طَـرَبَ الغَرِيـبِ بِأَوبَـةٍ وَتَلَاقِـي
وَتَهُـزُّنِي ذِكْـرَى المُـرُوءَةِ وَالنَّـدَى بَـيْنَ الشَّـمَائِلِ هِـزَّةَ المُـشْتَاقِ

وفيها يقول:

فَـإِذَا رُزِقْـتَ خَلِيـقَةً مَّـحْمُودَةً فَقَـدِ اصْـطَفَاكَ مُقَسِّـمُ الأَرْزَاقِ

وفيها يقول:

وَالعِلْـمُ إِن لَّـمْ تَكْتَـنِفْهُ شَـمَائِلٌ   تُعْلِيـهِ كَـانَ مَطِيَّـةَ الإِخْفَـاقِ
لَا تَحْسِبَـنَّ العِلْـمَ يَنفَـعُ وَحْـدَهُ   مَـا لَـمْ يُتَـوَّجْ رَبُّـهُ بِـخَلَاقِ

وفيها يقول:

الأُمُّ مَدْرَسَـــــةٌ إِذَا أَعْـــــدَدتَّهَا   أَعْدَدتَّ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ
الأُمُّ رَوْضٌ إِنْ تَعَهَّـــــدَهُ الحَيَـــا   بِـــالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّمَـــا إِيـــرَاقِ

ومن أعلامه: أمير الشعراء أحمد شوقي، ومن جميل ما جرى مجرى الأمثال من شعره قوله: [البسيط]

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِن هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وقوله: [الكامل]

وَإِذَا أُصِيبَ القَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ   فَأَقِـمْ عَلَيهِـمْ مَأْتَـمًا وَّعَـوِيلَا

وقوله: [الوافر]

وَلَـيسَ بِعَـــامِرٍ بُنْيَـــانُ قَـــومٍ   إِذَا أَخْلَاقُهُـمْ كَانَـتْ خَرَابَـا

وقوله: [الكامل]

أَعَلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي   يَبْنِـي وَيُنشِـئُ أَنفُسًـا وَّعُقُـولَا

وقوله: [السريع]

وَلَـيسَ بِالفَاضِـــلِ فِـي نَفْسِـهِ   مَـن يُنكِـرُ الفَضْـلَ عَلَـى رَبِّـهِ

وقوله: [السريع]

مَـا أَصْـعَبَ الفِعْـلَ لِمَـن رَّامَـهُ   وَأَسْهَلَ القَولَ عَلَى مَنْ أَرَادْ

وقوله: [الكامل]

دَقَّـاتُ قَلْـبِ المَـرْءِ قَائِلَـةٌ لَـهُ   إِنَّ الحَيَـــاةَ دَقَـــائِقٌ وَّثَـــوَانِي

وقوله: [الطويل]

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

ولا تكاد تجد غرَضًا شعريًّا إلا وتعرَّض له أحمد شوقي.

ومن أشهر شعره قصيدته نهج البردة التي مطلعها: [البسيط]

رِيمٌ عَلَـى القَـاعِ بَـيْنَ البَـانِ والعَلَـمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

وقصيدته الهمزية التي مطلعها: [الكامل]

وُلِـدَ الهُـدَى فَالكَائِنَـاتُ ضِـيَاءُ وَفَـمُ الزَّمَـانِ تَبَسُّـمٌ وَّثَنَـاءُ

ومن شعره قوله: [الكامل]

قُـمْ لِلمُعَلِّـمِ وَفِّـهِ التَّبْجِـيلَا كَادَ المُعَلِّمُ أَن يَّكُونَ رَسُولَا

وقد عارض هذه القصيدة الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان فقال:

شَـوقِي يَقُـولُ وَمَـا دَرَى بِمُصِيبَتِـي قُـمْ لِلمُعَلِّـمِ وَوَفِّـهِ التَّبْجِـيلَا

اقْعُـدْ فَـدَيتُكَ هَـلْ يَكُـونُ مُـبَجَّلًا مَّن كَانَ لِلنَّشْءِ الصِّغَارِ خَلِيلَا

وَيَكَـادُ يَفْلِقُنِـي الأَمِيـرُ بِقَولِـهِ كَـادَ المُعَلِّـمُ أَن يَّكُـونَ رَسُـولَا

إلى أن قال:

وَأَكَـادُ أَبْعَـثُ سِـيبَوَيهِ مِـنَ البِلَـى وَذَوِيـهِ مِنْ أَهْلِ القُـرُونِ الأُولَـى

فَـأَرَى حِـمَارًا بَعْـدَ ذَلِـكَ كُلِّـهِ رَفَـعَ الـمُضَافَ إِلَيـهِ وَالـمَفْعُولَا

يَـا مَـن يُّرِيـدُ الاِنتِحَـارَ وَجَدتَّـهُ إِنَّ الـمُعَلِّمَ لَا يَعِـيشُ طَـوِيلَا

وللشاعر المصري محمد مصطفى حَمام قصيدة حِكَمِيَّة جميلة يقول فيها: [الخفيف]

عَلَّمَتْنِـي الـحَيَاةُ أَنَّ حَيَاتِـي إِنَّـمَا كَانَـتِ امْتِحَانًـا طَـوِيلَا

قَـدْ أَرَى بَعْـدَهُ نَعِيمًـا مُّقِيمًـا أَوْ أَرَى بَعْـدَهُ عَـذَابًا وَّبِـيلَا

عَلَّمَتْنِـي الـحَيَاةُ أَن أَتَلَقَّـى كُـلَّ أَلْوَانِـهَا رِضًـى وَّقَبُـولَا

وَرَأَيـتُ الرِّضَـا يُـخَفِّفُ أَثْقَـا لِي وَيُلْقِي عَلَى المَآسِي سُدُولَا

وَالَّـذِي أُلْـهِمَ الرِّضَـا لَا تَـرَاهُ أَبَـدَ الـدَّهْرِ حَاسِـدًا أَوْ عَـذُولَا

أَنَــا رَاضٍ بِكُــلِّ مَــا كَتْـــبَ اللَّـــ ـــهُ وَمُــزْجٍ إِلَيــهِ حَــمْدًا جَــزِيلَا
أَنَــا رَاضٍ بِكُــلِّ صِــنفٍ مِّـــنَ النَّــا سِ لَئِيمًـــا أَلْفَيتُـــهُ أَوْ نَبِـــيلَا
ضَـلَّ مَـن يَّـحْسِبُ الرِّضَـا عَـنْ هَـوَانٍ أَوْ يَــرَاهُ عَلَــى النِّفَــاقِ دَلِــيلَا
فَالرِّضَــا نِعْمَــةٌ مِّـــنَ اللهِ لَــمْ يَسْـــ ـعَدْ بِـهَا فِـي العِبَـادِ إِلَّا قَلِـيلَا
عَلَّمَتْنِـــي الــحَيَاةُ أَنَّ لَــهَا طَعْـــ مَيـــنِ مُــرًّا وَّسَــائِغًا مَّعْسُـــولَا
أَكْثَـرُ النَّــاسِ يَـحْكُمُونَ عَلَـى الـنَّا سِ وَهَيْهَـاتَ أَن يَّكُونُـوا عُـدُولَا
فَلَكَـــمْ لَقَّبُـــوا البَخِيـــلَ كَرِيـــمًا وَلَكَــمْ لَقَّبُــوا الكَرِيــمَ بَــخِيلَا
رُبَّ عَـــذْرَاءَ حُـــرَّةٍ وَّصَـــمُوهَا وَبَغِـــيٍّ قَــد صَـــوَّرُوهَا بَتُـــولَا
وَقَطِيـــعِ اليَـــدَينِ ظُلْمًـــا وَلِـــصٍّ أَشْـــبَعَ النَّـــاسُ كَفَّـــهُ تَقْبِـــيلَا

انظر إلى هذه الأبيات كيف تُبغِّض إليك النفاق، وتُحبِّب إليك الصدق وتُبَيِّنُ شيئًا من حقيقة الدنيا.

- ومن أعلامه وهو من رجال هذا العصر علمًا وحفظًا وشعرًا: الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله -وقد فاتني ذكره في الكلام عن شعر العلماء- وهو من أقدر المتأخرين على قول الشعر، وأجراهم به لسانًا، يقوله سليقة دون تكلُّف، له منظومات كثيرة تشهد بجودة شعره وحسن أدبه وصلاح نفسه ووفرة علمه، وله أشعار كثيرة غير المنظومات العلمية، ينظم نصيحة أو مساجلة لصديق أو خاطرة.

ومن أجمل قصائده ميميّته في الوصايا والآداب العلمية، وفيها يقول مبيِّنًا شيئًا من شرف العلم وعالي رُتبته: [البسيط]

العِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ أُذْنٌ وَّأَعْــرَبَ عَنْــهُ نَــاطِقٌ بِفَـــمِ
العِلْــمُ غَايَتُــهُ القُصْـوَى وَرُتْبَتُـه الْـ عَلْيَـاءُ فَاسْعَوا إِلَيـهِ يَا أُولِـي الـهِمَمِ
العِلْــمُ أَشْـرَفُ مَطْلُـوبٍ وَّطَالِبُــهُ للهِ أَكْـرَمُ مَـن يَّـمْشِي عَلَـى قَـدَمِ
العِلْــمُ نُــورٌ مُّبِيــنٌ يَّسْتَضِــيءُ بِــهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالـجُهَّالُ فِـي الظُّلَـمِ
العِلْــمُ أَعْلَـى حَيَــاةٍ لِلْعِبَــادِ كَمَــا أَهْــلُ الــجَهَالَةِ أَمْـوَاتٌ بِــجَهْلِهِمِ

وقد ابتدأ ميميته بالحث على طلب العلم، وما ذكره في فضل العلم هو من مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم، لأن ابن القيم ذكر في أول مفتاح دار السعادة وجوهًا كثيرة في فضل العلم تزيد على مئة وخمسين وجهًا، فأمتع وأطرب وأتى بكل بديع، وما في صدر الميمية هو ثلث هذه الوجوه التي ذكرها ابن القيم تقريبًا، حتى إن ابن القيم سمى سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق سماها سورة القلم، فتبعه الشيخ حافظ وسماها سورة القلم، وهو من أسمائها، ولعلك لن تجد كلامًا في فضل العلم يرفع الهمة أفضل مما في صدر مفتاح دار السعادة، وقد قال صِدِّيق حسن خان: هو كتاب لا يوجد نظيره في الإسلام.

وفي الميمية يقول الشيخ حافظ:

يَـا طَالِـبَ العِلْـمِ لَا تَبْغِـي بِـهِ بَـدَلَا ... فَقَـدْ ظَفِـرْتَ وَرَبِّ اللَّـوحِ وَالقَلَـمِ
وَقَـدِّسِ العِلْـمَ وَاعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ ... فِـي القَـولِ وَالفِعْـلِ وَالآدَابَ فَـالْتَزِمِ
وَاجْهَـدْ بِعَـزْمٍ قَـوِيٍّ لَّا انْثِنَـاءَ لَـهُ ... لَوْ يَعْلَـمُ الـمَرْءُ قَدْرَ العِلْـمِ لَـمْ يَـنَمِ
وَالنُّصْـحَ فَابْذُلْـهُ لِلطُّـلَّابِ مُـحْتَسِبًا ... فِـي السِّرِّ وَالـجَهْرِ وَالأُسْتَاذَ فَاحْتَـرِمِ
وَمَرْحَبًـا قُـلْ لِمَـن يَّأْتِيـكَ يَطْلُبُـهُ ... وَفِيهِمُ احْفَظْ وَصَايَا المُصْطَفَى بِهِمِ
وَالنِّيَّـةَ اجْعَـلْ لِوَجْـهِ اللهِ خَالِصَـةً ... إِنَّ البِنَـاءَ بِـدُونَ الأَصْـلِ لَـمْ يَقُـمِ
وَمَـن يَّكُـن لِّيَقُـولَ النَّـاسُ يَطْلُبُـهُ ... أَخْسِـرْ بِصَـفْقَتِهِ فِـي مَوْقِـفِ النَّـدَمِ
وَمَـن بِـهِ يَبْتَغِـي الـدُّنْيَا فَلَـيسَ لَـهُ ... يَـومَ القِيَامَـةِ مِـنْ حَـظٍّ وَّلَا قِسَـمِ

وقد ذكر الشيخ زيد بن محمد بن هادي -رحمه الله- عن الشيخ حافظ الحكمي: أن بعض أصحابه أرسل للشيخ حافظ قصيدة فيها ثناء عليه بما هو فيه، فأجاب الشيخ حافظ بأبيات قال فيها: [البسيط]

عَـادَتْ عَلَـيكُمْ تَـحِيَّاتٌ مُّضَـاعَفَةٌ ... أَمَّـا الـمَدِيحُ فَمَـا لِـي حَاجَـةٌ فِيـهِ
وَلَسْـتُ أَرْضَـاهُ فِـي سِـرٍّ وَّفِـي عَلَـنٍ ... وَّلَسْـتُ أُصْغِي إِلَـى مَـن قَـامَ يُنشِيهِ
إِذْ يُـورِثُ العَبْـدُ إِعْجَابًـا يُّسَـرُّ بِـهِ ... وَمَـا جَنَـاهُ مِـنَ الـزَّلَّاتِ يُّنسِـيهِ
مَـا لِـي وَلِلمَـدْحِ وَالأَمْـلَاكُ قَـد كَتَبُـوا ... سَعْيِي جَـمِيعًا وَرَبُّ العَرْشِ يُـحْصِيهِ

وَلَسْـتُ أَدْرِي بِـمَا هُـمْ فِيـهِ قَـد سَـطَرُوا   وَمَـا أَنَـا فِـي مَقَـامِ الـحَشْرِ لَاقِيـهِ
وَمَـا مَضَـى لَسْـتُ أَدْرِي مَـا عَمِلْـتُ بِـهِ   وَمَـا بَقِـي أَيُّ شَـيْءٍ صَـانِعٌ فِيـهِ
وَمَـا اغْتِـرَارِي لِأَهْـلِ الأَرْضِ لَـوْ مَـدَحُوا   وَفِـي السَّمَاوَاتِ ذِكْـرِي لَسْـتُ أَدْرِيـهِ
إِيَّـاكُمُ أَن تُعِيـدُوا مِثْلَهَـا أَبَـدَا   فَاسْتَقْبِلِ النُّصْحَ مِنِّـي حَيـثُ أُمْلِيـهِ

إلى آخر ما قال من النصح.

هذا آخره، وقد كان المقصود من هذه المجالس أمران اثنان:

الأول: أن نتعرف على فضل الأدب ومنزلته وأهميته.

والثاني: أن تعرض نوادره وروائعه وجواهره، لأنها إذا عرضت في المعرِض الحسن أوشكت أن تنجذب إليه القلوب، وأن تهوي إليها الأفئدة.

وكان الطريق إلى تحقيق هذا المقصود ثلاثة أشياء بُنِيَتْ عليها هذه المدارسة:

أما الأول: فلماذا الدعوة إلى علم الأدب؟ وعرفنا أن الإسلام حث عليه، وأنه يعين على فهم الكتاب والسنة، وأنه عنوان الهوية وأنه يحث على الاتصاف بالكمالات وعرفنا ما له من التأثير فإنه يرفع الوضيع ويضع الرفيع وينزع الغضب، ويثير الأحقاد ويكسب سرعة البديهة، ويثمر السلامة من اللحن، وتخلَّد به مفاخر الإسلام، ويُذَبُّ به عن الأحساب، ويُمضي الشفاعات، ويستنجز الصِّلات، وفيه ترويح للقلوب وأخذنا شواهد هذا كله من الأخبار والأشعار، وكان ذلك في ستة مجالس.

ثم القسم الثاني: في شعر العلماء وأدب الفقهاء منذ أن كان العلماء في هذه الأمة إلى عصرنا هذا، وأخذنا أن العلماء والفقهاء أجادوا في هذه الصنعة، وأنه ما كان الفقه ليحول بينهم وبين أن يكونوا شعراء مبدعين، وكان ذلك في أربعة مجالس، وهذا يمكن أن يدرج فيما قبله فمن دواعي العناية بالأدب؛ أن العلماء أقبلوا على الأدب وقالوا الشعر وأبدعوا فيه.

ثم القسم الثالث: في عصور الأدب من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث، نأخذ من كل عصر بعض أعلامه وشيئًا من أشعارهم وأخبارهم، وكانت المنهجية في هذا كله أن لا نشتغل

بما قيل في الأدب عن الأدب نفسه، بل عشنا مع الشعراء في سرعة بديهتهم وحلو نادرتهم ولطيف حكاياتهم، وعشنا معهم في مفاخراتهم في مجالس الملوك، وفي ارتجازهم في حروبهم، وفي إنشادهم في أنديتهم.

هُنَا ثَنَى المَجْلِسُ مِنْ عِنَانِهِ   يَرْجُو شِفَا الأَدِيبَ مِنْ أَشْجَانِهِ
حِينَ خَبَا بِعَصْرِنَا مِصْبَاحُهُ   وَرَكَدَتْ بَيْنَ الوَرَى أَرْوَاحُهُ
وَصَوَّحَ المُخْضَرُّ مِنْ رِيَاضِهِ   وَنَضَبَ النَّمِيرُ مِنْ حِيَاضِهِ
وَعَادَ مَغْنَاهُ صَعِيدًا بَلْقَعَا   وَمُمْعِرًا وَكَانَ دَهْرًا مُمْرِعَا
نَسَجْتُهَا وَقَدْ خَلَا وِفَاضِي   وَقَدْ بَدَا لِمَنْ يَرَى إِنْفَاضِي
لِكَي يَعُودَ النَّصْلُ فِي قِرَابِهِ   وَيَرْجِعَ الأَمْرُ إِلَى نِصَابِهِ
وَتُقْبِلَ النَّفْسُ عَلَى أَبْوَابِهِ   فَذَاكَ مِنْكَ يَا أَخِي أَوْلَى بِهِ
بِهَا بَلَغْتُ الآنَ مُنْتَهَاهَا   إِنْ قُبِلَتْ وَاهًا لَهَا وَوَاهَا
يَا رَبِّ يَا رَبِّ بِكُلِّ اسْمٍ لَكَا   انْفَعْ بِهَا وَصَفِّهَا لِوَجْهِكَا
يَا رَبِّ وَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا   إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ لَهَا فَمَنْ لَهَا
فَأَنْتَ لِي نِعْمَ الوَلِي وَأَنْتَ لِي   رَبِّي الحَفِي وَأَنْتَ لِي وَلِي وَلِي
هَذَا تَمَامُ مَا أَرَدتُّ قَالَهُ   وَالحَمْدُ للهِ الذِي هَدَى لَهُ
حَمْدًا رَسِيسَ الأَيْدِ فِي ازْدِيَادِ   مُكَافِئًا تَرَادُفَ الأَيَادِي
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالثَّنَا   وَالحُبُّ وَالتَّعْظِيمُ مَا صَبٌّ رَنَا
عَلَى نَبِيِّنَا البَلِيغِ الهَادِي   أَفْصَحِ كُلِّ نَاطِقٍ بِالضَّادِ
وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الأَبْرَارِ   مَعَادِنِ التَّقْوَى وَنُورِ السَّارِي

المحتويات